فرانز كافكا

الأعمال الكاملة

ترجمة: د. خالد البلتاجي

1

العربي للنشر والتوزيع

فرانز

كافـــكا

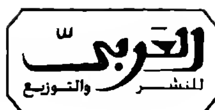
الأعمال الكاملة

1

الجزء الأول

ترجمها عن التشيكية

د. خالد البلتاجي



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
27921943(202+) - 27954529(202+) فاكس:27947566(202+)
sherifbakr@yahoo.com
www.alarabipublishing.com.eg

كافكا – الأعمال الكاملة

الجزء الأول

فرانز كافكا

ترجمة: د. خالد البلتاجي

الطبعة الأولى 2014

رقم الإيداع 2013/22420

ISBN 978-977-319-194-8

تدقيق لغوي: حمدي عبد الرحيم

This book was published with support of the Embassy of the Czech Republic in Cairo.

بطاقة فهرسة

كافكا، فرانز، 1883 – 1924

الأعمال الكاملة/ كافكا، ترجمة خالد البلتاجي.، ط1 – القاهرة:

العربي للنشر والتوزيع، 2013 ص؛ سم

تدمك 9789773191948

1- القصص الألمانية 2-الأدب الألماني: مجموعات

البلتاجي، خالد (مترجم) ب- العنوان 35,894

مقدمة المترجم

ظهرت في العقود الأخيرة العديد من الدراسات حول أعمال فرانز كافكا، وهى في الحقيقة تشرح وتحقق أعمال كافكا من نواحي متعددة. خطورة هذا الأمر أن تعدد التأويلات غالبًا ما يغلق الباب أمام فهم العمل بطريقة غير منحازة، مما يجعله عرضة لأن يفقد التأثير الذي أراده الكاتب.

بدأت أعمال كافكا تصدر مُحققة في عام 1982 في دار نشر فيشر في فرانكفورت وحتى عام 1990. صدرت منها رواية (القلعة، 1982)، و(المفقود، 1983)، و(المحاكمة، 1990) التي تبعها في نفس العام صدور (اليوميات). أطلقوا على كل مجلد اسم (كتابات، ويوميات، وخطابات) وكانت تضم نصوص لأعمال بناء على مخطوطات الأديب، ثم صدر مجلد أو مجلدان مصحوبان بتعليقات وشروح.

كتاب (فرانز كافكا، الأعمال الكاملة) الذي نقدمه اليوم بمناسبة مرور تسعين عامًا على وفاة الأديب هى أول ترجمة لأعمال الأديب التشيكي فرانز كافكا من اللغة التشيكية، رغم أنه لم يكتبها بلغة البلد الذي وُلِد وعاش ومات فيها، وهى جمهورية التشيك. استندنا فيها إلى نسخة المترجم التشيكي فلاديمير كافكا عن الألمانية في ستينات القرن الماضي. جمعنا في هذا المجلد أهم الأعمال التي صدر بعضها في حياة الأديب والبعض الآخر بعد وفاته. في هذا المجلد نحاول أن نُغطي

مساحة زمنية كبيرة في حياة الأديب الإبداعية من خلال القصص الطويلة أو بالأحرى الروايات القصيرة التي كتبها فرانز كافكا. رأينا أنه قد يكون من الأفضل رؤية كل إبداعات فرانز كافكا قدر الإمكان متجاورة أو متتابعة، بغض النظر عن كونها أعمال مكتملة مثل (فنان الجوع) و(أبحاث كلب)، و(وطن الفئران)، و(التحول - المعروفة أيضًا باسم المسخ)، أو أجزاء من أعمال لم تكتمل مثل (صراع)، و(في مستعمرة العقاب) وغيرها.

تعد قصة (صراع) أول أعمال كافكا المعروفة، وهى بوابة الدخول إلى عالم فرانز كافكا. يوثق فيها كافكا نهاية حقبة الكتابة الجمالية. اتجه كافكا إلى اللغة الطبيعية المهجورة وقتها التي بلورها لاحقا وحولها إلى لغة رصينة وصارمة، ظهرت في أعماله منذ حوالي عام 1912. كانت بمثابة وسيلة للغوص إلى عالم الإنسان الداخلي، أو أسفل سطح التركيبة الاجتماعية في زمنه. وصارت لغة كافكا هذه مميزة له.

إن أكثر ما يميز أعمال كافكا عن غيره من الأدباء هو شمولها. فلا يمكن فهم أي نص له إلا في إطار مجمل أعماله. وأي تأويل له خارج هذا الإطار يؤدي إلى الإرباك، أو التفسير المصنع، أحادي النظرة. فكل أعمالة وكل صوره وتشكيلاته اللغوية تشكل عالمًا خاصًا ومستقلًا. تضم أعمال كافكا الأولى، وخاصة قصة (صراع) العديد من القضايا الرئيسية والمشاكل التي عالجها كافكا في كل إنتاجه الأدبي اللاحق. إن

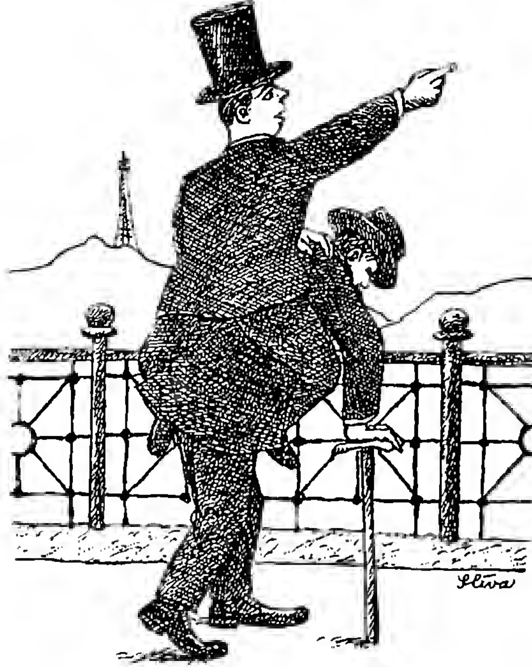
الصراع الذي يصفه كافكا في هذه القصة تقوده كل أبطال كافكا التي ظهرت في أعماله اللاحقة. إنه صراع من أجل الفهم الكامل والحقيقي لجوهر الأشياء، صراع من أجل فهم العالم في مجمله. إنها الأشياء التي تحمل في طياتها وجودنا الحقيقي، وتتساقط من حولنا، كما يقول كافكا "مثل عاصفة ثلجية" لكن نظرة البشر لا تسمح لهم بفهم الأمور على حقيقتها الجميلة الهادئة. يشوهون الحقيقة، وينزعون عنها الحياة، فيصبح الطريق إليها مغلقًا بفضل التباس المسميات التي يطلقونها عليها. إن كل فعل يقوم به أحد أبطاله يقدم "دليلًا على أن الحياة مستحيلة" ورغم هذا يجاهد في التعرف عليها. فطالما أراد الإنسان أن يسعى إلى الكمال فعليه أن يغوص في التيار. من هذا المنطلق تواصلت تحليلات كافكا لكل جوانب الأشياء واحتمالاتها التي لم يستطع رفضها بشكل مطلق، لكنها سرعان ما تغلق أبوابها أمامه. من هنا جاءت قضية المتابعة المستمرة لكل فكرة، ولكل حكم أصدره وصاغه بلغة رصينة. نجد في تراكيبه اللغوية صورة العالم، حتى في أشد صورها تطرفًا وانفصامية كما في قصة (العرين).

من هذا الوعي بالتحول الدائم، وباحتمالات الأشياء التي لا تنتهي نشأ شعوره بالانفصام عن ذاته. حيث نجد كل كلمة، وكل حركة تتحول إلى مشكلة، تصل إلى درجة تعذيب الذات. لا يوجد في عالم كافكا مكان للرمز الذي يشير إلى جوهر الوجود بشكل قاطع. يخلو أسلوبه السردي من عقد المقارنات. إنه أسلوب يسعى بكل تركيز إلى الفهم

المباشر للأشياء من خلال وصفها. هدفه الوحيد والأوحد هو مادية الأشياء المطلقة. بهذا الأسلوب استطاع كافكا أن يجعل الأشياء حية. تعبر من تلقاء نفسها عن نفسها دون الحاجة إلى تعليق منه عليها، حيث يختفى الراوي تمامًا حتى في قصة (العرين)، فرغم أنها كتبها بصيغة المتحدث فهى تخلو من الراوي. لكن القصة، أو لنقل الحالة في هذا العمل تتحدث من تلقاء نفسها. فلا توجد مسافة يقف فيها الراوي بين الشيء والحدث. فهو لا يحتاج إلى فجوة كهذه.

د. خالد البلتاجي
المترجم

صراع[1]



[1] تاريخ كتابة هذه القصة غير متفق عليه في المصادر. ماكس برود يؤكد أن كافكا كتبها بين عامي 1902 و1903. النسخة التي بين أيدينا هى واحدة من نسختين. النسخة الأولى ومنها هذه الترجمة كتبها كافكا بخط الكورنت الأماني الذي كان مستخدما في الأراضي التشيكية حتى بداية القرن العشرين. أما النسخة الثانية فظهرت بالخط اللاتيني في عامي 1909 وحتى أكتوبر 1910.

الناس يرتدون ملابسهم
يترنحون هنا وهناك فوق الرمال
تحت الأفق الواسع
وبعيدًا عن الهضاب
يميل الأفق من جديد
على الروابي البعيدة

1

نهض بعضهم عند الساعة الحادية عشرة، وانحنوا، وتصافحوا، وأثنوا على اللقاء، ثم خرجوا عبر بوابة ضخمة إلى الدهليز لأخذ معاطفهم. كانت صاحبة الحفل تقف منحنية وسط الغرفة، وتنورتها تتأرجح في الهواء بثنياتها المزركشة.

جلستُ عند طاولة صغيرة، لها ثلاثة أرجل رفيعة مستقيمة، ارتشفتُ ثالث كأس نبيذ وقد نسيت لفة صغيرة من الخبز اخترتها بنفسي ورصصتها فوق بعضها.

وهنا رأيتُ أحد معارفي الجدد، بدا منزعجًا وثائرًا وهو يقف عند عتبة إحدى الغرف المجاورة. أردت أن أشيح بنظري عنه، فأمره لا يهمني. لكنه توجه نحوي مباشرة، مال عليّ وهو يبتسم، وقال بذهن شارد: "اسمح لي أن أحادثك. حتى الآن كنت جالسًا في الغرفة المجاورة مع فتاتي منذ الساعة العاشرة والنصف.

اسمع يا سيدي! يا لها من سهرة! أعرف أنه من غير اللائق أن أتحدث معك في هذا الأمر. فنحن تعارفنا على بعضنا للتو. في الحقيقة لقد التقينا مساء اليوم على درجات السلم، وتبادلنا بعض الكلمات كضيوف في هذا البيت. والآن أرجوك أن تسامحني، فلا أستطيع أن أخفي سعادتي، وأحتاج لمن أتحدث إليه. وأنا لا أعرف أحدًا غيرك هنا"

نظرت إليه بحزن – كان طعم كعكة الفواكه عاديًا – وقلت له وأنا أرفع رأسي لأنظر إلى وجهه المتورد: "أنا سعيد أن تراني أهلًا للثقة، لكنني لا أرحب بأن تحكي لي عن أمورك الخاصة. فلولا ارتباكك لعرفت بنفسك أنه من غير اللائق أن تحكي عن حبيبتك لشخص يجلس وحيدًا مع كأس من الخمر

وما إن انتهيت من كلامي حتى جلس فجأة، واتكأ على المقعد ومدّ ذراعيه. ثم حرك المقعد إلى الخلف وقد ثنى ذراعيه، وبدأ يتحدث بصوت عالٍ وكأنه يتحدث مع نفسه:

"قبل لحظات قليلة كنا وحدنا في هذه الغرفة. أنا وأنيتشكا. وقبّلتها، قبّلتها على شفتيها، وعلى أذنيها، وعلى ذراعيها. يا إلهي! يا إلهي!"

بدأ بعض الضيوف الذين رغبوا في حديث أكثر حيوية يتقدمون نحونا وهم يتثاءبون. فهممت واقفًا، وقلت بصوت يسمعه الجميع:

"حسنًا، سأذهب معك كما تريد، لكنني مُصِرّ على أنه من العبث أن نذهب الآن أثناء الليل وفي فصل الشتاء إلى منطقة باترشين. فالجو أصبح باردًا، والطرق في الخارج زلجة لأن الثلوج بدأت تسقط، لكن حسنًا، كما تريد".

حملق فيّ مندهشًا، وفتح فمه بشفتيه العريضتين، وعندما رأى الرجال يقفون بالقرب منا، ابتسم وهم واقفًا، ثم قال:

"لا عليك، البرد سيفيدنا كثيرًا، فملابسنا مشبعة بالحرارة والدخان، كما أشعر أنني ثمل قليلًا رغم أني لم أشرب كثيراً، لنودع الآخرين ثم ننصرف".

تقدمنا من صاحبة الحفل، فقال وهو يقبل يدها:

"أنا سعيد للغاية أن أراكِ اليوم بهذه السعادة"

أعجبته كلماتها الرقيقة، فقبل يدها مرة أخرى، فابتسمت له. اضطررت أن أسحبه من أمامها. وفي دهليز البيت وقفت إحدى السيدات التي نراها لأول مرة. ساعدتنا على ارتداء معاطفنا، ثم حملت مصباحًا صغيرًا حتى تضيء لنا درجات السلم. كانت رقبتها عارية إلا من وشاح حريري أسود لفته أسفل ذقنها. كان جسمها يتأرجح خلف الرداء الفضفاض. كانت تتمهل في مشيتها وهي تتقدمنا على درجات السلم

وتحمل مصباحًا في يدها. كان وجهها متوردًا من شرب النبيذ، وشفتاها تنتفضان في ضوء المصباح الذي انتشر في منطقة الدرج.

وفجأة وضعت المصباح على إحدى الدرجات، ثم تقدمت خطوة من الرجل الذي تعرفتُ عليه، واحتضنته وراحت تقبله، ثم استقرت بين أحضانه. وعندما دسست في كفها بعض النقود خفقت برأسها، ثم فتحت باب البيت الصغير بهدوء، وانصرفنا وسط الظلام.

كان قرص القمر الكبير يطل بنوره على شارع مضيء مستقيم وخالٍ من المارة وسط سماء تظللها بعض الغيوم. كان السير على الأرض الزلقة يتطلب الحذر والسير بخطوات قصيرة.

ووصلنا بصعوبة إلى أرض فضاء. ساد السرور ونحن مفعمون بالحيوية. رفعت قدمي عاليًا حتى سمعت صوت طرقعة مفاصلي، وصحت باسم أحدهم عاليًا، وكان أحد أصدقائي قد اختفى عند ناصية أحد الشوارع، ورميت بقبعتي بعيدًا وأنا أقفز في الهواء، ثم التقطتها من جديد بصورة استعراضية.

كان صديقي الجديد يسير بجانبي غير منتبه إلى ما أفعله. مسدل الرأس، لا يتحدث. تعجبت من هذا الأمر، كنت أعتقد أنه سيطير من الفرحة عندما نبتعد عن هذا الحقل.

التزمت أنا الآخر الهدوء. ولكزته في ظهره أستحثه على الانتباه. كان تغير مزاجه فجأة أمرًا غريبًا. لكني سحبت يدي، ودسستها في جيب المعطف عندما وجدت أنني لست في حاجة إليها.

سرنا صامتين. أنصت إلى وقع خطواتنا وأنا أتعجب من أنني غير قادر على ضبط إيقاع خطواتي مع خطوات صاحبي الجديد هذا. لكني كنت أرى قدميه. من وقت لآخر يظهر أحدهم خلف النافذة ويتطلع إلينا.

عندما وصلنا إلى شارع فرديناند بدأ صاحبي يصفر بهدوء بلحن من فيلم "اختطاف أميرة الدولار كنت أسمعه جيدًا. ما معنى هذا؟ هل يتعمد إهانتي؟ إن موسيقى كهذه يمكن أن تزعجني في هذه اللحظة، وتفسد عليّ التمشية بأكملها. لماذا لا يتكلم معي؟ لو لم يكن في حاجة لصحبتي لماذا لم يتركني وشأني، وسطء الدفء مع كأسي وطعامي؟ أنا لم أقترح تمشية كهذه. كان في إمكاني الخروج بمفردي. لقد كنت في حفلة وسط الناس، لكني أنقذته من موقف مشين. والآن أسير مع القمر. حتى هذا ليس أمرًا سيئًا. فالنهار أقضيه في العمل، والمساء في السهرات، والليل في الشوارع، مبالغة في كل شيء. إنها حياة طبيعية وتتخطى كل الحدود.

كان صديقي هذا يسير خلفي، لكنه أسرع من خطواته عندما وجد نفسه متأخرًا عني. لم ينبس بكلمة واحدة. لا يمكن القول بأننا كنا نهرول. فكرت في أن ألج إلى أحد الشوارع الجانبية، فلم يدعني أحد

إلى التمشية معه. كان بإمكاني أن أعود إلى البيت بمفردي، ولن يمنعني أحد من ذلك. ثم نظرت لأجد صديقي هذا يلج إلى نفس الشارع دون أن يعرف ما أفكر فيه. مع السلامة يا صديقي العزيز! سيكون الجو دافئًا في غرفتي، وعندما أصل سأشعل المصباح وأضعه فوق قاعدته الحديدية، ثم أنسل إلى سريري الذي يقف فوق سجادة شرقية بالية. مشاهد جميلة! ولِمَ لا؟ لكن ماذا بعد؟ لا شيء. في غرفتي الدافئة سيضيء المصباح على صدري. ثم يسري البرد في جسدي وأقضي ساعات وساعات وحيدًا بين حوائط مزينة بأشجار النخيل، وفوق أرضية تظهر مائلة في مرآة معلقة فوق الحائط في إطار ذهبي.

كنت أشعر بالإرهاق يشتد في قدمي وقررت أن أعود إلى البيت بأية طريقة، وأستلقي في فراشي طالما وجودي هنا أصبح عديم النفع، لكن عليّ أن أودع هذا الرجل قبل أن أنصرف، أم لا؟ لقد كنت مترددًا في أن أذهب دون أن أودعه، لكني أشعر بضعف يمنعني من رفع صوتي عند وداعه. تسمرت في مكاني، ثم اتكأت على جدار أحد البيوت التي يسطع عليها ضوء القمر، ورحت أنتظر.

توجه صديقي فوق الرصيف نحوي مباشرة، وبسرعة، وكأنني أريد أن أمسك به. طرف بعينيه في إشارة إلى اتفاق بيننا يبدو أنني نسيته.

سألته: "ماذا هناك؟"

قال: "لا شيء، أردت فقط أن أسألك عن رأيك في تلك السيدة التي قبلتني في مدخل البيت. ماذا تعرف عنها؟ هل التقيتما من قبل؟ لا؟ أنا أيضًا لم أرها من قبل. هل هى عذراء فعلًا؟ أردت أن أسألها عندما تقدمتنا فوق الدرج".

"إنها عاملة غرف وليست حتى مشرفة غرف، لاحظت ذلك من يديها المتوردتين، وعندما دسست النقود في يدها شعرت بخشونة بشرتها"

"لكن هذا دليل على أنها تعمل منذ مدة طويلة، هذا ما أعتقده"

"ربما أنت محق. لم يكن بالإمكان معرفة أشياء كثيرة في مثل هذا الضوء الخافت، إنها تذكرني أيضًا بابنة أحد معارفي من الضباط"

قال: "الأمر بالنسبة لي ليس كذلك"

"هذا لا يعني ألا أعود إلى البيت، لقد تأخر الوقت، وعليّ أن أستيقظ للعمل مبكرًا. وأنا لا أنام جيدًا في البيت" ثم مددت له يدي لأودعه.

صاح: "أف، يدك باردة جدًا، لا يمكن أن يعود أحد إلى البيت بمثل هذه اليد الباردة. كان عليك يا عزيزي أن تقبلها أنت أيضًا. هذا شيء أهملت فيه، مازال بإمكانك تعويضه، لا أن تذهب للنوم في هذه الليلة. ماذا

دهاك؟ فكّر في نوعية الأفكار التي تراودك وأنت نائم تحت الغطاء في السرير بمفردك. وكم من الأحلام المزعجة قد تراودك تحت هذا الغطاء"

قلت له: "أنا لا يزعجني شيء، ولا يراودني شيء. كفّ عن هذا الكلام، أنت شخص مثير للسخرية" وانتهى الحوار. واصلت السير وأنا أتابعه عن غير قصد، لأن كلماته تركت أثرًا في نفسي.

يبدو أنني فهمت من هذا الكلام أن صاحبي يتوقع مني ما ليس في، وما يستدعي من وجهة نظره الاحترام ويتوقعه مني. جيد أنني لم أعد إلى بيتي بعد. من يدري، فهذا الإنسان الذي يقف بجواري ويتصاعد البخار من فمه ويتبخر وسط الصقيع يتحدث عن أمور تخص عاملات الغرف. ربما سيعطيني هذا أمام الناس قيمة ما دون أن أسعى لتحقيقها. المهم ألا تفسده هذه الفتاة! دعهن يقبلنه ويعانقنه كيفما يشأن، فهذه هي مهمتهن وهذا هو حقه. لكن غير مسموح لهن أن يُغرينّه. وعندما يقبلنه فكأنهن قبلنني ولو قليلًا، من جانب فمي حتى أكون دقيقًا. لكن عندما يغرينّه، فعندها سيسرقنه مني. ويجب أن يكون معي باستمرار، نعم، باستمرار. فمن سيحميه غيري! صحيح أنه رجل غبيّ. عندما قال له أحدهم في شهر فبراير: اسمع! تعال معي إلى منطقة بترشين، فجرى وراءه. لكن كيف هو الحال لو أنه سقط في الاختبار، ولو أن الجو كان باردًا، ماذا لو هاجمه أحد الغيورين في

شارع بوشتوفني؟ وماذا عني، هل سأختفي من هذا العالم؟ سنرى، ولن أتركه من الآن.

غدًا سيتكلم مع الآنسة آنا، سيحكي لها في البداية عن أمور عادية بالطبع، لكنه لن يتحمل، وسيقول فجأة: بالأمس يا أنّا التقيت أثناء الليل بعد أن انصرفت من الحفل، أتسمعين! التقيت برجل لم أر مثله في حياتي من قبل. شكله – كيف أصفه لكِ – شكله مثل عامود يهتز، هذا هو شكله، لحيته سوداء في نصفها العلوي. جسمه مغلف بخرقات كثيرة بالية، تغطي جسمه كله، كانت ملتصقة به تمامًا في الهواء الساكن مساء أمس. ماذا دهاكِ، هل ذهبت شهيتكِ؟ حسنًا، إنها غلطتي! فأنا أتحدث بطريقة غير لائقة. لو أنكِ رأيته وهو يسير بجواري على استحياء، وهو يرى مدى غرامي، وهو أمر عادي. وحتى لا يقاطعني وأنا أتحدث عنها تقدمني بعدة خطوات. أعتقد يا آنا أنك كنتِ ستضحكين، وتخافين بعض الشيء، لكني كنت سعيدًا أنه معي. لكن أين كنتِ؟ كنتِ في سريرك، تحلمين بإفريقيا. كنت أحياناً أشعر أن السماء والنجوم تبتعد بسبب تنهدات صدره المسطح. أتعتقدين أني أبالغ في الأمر؟ أنا لا أبالغ يا أنّا، أقسم بروحي، أقسم بروحي التي في يديكِ أني لا أبالغ.

لن أغفر لصاحبي هذا ما سببه لي من خجل وأنا أستمع إلى كلماته تلك. رحت أخطو بمحاذاة ضفة النهر في منطقة فرانتيشك والأفكار

تجيش في عقلي واحدة بعد الأخرى، فنهر فلتافا والأحياء الموجودة على الضفة المقابلة غارقان في الظلام إلا من بعض المصابيح التي تضيء وتداعب عيني.

مررنا بخطوط الترام وتوجهنا نحو سور النهر، ثم توقفنا عنده. عثرت على شجرة أتكأ عليها. ارتديت قفازي لأن الهواء البارد كان يهب من جهة الماء، ثم تنهدت كما يفعل الإنسان عادة وهو يقف أثناء الليل عند النهر، بعدها أردت أن أواصل السير. لكن صاحبي ظل واقفًا يتطلع إلى الماء. ثم اقترب أكثر من سياج النهر، ورفع قدميه على حديد السور، ووضع عليه معصمه، ووضع جبينه بين راحتيه. ماذا ينتظر؟ أكاد أتجمد من البرد، فرفعت ياقة معطفي إلى أعلى. مدّ صاحبي ظهره وكتفيه ورقبته ونصف جسمه الأعلى، ثم انكفأ فوق ذراعيه المشدودتين من فوق السور. قلت له: "إنها الذكريات، أليس كذلك؟ "نعم إنها الذكريات، إن استرجاع الذكريات في حد ذاته أمر حزين، فما بالك بالذكريات نفسها! لا عليك من هذه الأمور، إنها بلا فائدة لي ولكَ. إنها تحط من همة الإنسان – وهذا أمر واضح كالشمس – ومكانته الآنية، دون أن تنفعه فيما مضى، بغض النظر عن أن ما مضى لا يحتاج إلى أيّ دعم. أتعتقد أنني ليس عندي ذكريات؟ آه، إنها عشرة أضعاف ذكرياتك! الآن على سبيل المثال يمكنني أن أتذكر عندما أجلس في مكان ما على الدكة. كان هذا في المساء، أيضًا على ضفة النهر. وكان ذلك في الصيف. من عاداتي أني أضم ركبتي إلى بعضهما وأحتضنهما بيدي.

في مساء كذلك المساء أسندت رأسي على مسند الدكة الخشبي، ونظرت إلى الجبال وسط السحاب على ضفة النهر المقابلة. كانت أنغام الكمان تنتشر ناعمة من أحد الفنادق علي ضفة النهر. وعلى جانبي النهر تظهر القطارات من وقت لآخر ويتصاعد منها دخان يتلألأ"

قاطعني صاحبي والتفت حوله وكأنهم يحسدونه على مرافقتي له. قلت له: "آه، أريد أن أسهب في الحديث" ولم أضف على ذلك.

بدأ هو الحديث، وقال: "الأمور تبدأ هكذا. وأنا أنزل اليوم على سلم البيت لأذهب للتمشية قبل أن يحل المساء تعجبت عندما شعرت بيدي تهتز هنا وهناك بطريقة عجيبة. فقلت لنفسي على الفور: حسنًا، شيء ما سيحدث اليوم، أو حدث بالفعل" قال هذا ونحن نسير، ثم نظر إليّ بعينيه الكبيرتين وهو يبتسم.

أطلقت له العنان ليتحدث. فحكي لي أشياءَ كثيرة والابتسامة مرسومة على وجهه وهو ينظر إليّ بعينيه الكبيرتين. رحت أقاوم نفسي كي لا أضع ذراعي على كتفيه لأقبله في عينيه ليتوقف عن الكلام. أسوأ ما في الأمر أنه حتى تصرف كهذا لن يغير من الأمر شيئاً، فأنا على أي حال سوف أنصرف بعيدًا، سأرحل فورًا.

رحت أبحث عن وسيلة تساعدني على البقاء فترة أخرى مع صاحبي، ولا حظت أنه ربما تزعجه قامتي الطويلة، فهو يبدو بجواري

صغيراً. هذه الحقيقة أزعجتني – كان الوقت بالطبع متأخرًا، ولم نر تقريبًا أيّ شخص لدرجة أني حنيت ظهري حتى كادت يداي تلامسان ركبتي. شددت جسدي من جديد على مهل حتى لا ينتبه صاحبي إلى الأمر. لذا قمت بلفت نظره بعيدًا عني بكل الطرق، فطلبت منه أن ينظر نحو النهر، وأشرت له بيدٍ مستقيمة نحو الأشجار التي تقع في جزيرة سترشلاتسكي، وإلى مصابيح الجسر التي تنعكس صورها على سطح النهر.

لكنه استدار بحدة، ونظر إليّ – لم تكن قامتي منتصبة بالكامل بعد – وقال: "اسمع، ما هذا؟ إنك محنيّ تمامًا، ما هذا الذي تفعله؟"

قلت له ورأسي بمحاذاة مئزر سرواله، وغير قادر على النظر إلى أعلى: "أنت محق تمامًا! أنت حادّ البصر

"انهض إذن، اعدل قامتك! يا لها من سخافات!"

قلت وأنا أنظر إلى الأرض القريبة مني: "ماذا تقول، سأظل كما أنا"

"يجب أن أقول لك إنك ماهر جدًا في إثارة غضب الآخرين. تعرقل سيرنا بلا طائل. كف عن هذه الأمور!"

قلت له: "لا ترفع صوتك في ليلة هادئة كهذه".

أضاف: "عمومًا، كما تشاء" ثم قال بعد لحظات: "إنها الواحدة إلا الربع" رفعت رأسي لأتحقق من الوقت على ساعة برج الطاحونة.

ثم رفعت قامتي على الفور وكأنه جذبني إلى أعلى من شعري. وتركت فمي مفتوحًا حتى أنفث منه غضبي. لقد فهمته، إنه يطلب مني الرحيل. يبدو أن لا مكان لي عنده، ولو كان عنده مكان ما فلن أجده بسهولة. وبالمناسبة، لماذا أنا حريص على البقاء معه. لا، لا، عليّ أن أذهب – وفورًا – إلى أقربائي وأصدقائي الذين ينتظرونني. ولو لم يكن لديّ أصدقاء أو أقرباء، فيجب أن أعتمد على نفسي (وما فائدة النواح!)، لهذا فقط عليّ أن أنصرف فورًا. فهو يعتقد أنه لا شيء يدفعه لتحملني بجواره، ولا حتى قامتي الطويلة، ولا القبول الذي أتمتع به أو يدي الباردة. ولو كنت أرى أن عليّ البقاء معه، فإنها ستكون رؤية محفوفة بالمخاطر.

قلت له: "أنا لست في حاجة إلى أن تقول لي هذا صراحة" وهذا بالفعل حقيقي.

"الحمد لله أنك تقف بقامة منتصبة أخيرًا. أنا لم أقل سوى أن الساعة الواحدة إلا ربعًا"

قلت له: "حسنًا، حسنًا"، ثم دسست ظفرين من أصابعي بين تجويفات أسناني المرتعشة. "طالما أني لست في حاجة إلى أن تقولها لي

صراحة، فأنا لا أحتاج إلى شرح. لا أحتاج إلا لطفك. من فضلك، أرجوك اسحب كلامك!".

"إن الساعة الواحدة إلا ربعًا؟ بكل سرور، إن الساعة تجاوزت الواحدة إلا الربع"

رفع ذراعه الأيمن، وهز يده في الهواء ليسمع صوت حلقات سلسلة يحملها حول معصمه. بات من الواضح أنه سيرتكب جريمة قتل. بقيت بجواره، فتحسس سكينًا. كان يمسك بقبضته في جيبه ثم سحبه وصوبه ناحيتي. أتوقع أنه سيتعجب من أن الأمر سيكون في منتهى البساطة، وربما لن يتعجب، الله أعلم. لن أصرخ، سوف أنظر إليه فقط، وأظل أتطلع إليه قدر استطاعتي.

قال: "يا إلهي؟"

انطلق أحد الحراس فوق الرصيف وكأنه يركب زلاجات خارجًا من مقهى بعيد، نوافذه معتمة. تعثر في سيفه، فأمسكه بيده، ثم واصل هرولته، وفي النهاية استدار بشكل دائري. سعل بصوت منخفض وواصل هرولته ورأسه مفعم بالموسيقى.

انتابني خوف شديد من ذلك الحارس الذي يبعد مسافة مائتى خطوة عن جريمة قتل قادمة ولا يرى أو يسمع سوى نفسه. كنت على

أى حال متأكداً من أن أمري قد انتهى، سواء تركته يطعنني أو هربت. أو ليس من الأفضل الهروب ومواجهة موت تدريجي أكثر إيلامًا؟ لم تكن لدي أسباب وجيهة وجاهزة لهذا النوع الثاني من الموت، لكني لا أحب أن أضيع اللحظات الأخيرة المتبقية لي في الحياة في البحث عن أسباب. سيكون لدي لاحقاً مزيد من الوقت حتى أصل إلى قرار، وها أنا قد توصلت إلى قرار.

كنت مضطرًا إلى الهرب، وكان هذا أمراً سهلاً للغاية. يمكنني بعد أن نتجه يسارًا ناحية جسر الملك كارل أن أهرب إلى شارع كارل على اليمين. إنه شارع متعرج، وتوجد هناك مداخل بيوت وبارات معتمة، مازالت مفتوحة. فلا يوجد سبب لليأس.

عندما خرجنا من الممر المقنطر عند نهاية كورنيش النهر ووصلنا إلى ميدان كريشوفنيتسكا هرولت إلى داخل الشارع وأنا أرفع يديّ إلى أعلى. لكني سقطت أمام باب كنيسة سيمينارشسكي الصغير، فقد كان هنا درج لم أنتبه إليه. تسبب هذا في ضوضاء، وسقطت وسط الظلام، بعيدًا عن أقرب مصباح.

خرجت من إحدى الحانات سيدة بدينة وهى تحمل مصباحًا صغيرًا لترى ما يحدث في الشارع. كان صوت البيانو لايزال يتردد بصوت هادئ، لكن عازف البيانو بدأ يعزف بيدٍ واحدة، لأنه استدار ناحية الباب الذي كان لا يزال مواربًا. ففتحه رجل يرتدي معطفًا،

ورفع ياقته حول عنقه، وبصق على الأرض، ثم ضم إليه تلك المرأة بقوة حتى اضطررت إلى رفع المصباح الصغير كي يحميها منه. صاح الرجل وهو يدير رأسه صوب الغرفة، وقال: "لا يوجد شيء هنا" ثم استدارا ودخلا، وأغلقا الباب خلفهما.

كلما حاولت النهوض أسقط على الأرض من جديد. قلت لنفسي: "إن الأرض زلقة" شعرت بألم في ركبتي. لكني في الوقت نفسه كنت سعيدًا لأن رواد هذا المقهى لم يروني، ويمكنني أن أظل مستلقيا هنا بكل هدوء حتى الصباح.

يبدو أن صاحبي وصل إلى الجسر دون أن يلاحظ غيابي، فبعد لحظات وصل إليّ. لم ألاحظ أية دهشة على وجهه عندما رآني – فقط مال برأسه مثل الطائر، وبدأ يمرر يده عليّ بلمسات رقيقة. مررها على عظام وجنتي هنا وهناك، ثم وضع كفه على جبينه، وقال: "هل أصبت بأذي؟ إن الأرض زلقة، ويجب أن تتوخى الحذر – ألم تقل لي هذا؟ هل تشعر بألم في رأسك؟ كلا. آه، إنها ركبتك. إنه شيء بغيض"

لكنه لم يقو على مساعدتي كي أنهض. فأسندت رأسي على ذراعي الأيمن – واستقر كوعي على أرض الشارع – وقلت: "ها نحن اجتمعنا من جديد" لكن الخوف عاودني، فدفعته بكلتا يدي نحو عظام ركبتي حتى يبتعد عني، وأنا أقول له: "انصرف! ابتعد عني!"

كان يضع يديه في جيبيه ويتطلع إلى الشارع الخالي من المارة تارة، وإلى كنيسة سمينارشسكي، وإلى السماء تارة أخرى. انتبه لى عندما صدر من الشوارع الجانبية ضجيج إحدى السيارات، وقال: "لماذا لا تقول شيئًا يا عزيزي؟ هل أنت على ما يرام؟ لماذا لا تنهض؟ هل أبحث عن سيارة لتقلك؟ إن أردت، سأحضر لك كأس نبيذ من البار. لكن لا يجب أن تظل مستلقيًا هنا في هذا البرد. كنت تريد أن تذهب إلى منطقة بترشين"

قلت له: "بالطبع" ثم نهضت وأنا أشعر بألم شديد وبدأت أترنح. رحت أمعن النظر في تمثال الملك تشارلز الرابع حتى أتيقن من المكان الذي أقف فيه. لكن هذا لم يساعدني، لولا أني تخيلت أن فتاة تضع وشاحًا أسود قد وقعت في حبي، ليس هيامًا، لكنه حب حقيقي. كنت سعيدًا بالقمر الذي نشر ضوءه عليّ. أردت أن أتوارى خجلًا في الممر المقنطر عند برج الجسر عندما انتبهت إلى أن القمر ينشر ضوءه في كل مكان. بسطت ذراعي من السعادة لأتذوق ضوء القمر بكل ما أملك. شعرت بخفة، ورحت أحرك يدي المنبسطة وكأنني أسبح، وتقدمت إلى الأمام وأنا لا أشعر بأي ألم أو إرهاق. لماذا لم أجرب هذا من قبل؟ رأسي تسبح في الهواء البارد، وكوعي الأيمن يتحرك بكل مرونة، ورحت أربت عليه مثنيًا. تذكرت أني وقتها لم أستطع مجاراة صاحبي في السير، وهو الآن يسعى للحاق بي. أكثر ما أسعدني في هذا الموقف أن ذاكرتي مازالت جيدة وتحتفظ بهذه الأشياء. لا يجب أن أرهق نفسي بالتفكير، وأن أواصل السباحة حتى لا أسقط في القاع. وحتى لا يقول أحدهم

لاحقًا إنه في مقدور كل شخص أن يسبح على الرصيف وأن الأمر لا يستحق الذكر، نهضت بحركة واحدة، وتحركت نحو السور أحتضن كل تمثال يقابلني من تماثيل القديسين.

أمسك صاحبي بيدي وأنا عند التمثال الخامس، وكنت في الواقع أسير فوق الرصيف بإيقاع لافت للنظر. توقفت فوق أرض الشارع وأنا اشعر بألم في ركبتي.

قال صاحبي وهو يمسكني بيد ويشير بيده الأخرى إلى تمثال القديسة لودميلا: "دائمًا ما تعجبني يد هذا الملاك الموجود في يسار التمثال. انظر! إنهما يدين شديدتي النعومة! يدان ملائكيتان بالفعل. هل رأيت شيئًا كهذا من قبل؟ لم تر، لكني رأيت، لأنني اليوم قبلت يد إحداهن"

جاءتني الآن الإمكانية الثالثة. كيف أموت على طريقتي. لم أكن في حاجة إلى أن يطعنني أحد، لم أكن في حاجة إلى الهرب، يكفيني أن أخرج في الهواء. فليذهب هو إلى حي باترشين هذا، لن أمنعه، ولن أزعجه بهروبي.

صرخت فيه قائلًا: "دعك من حكاياتك هذه! لا أريد أن أسمع مجرد أشياء منقوصة. احكِ لي عن شيء، من البداية وحتى النهاية. أؤكد لك أني لن أستمع إلى أقل من هذا. أنا أعشق الحكايات الكاملة" توقفت عن

الصراخ بمجرد أن التفت إليّ، وقلت: "لا عليك من صمتي، احكِ لي كل ما يجيش في صدرك. أنت لم تقابل مستمعًا قليل الكلام مثلي من قبل"

وقلت له بصوت منخفض بالقرب من أذنه: "لا يجب أن تخاف مني، إنه خوف غير مبرر فضحك الرجل.

قلت له وأنا ألكزه في ساقه عندما حرر أصابعي: "نعم، نعم. أنا أصدقك. لا أشك فيما تقول" لكنه لم يشعر بأي شيء. وقلت لنفسي: "لماذا ترافق شخصًا كهذا؟ أنت لاتشعر نحوه لا بالحب ولا بالكراهية، فسعادته في يد فتاة واحدة، وفي نفس الوقت ليس متأكدًا من أنها عذراء. فصاحب كهذا لا فائدة منه – كرر ورائي – لا فائدة منه. صحيح إنه مسالم كما رأيت. اذهب معه إلى باترشين طالما الليلة جميلة، لكن دعه يتحدث، ورفه أنت عن نفسك بطريقتك. بهذه الطريقة – كرر ورائي بهدوء – ستكون في حماية أفضل.

2

لهو أو دليل على أن الحياة مستحيلة

(1) ركوب الخيل

نهضت - بحركة واحدة وكأنني لم أفعلها أول مرة - لطمت صاحبي فوق كتفه وضربته بقبضة يدي على ظهره كي أستحثه على الهرولة. راح يخبط بقدميه معترضا، وظل واقفًا في مكانه للحظات لا يتحرك، فصوبت قدمي إلى بطنه أستحثه عدة مرات. فنهض، ووصلنا بسرعة نسبية إلى قلب منطقة متسعة غير مأهولة تمامًا.

كان الطريق الصاعد الذي سرنا عليه مكسوًا بالأحجار، وهذا ما أعجبني. لو كنت مكانهم لجعلت الطريق أكثر ارتفاعًا والأحجار أكثر حِدة. وكلما تعثر صاحبي أسحبه به من ياقته لينهض، وكلما تأوه أضربه بقبضة يدي على رأسه. كنت أشعر وقتها بالسعادة من نزهة كهذه في الهواء الطلق، ولكي أجعله يتحمس بصورة أفضل جعلت الرياح تهب في مواجهتنا في هبّات طويلة قوية.

كنت أبالغ أنا أيضًا بحركة واثبة على كتفي صاحبي العريضين، أدرت رأسه وأنا ممسك رقبته بقوة، ورحت أتابع السحب المتنوعة التي تتحرك متثاقلة وسط الرياح، لكن بخفة أكثر مني.

ابتسمت وأنا أشعر بقشعريرة من الجرأة تملكتني. كان معطفي يتطاير وهو مفتوح ويمدني بمزيد من القوة. أحكمت قبضتي، وبالطبع كدت أخنق صاحبي. لم أنتبه إلا عندما غطت السماء أفرع الأشجار التي جعلتها تنمو بمحاذاة الطريق.

صحت بصوت مكتوم: "لا أعرف، أنا لا أعرف إن كان أحد سيأتي. ولن يأتي أحد. أنا لم أؤذ أحدًا· ولم يؤذني أحد، لكن لا أحد يريد أن يساعدني، لا أحد على الإطلاق. لكن الأمر ليس كذلك. كل ما في الأمر أن أحداً لن يساعدني – لولا ذلك لكان كل شيء جميل. لا وجود لأحد يساعدنى. ما رأيكم؟ أن أذهب في رحلة برفقة هؤلاء المعدمين. رحلة إلى الجبال بالطبع، وليس إلى مكان آخر. سيتزاحم هؤلاء المعدمون، وتتشابك أذرعهم الكثيرة، واحدة فوق الأخرى، أو تمسك ببعضها، واحدة بالأخرى، كثير من الأقدام المتباعدة عن بعضها قيمة خطوة صغيرة! مفهوم بالطبع أن كل منهم يرتدي حلة. نسير جميعًا، وتهب علينا الرياح فتصنع فجوات بيننا وبين أعضاء جسدنا. وتتسع الممرات الضيقة بين الجبال. غريب أننا لا نغني"

وهنا سقط صاحبي، وعندما نظرت إليه وجدته مصابًا في ركبته. ولأن وجودي كان مثل عدمه، تركته عن عمد فوق الأحجار، ورحت أصفر بفمي نحو مجموعة من النسور التي هبطت عليه بكل أدب وبأسنان حادة لكي تتفحصه.

(2) تمشية

واصلت السير بكل راحة. لكن لأنني كنت خائفًا من مشقة السير فوق طريق شديد الانحدار قمت بتسوية الطريق، وجعلته يهبط بالتدريج نحو الوادي. اختفت الأحجار كما أردت، وهدأت الرياح.

مشيت برشاقة وخفة. رفعت رأسي إلى أعلى وأنا أنزل من فوق المنحدر، وشددت قامتي، ووضعت ذراعي خلف رأسي. ولأنني أحب غابات الصنوبر، فقد جعلت نفسي أسير في تلك الغابات، ولأنني أحب متابعة النجوم بصمت، تلألأت النجوم في السماء كما هى عادتها. لم أر سوى بضع سحب متناثرة، دفعتها حركة الرياح التي تهب فقط عند السحب لتثير دهشتي.

أمرت بظهور جبل ضخم عالٍ أمامي بعيدًا عن الطريق – لم يكن قد ظهر هناك نهر بعد. نبتت الخمائل على سطحه العالى المنبسط لتلامس السماء. كنت أرى بوضوح أغصانها الصغيرة وهى تتمايل. هالني هذا المشهد وإن كان عاديًا، فنسيت أن أجعل القمر يشرق بنوره فوق أغصان تلك الخمائل الحزينة البعيدة. وكان القمر يسطع خلف ذلك الجبل وهو منزعج من تباطؤي.

لكنه نشر نوره البارد على سطح الجبل قبل أن يظهر، وفجأة ظهر القمر من خلف الشجيرات المتململة. لكني وقتها كنت أنظر في اتجاه

آخر. وقفت أنظر أمامي بعينين تعلوهما الكآبة وأنا أراه يظهر أمامي مباشرة ويشع نورًا من قرصه المكتمل. فقد اعتقدت بأن طريقي المنحدر يصل مباشرة إلى ذلك القمر الخائف.

وبعد لحظة اعتدت المشهد، ورحت أتأمله وهو يصعد بصعوبة وعلى مهل. وبعد أن قطعنا معا جزءًا كبيرًا من الطريق، بدأت أشعر برغبة شديدة في النوم، كانت على ما يبدو نتيجة الإرهاق من نزهة غير معتادة. واصلت السير للحظات وأنا أغمض عيني، وأصفق بيدي بصوت عالٍ بصورة منتظمة كي أبقى مستيقظًا.

وعندما بدأت أشعر أن الطريق يضيع من تحت قدمي، وبدأ كل شيء يختفي، مثلي بسبب الإرهاق، أسرعت من خطواتي، أتسلق بكل ما أوتيت من قوة تلًا على يمين الطريق حتى أصل في الوقت المناسب إلى أدغال غابة داكنة، بها أشجار الصنوبر العالية. فهناك أردت أن أقضي ما تبقى من الليل.

كنت بالفعل مضطرًا لأن أسرع من خطواتي. فقد بدأت النجوم المختفية خلف السحب تطفئ نورها، ورأيت القمر الواهن يغوص وسط السماء وكأنه يسقط في ماء عَكِر. سيطر الظلام على الجبل، واختفى الطريق في المكان الذي انعطفت منه فوق التل، وجاء صوت من أعماق الغابة ينبئ عن تدافع أشجار تسقط. كان يمكن أن أرتمي فورًا فوق العشب وأستسلم للنوم. لكنني كنت أخاف من النوم في الغابة على

الأرض مباشرة، فتسلقت شجرة تتهادي وسط الهواء الساكن. وانزلق جذعها بين دوائر ذراعي وقدمي، واستلقيت فوق أحد الأفرع، وغالبني النعاس على الفور، بينما استقر سنجاب فوق طرف غصن يهتز، وراح يتأرجح بشكل عمودي بذيله المنتصب.

نمت بملء عيني في هدوء رغم أنه كان نومًا بلا أحلام. كنت أسمع طوال الليل أثناء نومي صوت أحدهم يتحدث بجواري. لم أنصت إلى الكلمات نفسها، ولا أذكر منها إلا على سبيل المثال "مقعد على ضفة النهر "جبال وسط السحاب"، "قطارات بأدخنه لامعة" أتذكر طريقة نطقها. وأتذكر أني في نومي ضممت يدي سعيدًا بأنني لم أفهم الكلمات التي أسمعها وأنا نائم.

قلت بصوت عالٍ حتى أقنع نفسي بما أقول: "إن حياتك بلا معنى. وكان ضروريًا أن تذهب إلى مكان ما. يجب أن تكون سعيدًا، فالسعادة تنتشر في كل مكان، والشمس ساطعة"

هنا أشرقت الشمس، وصارت السحب الممطرة فجأة بيضاء وخفيفة وهشة وسط السماء الزرقاء، تقفز فيها وتتلألأ. رأيت النهر في الوادي.

واصلت كلامي وكأن أحدهم يجبرني على ذلك: "نعم، كانت حياتك بلا معنى، وتستحق استجمامًا كهذا" لكني سمعت أحدهم بالقرب مني، يقول مُهدئًا: "ألم يكن معرضًا للخطر هو الآخر؟".

أردت أن أنزل من فوق الشجرة سريعًا، لكنني سقطت على الأرض عندما اهتز الغصن وكأنه يد بشرية صغيرة. لم أصب بأذى، ولم أشعر بأي ألم. لكنني شعرت بالوهن والحزن لأن وجهي لامس أرض الغابة. لم أحتمل رؤية الأشياء الملقاة على الأرض من حولي. كنت على قناعة بأن كل حركة وكل فكرة تُفرض عليّ، ويجب أن أحذر منها. لكن أكثر الأمور بساطة هى أن ترقد وسط الحشائش، يدك ملقاة بجوار جسدك ووجهك مغطى. رأيت أن هذا أمر يبعث على السعادة وأنا أرقد هكذا في وضع طبيعي، وإلا لاحتجت الكثير من الجهد والمشقة، وكثيرًا من الحركات والكلمات حتى أعطي له انطباعًا مختلفًا.

كان النهر متسعًا، واستقر ضوؤه بين ثنيات موجاته وحسيسها الهادئ. وعلى ضفة النهر الأخرى انتشرت المروج وامتلأت بالشجيرات، ومن خلفها خطوط أشجار الفاكهة الساطعة التي تتجه نحو التلال.

تمددت وأنا أستمتع بهذا المشهد، وغطيت أذني خوفًا من سماع النحيب، ورحت أفكر في سعادتي وأنا هنا. فأنا هنا وحدي والجو رائع. لا تحتاج هنا إلى الكثير من الشجاعة حتى تعيش. وحتى هنا سيعاني الإنسان مثلما يعاني في أي مكان، لكنه لن يضطر إلى أن يسعى ويجاهد. لن يكون هذا ضروريًا. فليس هنا سوى الجبال، والنهر الكبير. وأنا مازلت أحتفظ بذكاء يجعلني لا أعتبرها أشياء خالية من الحياة. وعندما أنزل من

فوق التل وأسير وسط المروج سأصبح وحيدًا مثل هذ الجبل، وسيتملكني هذا الشعور. لكني أعتقد أنني سأتجاوز هذا أيضا.

هكذا رحت أفكر في حياتي في المستقبل، وسعيت إلى أن أغلفها بكل إصرار. وظللت أتطلع إلى السماء التي بدت سعيدة ومزركشة. لم أرها هكذا منذ وقت طويل، كنت مأخوذًا بها، وتراودني تلك الأيام القلائل التي سأتذكرها وأتذكر ما رأيته فيها. وضعت كفي فوق أذني، وفردت ساعدي وانطلقت وسط الحشائش.

سمعت صوت أحدهم يتنهد بهدوء من بعيد. اشتدت الرياح وتطايرت أوراق جافة كثيرة لم أرها من قبل، ونشرت حفيفها في الهواء. وتساقطت الثمار الفجة من أشجارها بكثافة. وظهرت سحب قبيحة من خلف أحد التلال. وراحت أمواج مياة النهر تصرخ، وتتدافع أمام الرياح.

نهضت مسرعًا وأنا أشعر بألم في قلبي. فقد بدا واضحًا أنه من المستحيل أن أبرح آلامي. أردت أن أنصرف وأغادر هذه المنطقة، وأعود إلى حياتي السابقة عندما سيطرت عليّ هذه الفكرة: "عجيب جدًا أنه في يومنا هذا مازال هناك أشخاص يعبرون النهر بهذه الطريقة الصعبة" لا يمكن تفسير الأمر إلا على أنه عادة قديمة" هززت رأسي متعجبًا.

3

رجل سمين

(1) مخاطبة المكان

ظهر على ضفة النهر المقابلة أربعة رجال عراة، ممتلئي الجسم، ويحملون على أكتافهم حمّالة خشبية. ويجلس على تلك الحمالة رجل شديد البدانة في وضع شرقي. كانوا يسيرون به عبر الأدغال فوق طريق غير ممهد، ورغم ذلك لم يلق من على جسمه الأغصان الشائكة، لكن كان جسمه الساكن يشق الهواء بكل هدوء. كانت كتل الدهن منبسطة بعناية فوق الحمالة وغطتها بالكامل، وتدلت على أطرافها وكأنها أطراف سجادة ضاربة للصفرة، ولكنه لم ينزعج لأمر كهذا. كانت جمجمة رأسه العارية صغيرة، وتلمع بلون مائل للصفرة. كست وجهه تعبيرات بكماء لإنسان يفكر ولا يجهد نفسه في إخفاء الأمر. كان يغلق عينيه من وقت لآخر: وعندما يفتحهما يعوج ذقنه.

قال بصوت منخفض: "هذا المكان يمنعني من التفكير. تتأرجح أفكاري مثل جسور من السلاسل الحديدية وسط تيار ماء هائج. إنه مكان جميل، ويريد أن يراه الناس".

أغمضت عيني، وقلت: يا أيها الجبل الأخضر عند النهر، يا صاحب الأحجار التي تسبح ضد التيار، كم أنت جميل.

لكنه مكان غير راض، فهو يرغب في أن أفتح عيني وأتطلع إليه.

ومرة أخرى أقول وأنا مغمض العينين: "أيها الجبل، أنا لا أحبك، لأنك تذكرني بالسحب، وبحمرة الغسق وبالسماء المرتفعة. إنها أمور تدفعني للبكاء، لأنني لن أطالها يومًا ما، حتى ولو تركتهم يحملوني على الحمالات. وعندما تريني أيها الجبل الماكر كل هذا، فأنت تحول دون أن أنظر إلى بعيد، حيث أجد هناك سعادتي. فهناك أرى أشياء جميلة يمكنني الوصول إليها. لذلك لا أحبك، يا أيها الجبل القابع عند الماء. أنا لا أحبك"

لكن هذه الكلمات كانت كسابقتها بلا قيمة طالما تكلمت وأنا مغمض العينين. لذلك كان المكان غير راضٍ.

لماذا لا نسعى لتلبية طلبه حتى نحافظ علي المكان ليظل قائمًا. المكان الذي يتمتع بهواية مرحة على ضفاف عقولنا؟ فقد ينقض عليّ بظله المسنون، ويطلق عليّ جدرانه العارية المخيفة، وسيتأرجح حملة نقالتي فوق أحجار الطريق الصغيرة.

ليس الجبل وحده من أصابه الغرور، ليس وحده من أصبح مملًا ومغرورًا، كل شيء صار هكذا. لذلك عليّ أن أترك عيني مفتوحة عن آخرها – آه، كم هو مزعج أن أكرر على الدوام، وأقول:

نعم، كم أنت جميل أيها الجبل! تنتشر الغابات على ضفتك الغربية السعادة في نفسي. كم أنا سعيد بك أيتها الزهرة! لونك الوردي ينشر السعادة في روحي. أنتِ أيتها الحشائش في المروج! كم أنتِ عالية وقوية، تلطفين الجو. وأنت أيتها الأجمة العجيبة، وخزاتك المفاجأة تجعل أفكارنا تقفز. – فيك أيها النهر أجد حبًا كبيرًا، يجعلني أترك نفسي لتحملني مياهك أينما شاءت".

وبعد أن كرر هذا الدعاء بصوت عالٍ لمدة عشر مرات بجسد ينتفض خاضعًا، أسدل رأسه، وقال وهو مغمض العينين:

"الآن أرجوكم أيها الجبل، وأيتها الزهرة، وأيتها الأجمة، وأيها النهر أن تمنحوني الفرصة كي ألتقط أنفاسي"

وهنا حدثت حركة حثيثة حول الجبال الشامخة القابعة خلف الضباب. انتصبت الأشجار وانبسطت حول الطرق، وحافظت على بقاء الطريق متسعًا. وظهرت في الأفق سحابة ممطرة أطرافها مضيئة. حجبت الشمس، وغاص المكان في ظلها، وفقدت الأشياء حدودها الجميلة.

كان وقع خطوات الرجال الذين يحملونه يصل إلى الضفة التي أقف فيها. لم أتمكن من التعرف على وجوههم في ضوء الشفق الداكن. لم أرهم إلا وهم يميلون برؤوسهم على الحائط ويحنون ظهورهم من ثِقَل الحمل. أصابني منظرهم بالهم، ولاحظت أنهم مرهقون. رحت

أراقبهم بكل حماس وهم يدوسون الحشائش على ضفاف النهر، ثم يتقدمون عبر الرمال المبللة بخطوات منتظمة، ثم يغوصون بكل هدوء في أجمات الخيزران الموحلة. انحنى الحملة في المؤخرة بصورة أكثر حتى يحافظوا على الحمالة في وضع مستقيم. عقدت راحتي. كانوا يرفعون أقدامهم عالية في كل خطوة، ولمعت أجسادهم من العرق في الهواء البارد في ظهيرة طقس متغير. كان الرجل البدين الجالس فوق النقالة هادئاً، يضع يديه فوق فخذيه، وتحتك بجسده قمم الخيزران المدببة التي ترتد عندما يمر بها الرجال.

كانت خطواتهم تزداد توترًا كلما اقتربوا من النهر، والحمالة تتأرجح بين أيديهم وكأنها تسبح فوق الأمواج. تجاوزوا أو تخطوا الأماكن الموحلة وسط الخيزران. ربما كانت بركًا عميقة.

ظهر سرب من البط البريّ، وقفز عموديًا وسط السحابة الممطرة. وهنا استطعت بحركة بسيطة أن أرى وجه الرجل البدين؛ كان شديد التوتر. نهضت من مكاني، وانطلقت بخطوات مرتبكة على السفح الحجري الذي يفصلني عن النهر. لم أهتم بالمخاطر، كل ما كنت أفكر فيه هو مساعدة ذلك الرجل السمين عندما يعجز رجاله عن حمله. وبتهور جعلني لا أستطيع التوقف عند المياه، خطوت عدة خطوات وسط الماء المتطاير. لم أتوقف إلا عندما وصلت المياه إلى ركبتي.

وضع العبيد الحمالة فوق الماء على الجانب الآخر وهم يتساقطون من الإعياء، أمسكوا الحمالة بإحدى أيديهم فوق الماء الهائج، ورفعوا الحمالة إلى أعلى بأربع أذرع يعلوها شعر كثيف، فرأيت عضلاتهم المفتولة.

وصل الماء حتى ذقونهم، ثم امتد إلى شفاههم. دفع الحمَلة رؤوسهم إلى الخلف، واستقرت أذرع الحمالة على أكتافهم. كان الماء يطوق أنوفهم، وهم يجاهدون وهم في وسط النهر. غمر الماء رأسي اثنين منهم، فغاص الرجال الأربعة في الماء، وسحبوا الحمّالة تحت سطح الماء بأيديهم القوية في صمت. وفجأة اشتدت المياه.

تسللت أشعة شمس الأصيل من خلف أطراف السحابة الكبيرة، فأضاءت الهضاب والجبال عند حدود الأفق، وغرق النهر والمكان من حوله في ضوء خافت تحت السحابة.

كان الرجل البدين يتقلب وسط تيار الماء في النهر الذي يحمله وكأنه تمثال إله مصنوع من خشب أبيض عديم الجدوى فألقوه في الماء. وراح يسبح فوق الماء، تظلله السحابة الماطرة. تزايدت السحب، واشتدت الأمواج، وراحت تتأرجح حول ركبتي وعلى أحجار الشاطئ.

صعدت سريعًا فوق التل حتى أتابع الرجل السمين وهو يتحرك، فقد أعجبني بالفعل. ربما أعرف شيئًا جديدًا عن مخاطر ذلك المكان الذي يبدو آمنًا. مشيت فوق مدق صغير من الرمال. كان يجب أن أتعود

المشي في ممر ضيق كهذا وأنا أضع يدي في جيوبي، ورأسي يلتفت يمينًا نحو النهر حتى كاد ذقني يلامس كتفي.

كانت العصافير تقف على الأحجار بجوار النهر. قال الرجل السمين: "أيها الرجل الواقف على ضفة النهر، لا تحاول أن تنقذني. إنه انتقام الماء والرياح؛ ولا أمل في إنقاذي. نعم، إنه الانتقام، لأننا، أنا وصديقي المؤمن هجمنا على هذه الأشياء، هجمنا عليها بصوت الجرس، وأنغام آلة القانون، وروعة صوت الترمبون، ووهيج المِرجل المرح"

طارت بعوضة صغيرة بجناحيها المفرودين فوق بطنه، وتجاوزتها بسرعة.

واصل السمين حديثه:

(2) بداية الحديث مع صديق متدين

"في وقت من الأوقات كنت أتردد كل يوم على الكنيسة، لأني كنت أحب إحدى الفتيات، وكانت تجثو على ركبتيها هناك كل مساء وتصلي. أردت أن أطالعها هناك بكل هدوء. وعندما تأخرت الفتاة ذات يوم، وأنا أتفحص بكل حزن السيدات اللواتي يقفن هناك للصلاة، وقع نظري على شاب صغير، انكفأ بكل جسمه النحيل على الأرض، وضع رأسه فوق راحتيه الساكنتين فوق أحجار الأرض. وبعد لحظة راح يضرب رأسه في كفيه بكل ما أوتي من قوة.

لم يكن بالكنيسة سوى بضع سيدات عجائز، ينظرن هنا وهناك برؤوسهن المغطاة بأوشحة، ويتطلعن نحو الرجل ذلك الشاب المتدين. يبدو أن اهتمامهن به أعجبه، فقد كان يتلفت حوله عند كل حركة يقوم بها ليرى كم من الحاضرين ينظر إليه.

لم يعجبني هذا الأمر، فقررت أن أتحدث معه عندما يخرج من الكنيسة. سأسأله بكل بساطة عن سبب صلواته بهذه الطريقة. فمنذ قدومي إلى هذه المدينة كان وضوح الأشياء أهم ما يعنيني. أما ما أزعجني الآن فهو غياب تلك الفتاة.

لكنه نهض من مكانه بعد ساعة، وظل طويلًا ينفض سرواله، حتى كدت أصيح فيه قائلًا: "كفى! كفى! لقد رأينا جميعًا أنك ترتدي

سروالاً" رسم في الهواء شكل الصليب بكل حرص، ثم توجه بهدوء نحو وعاء الماء المقدس وكأنه بحّار.

تقدمت ووقفت بين وعاء الماء المقدس والباب وأنا عازم على ألا أتركه قبل أن يفسر لي الأمر. ثنيت فمي، وكانت هذه أفضل طريقة لبدء حديث معين، ثم وضعت كل ثقلي على قدمي اليمني الممدودة للأمام، ووقفت على أطراف أصابع قدمي اليسرى. وهو ما تأكد لي عدة مرات بأن هذا الوضع يمنحني الثبات.

ربما كان هذا الشاب يسترق النظر إليّ وهو يرش الماء المقدس على وجهه، ربما شعر بنظراتي التي كنت أوجهها إليه، وربما هذا ما جعله فجأة يهرول نحو الباب ويخرج. فأسرعت على الفور حتى ألحق به، لكن الباب الزجاجي أُغلق. وعندما خرجت من الباب لم أتمكن من العثور عليه، فقد كانت توجد خارج المبنى الكثير من الشوارع الضيقة والكثير من المارة.

لم يظهر الشاب في الأيام التالية، لكن الفتاة كانت تأتي وتصلي في أحد أركان الكنيسة الجانبية. كانت غالبًا ترتدي فستانًا أسود، مزينًا على ذراعيه وفي منطقة الرقبة بقطعة من قماش شفاف – من تحتها تتدلى ذراعه على شكل هلال –، تنتهي أطرافه بياقة حريرية مُحكَمة الصنع. جعلتني تلك الفتاة التي تتردد على الكنيسة أنسى ذلك الشاب

بكل سرور، فأنا لم أهتم لأمره في البداية ولا حتى عندما انتظم حضوره إلى الكنيسة ليصلي بطريقته الخاصة.

كان دائمًا يمر من حولي متعجلًا وهو يميل بنظره عني، رغم أنه كان ينظر إليّ كثيرًا أثناء صلاته. فسّرت الأمر على أنه ربما يكون غاضبًا مني لأني لم أتحدث إليه في تلك المرة، وكأنه كان يعتقد أنه عليّ إتمام المحاولة التي بدأتها ذات يوم للحديث معه. أعتقد أنه عندما كنت أتابع تلك الفتاة ذات مرة بعد انتهاء الخطبة، ونظرت إليه في العتمة، وجدته يبتسم.

بالطبع لم أكن مضطرًا إلى أن أتحدث إليه، كما لم تكن لدي رغبة في ذلك. ترددت في مخاطبته حتى في ذلك اليوم، عندما كنت أسير في أحد الميادين الصغيرة عند الكنيسة، وكانت الساعة تعلن السابعة، وهو ما يعني أن الفتاة لم تكن في الكنيسة وقتها، ولم يكن هناك أحد غيره عند السياج أمام المذبح.

الأكثر من ذلك أنني تسللت ناحية باب الخروج فوق أطراف أصابعي، ورميت ببعض النقود لذلك المتسول الجالس هناك، ثم تقوقعت بجواره خلف أحد جناحي الباب. وعلى مدى ثلاثين دقيقة جلست أنتظره حتى أرى وقع المفاجأة على وجهه. لكني لم أتحمل البقاء هناك كثيرًا. تركت العنكبوت يمر فوق ملابسي بضجر شديد، أحني جسمي بصعوبة في كل مرة يخرج أحدهم من الكنيسة في الظلام وهو يتنفس بصوت مسموع.

وهنا اقترب هو، ويبدو أن صوت الأجراس الضخمة الذي انطلق منذ لحظات أزعجه. كان دائمًا يتلمس الأرض أولًا بأطراف أصابعه بخفة قبل أن يدوس عليها بقدميه.

هممت واقفًا، وخطوت خطوة واسعة حتى وصلت إليه، وقلت له: "مساء الخير!"، ثم أمسكته من ياقته ودفعته أمامي على السلم ناحية الميدان المضيء.

عندما نزلنا من على السلم، وكنت مازلت أمسكه من ياقته، التفت إليّ، ووقفنا وجهًا لوجه. قال: "حرر رقبتي من فضلك! لا أعرف بماذا تتهمني، لكني إنسان بريء"، ثم أضاف: "فعلا لا أعرف بماذا تتهمني"

"الأمر لا يتعلق باتهام أو ذنب. أرجوك، لا تكرر هذا الكلام. لا يعرف أحدنا الآخر، ومعرفتنا لا تتجاوز ارتفاع درجات هذا السلم. إلام سنصل لو بدأنا الحديث عن براءتنا الآن"

قال: "هذا هو بالضبط ما أعتقده. لكنك قلت "براءتنا" أتقصد أنني لو أثبت براءتي، عليك أن تثبت براءتك أنت أيضًا؟ هل هذا ما قصدته؟".

قلت له: "إلى حد ما. لقد جئتك لأني أريد أن أسألك عن شيء ما، تذكر هذا جيدًا"

قال وهو يستدير بوهن: "أريد أن أنصرف إلى بيتي"

"بالطبع، لماذا أردت الحديث معك؟ لا تعتقد أنني جئت إليك من أجل جمال عينيك"

"ألا تعتقد أنك صريح بشكل مبالغ فيه؟ ألا تعتقد؟"

"هل عليّ أن أذكرك مرة أخرى أن الأمر لا يتعلق بأمور كهذه؟ ما علاقة الأمر هنا بالصراحة أو غيرها؟ أنا أسألك وأنت تجيب، وينتهي الأمر. ثم يمكنك أن تذهب إلى البيت كما تشاء، وبالسرعة التي تريدها"

"أليس من الأفضل أن نلتقي في مكان آخر؟ في وقت مناسب؟ في أحد المقاهي مثلًا؟ كما أن الآنسة خطيبتك قد انصرفت منذ عدة دقائق، ومن الأفضل أن تلحق بها، فهي لم تنتظر هنا طويلًا"

صحت، فاختلط صياحي بضجيج الترام الذي مر من حولنا، وقلت: "لا تهرب مني! إن إعجابي بك يزداد مع الوقت. أنت ضحية جيدة لي. أهنئك"

وهنا قال لي: "يا إلهي! لديك، كما يقولون، قلب من حجر، ورأس صلبة. تنعتني بالضحية الجيدة، يا لك من رجل سعيد! فتعاستي هى تعاسة متقلبة، ولو اقترب منها أحدهم، ستقع عليه. لذلك: تصبح على خير"

قلت له وقد أمسكت بيده: "حسنًا، طالما لن تجيبني من تلقاء تفسك، فسوف أجبرك على ذلك. سألاحقك في كل مكان تذهب إليه، يمينًا ويسارًا، فوق سلم بيتك، وسأجلس في غرفتك. بكل تأكيد، انتظرني، وسأتحمل كل المشاق من أجل ذلك. من أين لك - اقتربت منه حتى صرت ملاصقًا له. كان أطول مني، وصارت رأسه فوق رأسي، فتحدثت وفمي في رقبته "من أين لك كل هذه الشجاعة كي تقف أمامي؟"

وهنا بدأ يتراجع، وراح يقبل كلتا يدي على التوالي، ويهمرهما بدموعه. "لا يمكن أن أرفض طلبك. فكما تعرف أني أردت أن أعود إلى البيت، تعرف أيضًا أني لا أستطيع أن أرفض طلبك. فقط أرجوك، دعنا نذهب إلى شارع جانبي" أومأت برأسي، وانصرفنا إلى هناك. كان عندما تفصلنا عن بعضنا إحدى السيارات يرفع كلتا يديه ملوحًا ليحثني على اللحاق به.

لم يكفه ظلام الشارع، حيث المصابيح متباعدة عن بعضها، وعلى ارتفاع طابق تقريبًا، لكنه أخذني إلى ممر منخفض في أحد البيوت القديمة، ووقفنا أسفل مصباح صغير يصدر ضوءًا خفيفًا على درجات خشبية.

فرَدَ منديلًا على تجويف إحدى الدرجات البالية، ودعاني للجلوس قائلًا: "يمكنك أن تسأل وأنت جالس، فهذا أفضل. وأنا سأظل واقفًا، هكذا أستطيع أن أجيب بطريقة أفضل. لكن لا ترهقني بأسئلتك!".

جلست عندما وجدته يأخذ المسألة بجدية، لكني لم أمنع نفسي من السؤال: "تأخذني إلى مكان مهجور كهذا، وكأننا متآمران. في حين أن ما يربطني بك هو مجرد فضول، وما يربطك بي هو الخوف. في الواقع لقد أردت فقط أن أسألك، لماذا تصلي بهذه الطريقة في الكنيسة؟ إنك تتصرف هناك وكأنك مجنون بالفعل! إنه أمر شاذ، ومربك لكل من يراك، وغير مقبول من المتدينين!".

أسند جسمه إلى الحائط، وترك رأسه تتحرك بحرية في الهواء، وقال: "أنت مخطئ تمامًا، فالمتدينون يعتبرون ما أفعله أمرًا طبيعيًا، والآخرون يعتبرونه أمرًا يدل على الورع. وهو يطفئ غضبي".

"غضبك هذا، لو اعتبرنا أنه غضب حقيقيّ، يدل على أنك لا تنتمي لا للمؤمنين ولا لغيرهم"

"أنت على حق، كنت أبالغ قليلًا عندما قلت إن سلوكك أغضبني. لم يكن كذلك، لقد أثار في نفسي بعض الفضول كما قلت منذ قليل. لكن ماذا عنك، إلى من تنتمي؟" "آه، ما يسعدني هو أن أرى الناس ينظرون إليّ، لو جاز لي القول، وأنا منكب على المذبح"

قلت له وأنا عاقد الحاجبين: "يسعدك هذا؟"

"كلا، لو أردت أن تعرف، هذا لا يسعدني. المعذرة، لقد أخطأت في التعبير. لا يسعدني، بل أنا أحتاج إلى ذلك، أحتاج إلى تلك النظرات ترمقني وأنا هناك وكل المدينة من حولي –"

صرخت فيه ردًا على ملاحظته في هذا الدهليز المنخفض قائلًا: "ماذا تقول؟!" ثم التزمت الصمت، وواصلت بصوت منخفض: "أخبرني، ما هذا الذي تقوله؟ أرى أنني كنت على حق منذ البداية عندما لاحظت حالتك. أهي حُمىّ أم مرض من أمراض البحر ظهر وأنت على اليابسة، أم شيء مثل البرص؟ أليس الأمر هو أنك لست راضيًا عن الحمي التي ألمت بك وعن حقائق الأمور، لست راضيًا بما هو عندك، فتعطيه أسماء عشوائية؟ فقط تريد الهرولة، وبمجرد أن ابتعدت عنها، نسيت أسماءها. نبات الحور في الحقول الذي أطلقت عليه "برج بابل ''لأنك لا تريد أن تعرف أن اسمه حور. ولأنه صار يتأرجح بدون اسم، فأطلقت عليه اسم "نوح السكير قاطعني قائلًا: "أنا سعيد لأنني لم أفهم شيئًا مما قلت"

قلت له على الفور وأنا غاضب: "سعادتك هذه تؤكد أنك فهمت"

"ألم أقل لك هذا؟ لا يمكن لأحد أن يعارضك" وضعت يدي فوق الدرج الأعلى، واتكأت إلى الخلف، في وضع يصعب مهاجمته، وهو آخر طوق نجاة. سألته: "عفوًا! هذه مراوغة منك، فأنت تكرر نفس التفسير الذي قدمته لك".

وهنا اشتدت شجاعته، وعقد ذراعيه حتى يمنح جسده نوعًا من التوحد، وقال بنبرة تحدٍ خفيفة: "أنت نفسك استبعدت الحديث عن مسألة الصراحة منذ البداية. وما يهمني في الحقيقة هو أن تفهم طريقتي في أداء الصلاة. أتعرف أنت لماذا تصلي بطريقتك تلك؟"

حاولت، لكنني لم أعرف السبب، ولم أكن أريد معرفة السبب. فأنا لم أرغب في الذهاب إلى هناك من الأساس. وكنت نويت ذلك، لكن هذا الإنسان اضطرني إلى أن أسمعه و أستجوبه. كان يكفي أن أهز رأسي، وتسير الأمور كما هى، لكنني في تلك اللحظة لم أتمكن من هذا.

راح هذا الإنسان الواقف أمامي يبتسم. ثم مال عليّ وهو يتكئ على ركبته، وبدأ يحكي لي بعيون ناعسة: "الآن فقط يمكنني أن أخبرك لماذا تركتك تتحدث معي. إنه الفضول، وكذلك الأمل. إن نظراتك إلىّ كانت تبعث في نفسي السرور منذ البداية. كذلك أتمنى أن أعرف منك طبيعة الأشياء التي تنهار من حولي مثل العاصفة الثلجية، بينما كأس الكحول يقف ثابتًا على طاولة الآخرين وكأنه نصب تذكاري"

لزمت الصمت، وسرَت في وجهي رعشة مباغتة. سألني: "ألا تعتقد أن الآخرين يفعلون نفس الأشياء؟ حقًا لا تعتقد ذلك؟ آه، اسمعني إذن! ذات مرة عندما كنت طفلًا صغيرًا فتحت عيني بعد سبات خفيف بعد ظهيرة أحد الأيام، سمعْت أمي – وأنا لا أدرك معنى للحياة بعد – تسأل بنبرة طبيعية وهى تنظر من شرفة المنزل: "ماذا تفعلين يا عزيزتي؟ إن

الجو جار"، أجابتها سيدة ما تقف في الحديقة: "أتناول وجبة خفيفة هنا وسط الحشائش" تحدثتا بدون أدنى تفكير، وبكل وضوح، وكأن تلك السيدة كانت تنتظر سؤالًا كهذا، وأمي تنتظر مثل هذه الإجابة"

اعتبرت أنه سؤال موجه لي، فمددت يدي إلى جيب سروالي الخلفي وكأنني أبحث عن شيء ما.

لكني في الواقع لم أكن أبحث عن أي شيء. فقط أردت أن أغير من هيئتي حتى أظهر مشاركتي في الحوار. وقلت إن هذه حالة شديدة الغرابة، وصرت عاجزًا عن فهمه. وأضفت أني لا أثق في حقيقة ما يقول، وأنه حدد هدفًا أنا غير قادر على فهمه. ثم أغلقت عيني حتى أتجنب هذا الضوء اللعين.

"اسمع! يجب أن تتحلى بالشجاعة. فنحن متفقان في الرأي، لقد استوقفتني بدون أى غرض في نفسك حتى تسألني. أنا هنا أفقد أملًا، وأعثر على أمل جديد. مم أخجل وأنا أتردد على الكنيسة منتصب القامة، واثق الخطوات، لا أخبط بعصا على الأرض، ولم ألمس يومًا ملابس الزوار الذين يعجون من حولي؟ ألم يكن لي أن أتمرد وأتذمر من أني أتحرك بين البيوت مثل ظل لا حدود له، ويختفي فوق زجاج نوافذ العرض؟.

يا لها من أيام أقضيها هنا! لماذا بُني كل شيء هناك على نحو سيئ. في كل لحظة تتهاوى بيوت سامقة بلا سبب؟ أزحف فوق أكوام الحطام، وأسأل كل من أقابله: "كيف حدث هذا! تخيل، بيت جديد في مدينتنا، لا أدري كم بلغ عددهم اليوم. ولن أجد إجابة من أحد. يحدث كثيرًا أن الناس يتساقطون في الشوارع، ويتحولون إلى جثث هامدة. ثم يفتح التجار متجارهم المتخمة بالبضائع، يهرولون، ويحملون الجثث إلى المنزل، ثم يعودون والابتسامة تعلو وجوههم وملء عيونهم، ويواصلون الحديث: طاب يومك – السماء غائمة جزئيًا، هناك طلب على الملابس – آه، إنها الحرب. وأنا، أعود إلى بيتي، أرفع يدي عدة مرات مترددًا، وأثني أصبع السبابة لأطرق على نافذة حارس البيت، وأقول: صباح الخير! يبدو لي أنهم أحضروا عندك منذ لحظات جثة أحد الموتى. هل تسمح لي أن أراه؟ وأضيف عندما أراه يهز رأسه وكأنه لا يعرف ماذا يفعل: احترس! أنا من الشرطة السرية، وأريد معاينة الجثة في الحال. فيتخذ قراره، ويصيح: "انصرف! هذا الرجل معتاد التسكع هنا من يوم لآخر! ليس عندنا جثث، ربما في البيت المجاور فأحييه وأنصرف.

بعد ذلك أنسى كل ما حدث وأنا أعبر الميدان الكبير. وبما أنهم ينفقون ببذخ في بناء ميادين كبيرة كهذه، لماذا لا يبنون فيها أسوارًا أيضا؟ اليوم تهب رياح غربية، وتمثال القرد الموجود على برج مبنى البلدية يقف في وضع تأهب. كل النوافذ تهتز، والشمعدانات تتراقص وكأنها مصنوعة من الخيزران. رداء ماريا العذراء فوق العامود

يتقلص، والرياح تعصف بهما. ألا يرى أحد هذا؟ السيدات والسادة يتطايرون بدلًا من أن يسيروا فوق الطرقات. وما إن تتوقف الرياح سيتوقفون جميعًا، يتبادلون بعض الكلمات، ثم يحيي كل منهم للآخر مودعًا. عندما تهب الرياح من جديد، لن يصمدوا أمامها، وسيرفعون جميعًا أقدامهم. لكن يجب أن يمسكوا جيدًا بقبعاتهم، وأيضًا يرسمون السعادة في أعينهم، ولا يعترضون إطلاقًا على حالة الطقس. وأنا الوحيد الخائف بينهم"

كان يمكن أن أرد عليه، وأقول له: "حكاية أمك هذه مع صديقتها في الحديقة تبدو لي طبيعية جدًا. ليس فقط لأني سمعت كثيرًا من هذه الحكايات، لكني أيضًا كنت جزءاً من بعضها. إنه أمر طبيعيّ للغاية. هل تعتقد أنني لو كنت في الصيف في نفس الشرفة لن أسألها نفس السؤال، ولو كنت في الحديقة لما أجبت بنفس الإجابة؟ إنها حالة عادية للغاية"

عندما قلت له هذا ظهر عليه الرضا أخيرًا. قال إن ملابسي أنيقة وإن رابطة عنقي تعجبه، وإن بشرتي ناعمة، وإن العقيدة تصبح أمرًا واضحًا للغاية طالما ارتكزت على مرجعية ما.

(3) حكاية الرجل المتدين

ثم جلس بجواري عندما وجدنى أظهر قدرًا من الحياء، وأملت رأسي جانبًا، وأفسحت له مكانًا بجواري. رغم ذلك لم يغب عني أنه هو الآخر جلس مرتبكًا، وحرص على أن يحافظ على مسافة قليلة بيني وبينه، وتحدث بصعوبة.

"يا لها من أيام أقضيها هنا! كنت مساء أمس في إحدى الحفلات، وعلى ضوء أحد المصابيح انحنيت لإحدى الفتيات، وقلت لها: "بالفعل أنا سعيد باقتراب فصل الشتاء" هكذا خاطبتها وأنا أنحني أمامها، ثم انتابني الغضب عندما شعرت أن عظمة فخذي تحركت قليلًا من موضعها على المفصل، وتحرر المفصل قليلًا.

لذلك جلست، وقلت: أحاول دائمًا أن أنتقي كلماتي، ولأن الشتاء لا يتطلب جهدًا كبيرًا، وتصبح كل الأعمال سهلة، فلا أضطر فيها إلى إجهاد نفسي في انتقاء الكلمات. "ألا تعتقدين ذلك ياعزيزتي؟ أعتقد أني محق في هذا الأمر كانت قدمي تؤلمني وأنا أتحدث معها. في البداية شعرت بأنها تفككت، ورحت أدلكها تدريجيًا حتى أعدتها إلى حالتها الطبيعية إلى حد ما.

هنا سمعت الفتاة التي جلست كنوع من التعاطف، تقول بهدوء: "أنت لا تعجبني على الإطلاق، لأن.

قلت لها بكل هدوء وترقب: "انتظري! أنتِ يا آنستي العزيزة لم تحاولى أن تبذلي من وقتك ولو خمس دقائق لتتحدثي معي. أرجوك، كُلِي شيئًا وأنت تتكلمين" ثم مددت يدي في طبق برونزي حتى ألتقط حبة عنب ملتصقة بالعنقود. أمسكت بها في الهواء للحظة، ثم وضعتها في طبق صغير له حواف زرقاء، وقدمته للفتاة بطريقة لا تخل من الرشاقة.

قالت: "أنت لا تعجبني على الإطلاق، كل ما تقوله ممل وغامض، وأيضا غير حقيقي. أعتقد يا سيدي، لماذا تناديني دائمًا بآنستي العزيزة؟ - أعتقد أنك لهذا لا تقول الحقيقة لأنها ثقيلة"

صحت قائلًا: "يا إلهي! هذا أمر أسعدني بالفعل! نعم يا آنستي. معك حق! آنستي العزيزة! افهميني، إن السعادة تجعل الأمور تختلط على الإنسان دون أن يدري"

"يا سيدي، يبدو أن الحقيقة تمثل لك عبئًا ثقيلًا. انظر إلى نفسك! إنك مصنوع من ورق حريري، من ورق حريري أصفر، تبدو مثل صورة ظليّة، ويصدر منك حفيف وأنت تمشي. لذلك من الخطأ الشعور بالإهانة من تصرفاتك ومن آرائك لأنك تحنى قامتك لتفادي تيار الهواء الذي يندفع في الغرفة"

"أنا لا أفهمكِ. يوجد هنا في الغرفة كثير من الناس. يسندون أياديهم على أذرع المقاعد، أو يتكئون على البيانو، أو يرفعون الكؤوس

في تردد إلى أفواههم، أو ينصرفون بحذر إلى الغرفة المجاورة. تصطدم أكتافهم اليمنى بخزائن البيت، يقولون وهم يقفون عند النافذة المفتوحة يطالعون السماء: هذا هو كوكب الزهرة، نجم السماء. لكني هنا وسط الناس. لو أن هذا له علاقة بالأمر، فأنا لا أفهم هذه العلاقة. وأنا لست متأكدًا من وجود علاقة بما يحدث. - اسمعي يا آنستي العزيزة! أنا الوحيد من بين هؤلاء الناس الذين يتصرفون بتردد وغموض، بل وبسخافة، الوحيد القادر على أن يسمع شيئًا واضحًا عن نفسه. لكن يجب أن يكون شيئًا مقبولًا. أنت تتحدثين بسخرية، لكن دائمًا ما يبقى هناك شيء، تمامًا مثل البيت الذي احترق من الداخل، تبقى حوائطه ذات أهمية. فلا عوائق تمنعك من النظر، وأثناء النهار ترين السحب في السماء من خلف فتحات النوافذ الواسعة، وفي الليل تطالعين السماء. لكن السحب تتكسر وسط الأحجار الباهتة، والنجوم تصنع صورًا مصطنعة. - ماذا لو أني على سبيل العرفان أخبرتك أن كل الناس الذين يرغبون في الحياة سيصبحون يومًا مثلي أنا، وكأنهم مصنوعون من ورق حريري أصفر، مثل الصورة الظلية - كما وصفتيهم - وسيصدرون حفيفًا وهم يمشون. لن يختلفوا عما هم عليه الآن، بل سيكونون كما هم، وحتى أنت يا آنستي العزيزة

لاحظت أن الفتاة لم تعد تجلس بجواري. وانصرفت مبكرًا بعدما قالت آخر كلماتها، وهي تقف الآن بعيدًا عني عند إحدى النوافذ العالية

محاطة بثلاثة من الشباب الذين يتحدثون والابتسامة تعلو وجوههم خلف ياقاتهم البيضاء العالية.

شربت كأس النبيذ بسعادة، ثم توجهت نحو عازف البيانو المستغرق في عزف مقطوعة حزينة، ويهز رأسه. ملت عليه بحرص حتى لا أزعجه، وقلت له أثناء العزف:

"من فضلك يا سيدي، اسمح لي أن أعزف مقطوعة، فأنا على أبواب السعادة"

لم يسمعني الرجل، فتسمرت في مكاني مرتبكًا للحظات، ثم تنقلت بين الضيوف لأتغلب على خجلي، وأنا أقول "بالمناسبة، سأعزف اليوم على البيانو. نعم"

يبدو أن الجميع كانوا يعرفون أنني لا أجيد العزف على البيانو، لكنهم ابتسموا بدماثة فقط لأنني قاطعت حديثهم بطريقة لطيفة. لكنهم انتبهوا جميعًا عندما صحت في عازف البيانو بصوت عالٍ، وقلت: "من فضلك يا سيدي، اسمح لي أن أعزف مقطوعةً، فأنا على أبواب السعادة. إنه الانتصار

توقف الرجل عن العزف، لكنه لم يبرح مكانه على المقعد البني، وكان واضحًا أنه لم يفهمني. التقط أنفاسه وغطى وجهه بأصابعه الطويلة.

شعرت نحوه ببعض التعاطف، وكدت أدعه يواصل العزف، بعد أن ظهرت صاحبة الحفل وسط مجموعة الناس.

قالوا: "يالها من صدفة كوميدية"، وراحوا يبتسمون وكأنني أوشك على فعل شيء غير طبيعيّ. وجاءت أيضًا تلك الفتاة، وألقت عليّ نظرة احتقار، وقالت: "من فضلك يا سيدتي، دعيه يعزف!" يبدو أنها أرادت أن تساهم في المرح. إنه لأمر جدير بالثناء. من فضلك يا سيدتي"

تعالت أصواتهم بسعادة، يبدو أنهم اعتقدوا – وكذلك أنا – أنها تقصد من وراء ذلك السخرية. لكن عازف البيانو ظل صامتًا. أسدل رأسه، وراح يمر بسبابته على المقعد الخشبي، وكأنه يرسم فوق الرمل. بدأ جسمي ينتفض، فدسست يدي في جيوبي حتى أخفي هلعي. لم أكن في حالة تسمح لي بالحديث الواضح، وكست وجهي رغبة في البكاء. كان يجب أن أختار كلمات تجعل شعوري وكأني على وشك البكاء وتبدو للحاضرين غير مُتعمّدة.

قلت: "يا سيدتي، يجب أن أعزف الآن، لأن. نسيت السبب، فتوجهت بهدوء نحو البيانو. وهناك أدركت الموقف الذي أنا فيه. نهض عازف البيانو، ثم تجاوز المقعد برقة بعد أن عرقلت طريقه. ورفعت قامتي، وقلت "أطفئوا الأنوار من فضلكم! أنا لا أعزف إلا في الظلام"

وهنا حمل رجلان المقعد، وحملاني بعيدًا عن البيانو، عند طاولة الطعام وهم وهما يصفران بإحدى الأغنيات، ويهزان المقعد بخفة.

راح الجميع يتابعونهما وهم يثنون على ما فعلاه، وقالت الآنسة: "أترين يا سيدتي! لقد عزف بطريقة جيدة، وأنا كنت واثقة من ذلك، بينما كنتِ أنتِ خائفة"

فهمْت ما يدور، وشكرتهم بانحنائة احترام.

صبوا لي عصير ليمون، وأمسكت إحدى الفتيات ذت شفاه حمراء الكأس لكي أشرب منه. وقدمت لي صاحبة الحفل قطعة من الحلوى على طبق فضي، فدستها في فمي فتاة ترتدي فستانًا ناصع البياض. وأمسكت فتاة عامرة الصدر ذات شعر فاتح كثيف عنقود عنب فوق رأسي، فأخذت منه وهى تتطلع إلى عيني الزائغتين.

لكني تعجبت عندما منعوني بحزم وأنا أتقدم من جديد ناحية البيانو، رغم أنهم تعاملوا معي بطريقة طيبة للغاية.

قال صاحب الحفل الذي لم ألاحظ وجوده من قبل: "هذا يكفي!" ثم خرج، وعاد على الفور وهو يحمل أسطوانة ضخمة، ويرتدي معطفًا ضيقًا نحاسي اللون، وقال: "هذه أشياؤك"

لم تكن هذه الأشياء لي، ورغم ذلك لم أرغب في أن أجهده في البحث عن صاحبها. ألبسني صاحب الحفل المعطف بنفسه، وكان مناسبًا لي تمامًا، وبدا ممسكًا بجسدي النحيف. وقامت سيدة ذات ملامح لطيفة بغلق أزرار المعطف زرًا بعد الآخر وهى تموج بجسمها.

قالت صاحبة الحفل: "أتمنى لك وقتًا طيبًا وأن نراك هنا قريبًا. فنحن نسعد دائمًا بلقائك، وأنت تعرف ذلك" وهنا انحني كل الحضور، وكأنهم مضطرون إلى ذلك. حاولت أنا أيضا أن أنحني أمامهم، لكن المعطف كان ضيقًا للغاية. أخذت القبعة، وتوجهت مرتبكًا نحو الباب.

وبمجرد أن ابتعدت عن البيت عدة خطوات حتى استقبلتني السماء، والقمر، والنجوم، والقبة الضخمة، والميدان الذي يقف فيه مبنى البلدية، وساري مريم العذراء، والكنيسة.

خرجت بكل هدوء من ظل البيت إلى ضوء القمر، فتحت أزرار المعطف، ونفخت في راحتي لأشعر بالدفء، ثم رفعت يدي لآمر الليل كي يخفض صوت همهمته، وبدأت أفكر:

"ما هذا الذي تفعلونه وكأنكم حقيقيون. تريدون أن تجبرونى على أن أعتقد أنني لست حقيقيًا، وغريبًا وأنا أقف فوق هذا الأرض الخضراء. لكن فات الأوان، الحقيقة أيتها السماء وأيها الميدان، أنت لم تكن يومًا حقيقيًا".

"صحيح أنكم تتفوقون عليّ، لكن فقط عندما أغفل عنكم. أحمد الله أيها القمر أنك لست قمرًا، لكنه ربما يكون خطأ، يا من تسمى القمر، إنني مازلت أسميك قمرًا. ماذا ستفعل عندما أسميك المصباح المنسيّ ذا اللون الغريب؟ لماذا تندهش عندما أسميك عامود العذراء مريم، ولا تكف عن تهديدك يا عامود العذراء مريم عندما أسميك القمر الساطع بنوره الأصفر؟"

"يبدو لي بالفعل أنكم تنزعجون عندما يفكر فيكم أحد. هذا الأمر ينزع عنكم الشجاعة والصحة. يا إلهي! كم يكون الأمر ناجحاً عندما يتعلم المفكر من السّكير!"

لماذا هجعت الأصوات؟ أعتقد أن الرياح توقفت، والبيوت التي كانت تدور في الميدان وكأنها تسير على عجلات توقفت من الذهول- بهدوء - اختفى حتى ذلك الطوق الرفيع الأسود الذي يفصلها عن الأرض"

انطلقت مهرولًا، أطوف ثلاث مرات بالميدان الكبير، لا يعوقني شيء. اندفعت في السير لأني لم أجد أي سِكّير به، لم أتمهل، ولم أشعر بالتعب. توجهت نحو شارع كارل. يرافقني ظل أصغر مني بجواري على الحائط، وكأنه وادي وادٍ صغير بين الحائط والطريق.

سمعت وأنا أمر بمبنى المطافئ ضجيجًا قادمًا من ميدان صغير، وعندما اتجهت إلى هناك رأيت رجلًا مخمورًا يقف بجوار نبع، يحافظ

على ذراعه مستقيمة في وضع أفقي، ويضرب الأرض بنعل خشبي ينتعله في قدميه.

توقفت قليلًا حتى ألتقط أنفاسي، ثم تقدمت منه، أنزلت الأسطوانة من على كتفي، وقدمت له نفسي:

"مساء الخير! أيها الرجل النبيل! أبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا، ولا أعرف اسمي بعد. بينما أنت قادم من مدينة باريس الكبيرة وتحمل معك أسماء جديدة لها إيقاع موسيقي. تحيطك رائحة الفناء الفرنسي المضطرب شديدة الغرابة"

"من المؤكد أنك رأيت بعينيك الملونتين هؤلاء السيدات اللواتي يقفن في الشرفة البيضاء العالية، يتمايلن بأردافهن الرفيعة، وأطراف فساتينهن الملونة والمنبسطة فوق درجات السلم مازالت في رمال الحديقة. والعبيد يستقلون الأعمدة العالية التي انتشرت في كل مكان رهم يرتدون بذات رسمية باهتة اللون متأنقة وسراويل بيضاء، أقدامهم ملتفة حول الأعمدة، يميلون جذع الأعمدة إلى الخلف أحيانًا، وإلى الجوانب أحيانًا أخرى. مهمتهم هى رفع أغطية الأسرّة بأحبال سميكة طويلة من على الأرض وشدها إلى أعلى، فالسيدات يحببن أن يأتي الصباح ضبابيًا".

تجشأ الرجل، فقلت بنوع من الخوف: "هل صحيح يا سيدي أنك قادم من باريس، من باريس العاصفة، آه، من تلك العاصفة الأسطورية الباردة؟".

وعندما تجشأ من جديد قلت بتردد: "أنا أعرف أنني نلت شرفًا عظيمًا".

حررت أزرار المعطف بخفة من أصابعي، ثم بدأت أتحدث بودّ وعلى استحياء: "أنا أعرف، لا تعتبرني رجلًا جديرًا بالرد، لكنني قد أقضي حياتي كلها في البكاء لو لم أسألك اليوم"

"أرجوك أيها الرجل الجليل، أجبني، هل صحيح ما قالوه لي؟ إن في باريس أناس أناسًا مصنوعين فقط من الأزياء البسيطة، وإن هناك بيوتًا مجرد بوابات، وهل حقيقي أن السماء فوق المدينة يكسوها اللون الأزرق الملكي في أيام الصيف، وتزينها سحب بيضاء على شكل قلوب؟ هل صحيح أن هناك تمثالًا من الشمع حوله ازدحام شديد، وأشجار عليها أسماء مشاهير الأبطال والمجرمين والمحبين، كتبت على لوحات صغيرة ؟

"شيء آخر! شيء يبدو غير حقيقي! هل صحيح أن شوارع باريس تتشعب، وأن ضجيجها لا يهدأ، أليس هذا صحيحًا؟ ليس كل شيء على ما يرام، كيف حدث هذا! حادثة ما تحدث هنا وهناك، الناس يتجمعون، يأتون من الشوارع الفرعية بخطوات أهل المدينة، التي بالكاد تلمس أرض

الشارع. الكل مفعم بالفضول، وبالخوف أيضًا من خيبة الأمل، تتسارع أنفاسهم، ويدفعون رؤوسهم الصغيرة إلى الأمام. ولو لمس أحدهم شخصًا آخر، ينحني له ويسأله المغفرة: "أنا آسف جدًا – لم أكن أقصد – فالزحام هنا كبير، سامحني من فضلك، إنها حماقة كبيرة مني – أعترف لك بذلك. اسمي هو – اسمي هو جيروم فاروشيه، أبيع التوابل في رودي كابوتين – اسمح لي أن أدعوك غدًا على الغداء، وستسعد زوجتي بك جداً" هكذا يتحدثون، والشوارع تعج بالمارة، ودخان المداخن يسقط بين البيوت. هذا هو الوضع. ومن الممكن أن تتوقف سيارتان في جادة أخرى في أحد الأحياء الراقية. الخدم يفتحون الأبواب بوجوه صارمة. وتندفع ثمانية كلاب ذئبية من سيبيريا بخطوات راقصة، وتثب عبر الطريق. وهنا يقول أحدهم إنهم شباب باريس المتأنقين"

كانت عيناه مغمضتين. وعندما انتهيت من كلامي دس كلتا يديه في فمه وشَق فكه السفلي. كانت ملابسه كلها متسخة. ربما أنهم طردوه من الحانة، ومازال لم يدرك الأمر بعد.

ربما كانت تلك الاستراحة القصيرة والهادئة بين النهار والليل، الوقت الذي تُعلق فيه رؤوسنا دون أن ندري على مؤخرة عنقنا، ويتوقف فيه كل شيء دون أن نلاحظ ذلك. فيختفي لأننا لم ننتبه إليه. ونظل وحدنا مع جسد محنيّ. ثم نلتفت حولنا لكننا لا نرى شيئًا، ولا نشعر بمقاومة الهواء. لكن نتمسك في داخلنا بذكرى أن بيوتًا ما توجد على مسافة منّا،

بيوت لها أسقف ودفايات ذات زوايا، يتسلل الظلام إلى داخل البيوت، ثم من غرف العلية إلى مختلف حجرات البيت. سعادة هى أن غداً سيكون يومًا نرى فيه كل شيء، حتى وإن كان هذا شيئًا لا يصدق.

هنا رفع هذا السكير حاجبيه حتى لمع ما بينهما وبين عينيه، وبدأ يفسر الأمر بكلمات متقطعة: "إنه بالفعل كذلك – أشعر برغبة في النوم، لذلك سأذهب للنوم- عندي صهر يسكن في ميدان فاتسلاف – سأذهب إلى هناك، لأنني أعيش هناك، فهناك لدي سرير – والآن انصرف! في الواقع أنا لا أعرف اسمه، وأعرف أين يسكن – ربما نسيت – لكن لا يهم، لأني في الأصل لست متأكدًا أن لي – صهرًا سأذهب الآن - أتعتقد أني سأعثر عليه؟

قلت له بدون تردد: "بالتأكيد ستعثر عليه. لكنك قادم من بلاد أجنبية، وليس لديك خَدم. اسمح لي أن أرافقك إلى هناك"

لم يرد. ففردت له ذراعي كي يتأبطه".

لكني حاولت عدة مرات أن أستعيد وعيى. فنفضت جسمي، وقلت لنفسي: "لقد حان الوقت كي أتحدث. إنك في حيرة من أمرك. هل تشعر بضعف في معنوياتك؟ انتظر! أنت تعرف مثل هذه المواقف. تفكّر جيدًا في الأمر دون تعجل! وكل ما حولك سينتظر

"إنه يشبه ما حدث في تلك الحفلة الأسبوع الماضي. قرأ أحدهم شيئًا ما في أحد المستندات. قمت بنسخ صفحة من المستند بناء على رغبة أحدهم. يتملكني الرعب وأنا أقرأ الكلمات التي كتبها. لا فائدة من هذا. الناس يجلسون منكبين على المستند من ثلاث نواحي حول الطاولة، وأنا أقسم والدموع تنهمر من عيني بأنه ليس خطي"

"لكن لماذا يجب أن يكون مشابهًا لما هو بين أيدينا اليوم؟ الأمر يعود إليك كي تضع حدودًا للحوار. بكل هدوء. لكن حاول يا عزيزي! – بالتأكيد ستصل إلى حجة ما– يمكنك أن تقول: يغالبني النعاس، ورأسي تؤلمني. إلى اللقاء. بسرعة، بسرعة. اجعلهم ينتبهون إليك! – ما هذا؟ عقبات وعقبات؟ ماذا تتذكر؟-أتذكر إحدى الهضاب التي ارتفعت أمام السماء الكبيرة وكأنها لوحة للكرة الأرضية. نظرت إليها من فوق الجبل العالي وعزمت على أن أتحول إليه. وبدأت أغني"

كانت شفتاي جافتين وعصيتين على الكلام عندما قلت: "لا يجب أن يحاول الإنسان تغيير حياته"

قال متسائلًا والابتسامة على وجهه: "لا؟"

سألته وأنا أرى أن كل ما بنيته بيني وبينه في نومي حتى الآن قد تداعى تمامًا: "لكن لماذا تصلي في الكنيسة كل مساء؟"

"لا، لماذا يجب أن نتحدث في هذا الأمر؟ في المساء لا يوجد من يعيش وحده، وليست لديه أي مسؤولية. ويسيطر عليه الخوف. ربما ينتهي الوجود الجسدي، ويصبح الناس في الحقيقة كما تراهم وقت الأصيل، ولن يستطيع أحد السير بدون عصا، وسيكون مناسبًا الذهاب إلى الكنيسة والصلاة بطريقة صاخبة حتى يراه الناس، ويستعيد هو جسده.

حديثه بهذه الطريقة ثم صمته جعلني أسحب منديلي الأحمر من جيبي، وأنخرط في البكاء وأحني ظهري.

نهض، وقبل يدي، ثم قال:

"لماذا تبكي؟ أنت رجل ضخم، وأنا سعيد بهذا. يداك طويلتان، ولا تفعلان إلا ما تمليه عليهما إرادتك. لماذا لا يسعدك شيء كهذا؟ أنفك داكن

وعلى أكمامك حواش من القماش. أنصحك! – كلا، – أنا هنا أتملقك، وأنت تبكي؟ تتحمل كل هموم الحياة هذه، وبشكل معقول للغاية"

"نحن نبني آلات حربية غير ضرورية، ونبني أبراجًا وحوائط وستائر حريرية، ولو كان لدينا مزيد من الوقت لتعجبنا من هذا كله. نحن معلقون في الهواء، لا نسقط، نرفرف عاليًا، رغم أننا أكثر قبحًا من الخفافيش. يصعُب أن يمنعنا أحد في يوم جميل من أن نقول: يا إلهي! يا له من يوم جميل! لأننا تأقلمنا مع أرضنا، ونعيش بكامل إرادتنا"

"نحن مثل جذور الأشجار وسط الثلوج. يبدو لنا أنها تنام في هدوء، وتعتقد أنه يكفي أن تدفعها قليلًا فتزيحها عن مكانها. لكن إلى أين؟ مستحيل! إنها ملتصقة بالأرض بقوة. لكن اسمع! هكذا نرى نحن الأمور

أفسدت الأفكار عليّ البكاء: "إنه الليل، ولن يوبخني أحد في الصباح على ما أقوله الآن، لأنه يمكن أن يكون مجرد كلام رجل نائم"

ثم قلت: "نعم، هذه هى الحقيقة، لكن عما كنا نتحدث؟ لا يمكنني أن أتكلم عن السماء المشرقة وأنا أقف في عمق الدهليز. لا، رغم ذلك يمكننا أن نتحدث عن هذا، أولسنا مستقلين في حوارنا؟ نحن لا نبغي تحقيق هدف معين، ولا نبحث عن الحقيقة، بل إنها مزحة وتسلية. هل يمكنك أن تحكي لي مرة أخرى حكاية تلك السيدة في الحديقة؟ كم هى امرأة مثيرة للإعجاب وعاقلة! يجب أن أتخذها مثالًا

لي. كم أحب تلك المرأة! كما أنه كان أمرًا طيبًا أنني التقيتك، وأنني عثرت عليك. كان شرفًا عظيمًا أنني تكلمت معك. سمعت الكثير من الأمور التي لم أكن أعرفها، ربما عن عمد. أنا سعيد"

بدا عليه الرضا. وجدت نفسي أحتضنه رغم نفوري الدائم من ملامسة أي جسد بشري غريب.

ثم خرجنا من الدهليز إلى الفضاء الواسع. شتت صديقي بعض السحب المتفرقة بنفخة من فمه، فظهرت السماء مفروشة بالنجوم. وسار صديقي بخطى متثاقلة.

4

موت الرجل السمين

سيطرت السرعة هنا على كل شيء، واختفى بعيدًا. تقلصت مياه النهر وكأنها تقاوم، وتأرجحت عند حوافه المتكسرة، وحملت الأبخرة والدوامات كل شيء.

لم يستطع الرجل السمين أن يواصل كلامه، اضطر إلى الانصراف، واختفى وسط تساقط المياه السريع الهادر.

أما أنا، الرجل الذي عرف الكثير من حكايات اللهو، وقفت عند الشاطيء ورأيت كل شيء. رحت أصرخ وأصرخ: "ما عسى رئتانا أن تفعلا! لو تنفسنا بسرعة لاختنقتا من سم داخلي، ولو تنفسنا ببطء لاختنقتا من الهواء الفاسد ومن الأمور الجامحة. وإن أرادتا البحث عن إيقاع لهما فسيفنيهما البحث".

اتسعت ضفتا هذا النهر بشكل هائل، وأنا ألمس براحتي لوحة معدنية صغيرة تشير إلى الطريق. لم أقتنع بالأمر. فقد كنت صغيرًا، أصغر من العادة، تجاوزتني شجيرة ذات أشواك بيضاء تهتز بقوة. رأيت هذا بنفسي، فمنذ قليل كانت قريبة مني.

لكني كنت مخطئًا، لأن يديّ كانتا طويلتين مثل سحب أمطار هطلت لأربعة أيام كاملة، لكنها سحب وحشية. لا أعرف لماذا أرادت أن تسحق رأسي الصغيرة. كانت رأس صغيرة مثل بيضة النملة، ومشوهة قليلًا، فلم تكن مستديرة. كنت أحركها باستجداء، فتعبيرات عيني كانت صغيرة، لا يمكن أن يلاحظها أحد.

لكن قدميّ، قدميّ الكبيرتين تقفان فوق الجبال وأدغالها، تظللا وادي القرية. تكبران وتكبران! وتبرزان في فضاء فسيح يتجاوز البلاد. ابتعدتا عني، وصارتا خارج مرمى بصري.

لكن لا، ليس الأمر هكذا – صحيح أنني صغير، صغير حتى الآن –، أتدحرج – وأتدحرج، أنا كرة ثلج وسط الجبال! من فضلكم، أيها السائرون! أخبروني من فضلكم! ما هو طولي؟ قيسوا لي ذراعي وقدمي!

3

قال صاحبي الذي خرج معي من الحفل، وسار بجواري في هدوء في إحدى طرقات منطقة بترشين: "كيف سارت الأمور إذن؟ قف لحظة حتى أستوعب ما تقوله، - أتعرف، يجب أن أقضي شيئًا ما. إنه أمر شاق – ليلة شاقة ومضيئة كهذه، باستثناء هذه الرياح الثائرة التي يبدو أنها غيرت من شكل أشجار السنط هناك"

انتشر ظل بيت عامل الحديقة تحت ضوء القمر على طريق مقنطر، مفروش بحبات الثلج. مددت يدي، وأشرت إلى أحد المقاعد بجوار باب البيت. لم تكن عندي الشجاعة الكافية فانتظرت النصح من صاحبي، ووضعت يدي اليسرى على صدري.

جلس متأففًا دون أن ينظر إلى ملابسه الجميلة، وأسند مرفقيه على فخذيه، وجبينه على أطراف أصابعه المعقودة.

"أريد الآن أن أقول لك. أنا أعيش حياة محترمة، لا شيء أستحق اللوم عليه، وكل ما أقوم به ضروريًا ومقبولًا. واجهت الكثير من العثرات التي تحدث عادة في المجتمع الذي أتواجد فيه. وهى أشياء أتلقاها وكل من حولي بكل الرضى. وحتى الأمور الطيبة جاءتني من تلقاء نفسها، ولم أستطع الحديث عنها في محيطي الضيق. حسنًا، حتي الآن لم أصادف حبًا حقيقيًا. أشبع رغباتي من وقت لآخر، لكنني عند

الضرورة أسلك الطريق المعروف. ويجب أن أخبرك الآن: نعم، لقد وقعت في الحب، لقد هام بي الحب في كل وادٍ. أنا حبيب مليء بالوهج الذى تتمناه كل فتاة. لكن ألا ينبغي عليّ أن أفكر في أن ما عانيته من نقص في السابق أعطاني طابعًا مميزًا وسعيدًا، سعيدًا للغاية؟

قلت له دون أن أشاركه ما قال، وأنا غارق في أفكاري: "الهدوء، تمهل! إن حبيبتك بالتأكيد امرأة جميلة، كما يبدو من كلامك"

"نعم، إنها جميلة. عندما جلست بجوارها كنت أفكر دائمًا في شيء واحد: إنها جرأة كبيرة – وأنا بمثل هذه الجرأة توجهت نحو البحر، أشرب النبيذ. إنها عندما تضحك لا أرى أسنانها كما هى العادة، لم أر سوى فتحة فمها المستديرة سوداء ضيقة. هذا المنظر بالطبع يبدو خادعًا، وتبدو وكأنها امرأة عجوز، فهى مثلًا عندما تضحك تدفع رأسها إلى الخلف"

قلت وأنا أزفر: "أعترف لك بهذا، ربما مر بي شيء مشابه. إنه أمر لافت بالطبع. لكنها ليست القضية الوحيدة. إنه الجمال الأنثوي! عندما أرى الملابس وثنياتها الغنية وكشكشاتها وأهدابها وهى تضم جسدًا رشيقًا أفكر في أنها لن تبقى هكذا طويلًا. سوف تتجعد وسيصعب تسويتها، وسيلتصق بها التراب، ويتغلغل إلى ثناياها، ولن يخرج منها. لن يسمح أحد أن يجعل من نفسه أضحوكة، فيرتدي في صباح كل يوم ملابسه ثم في المساء يخلع مثل هذه الملابس الثمينة. أقابل فتيات جميلة

بالفعل. يتمتعن بعضلات وكواحل ساحرة، وبشرة مشدودة وطوفان من الشعر الناعم. لكنهن يظهرن كل يوم يرتدين نفس الملابس، ويضعن في كل مرة نفس الوجه في نفس الراحتين، ويطالعنه في مرآتهن. وعندما يعدن متأخرات في المساء من إحدى الحفلات تبدو وجوههن في المرآة مبتذلة، ومنتفخة، ومحملة بالأتربة، وجوه صارت مبتذلة من كثرة الناظرين إليها، وبالكاد يتحملن النظر إليها"

"سألتك أثناء السير عدة مرات إن كنت تعتقد أن تلك الفتاة جميلة، لكنك تدير لي ظهرك في كل مرة دون أن تجيبني. أخبرني! هل لديك نوايا سيئة تجاهي؟ لماذا لا تحاول أن تبعث في نفسي البهجة؟

غمرت قدمي في الظل، وأجبته بكل اهتمام: "أنت لست في حاجة إلى ثنائي. فأنت رجل غارق في الحب" كنت وأنا أجيبه أضع فوق فمي كي لا أصاب بالبرد منديلًا مزينًا بصور حبات العنب الزرقاء.

التفت ناحيتي، وأسند وجهه المنتفخ على ذراع المقعد القصير، وقال: "في الواقع أنا لا أتعجل الأمر. مازال في إمكاني أن أنهى هذه العلاقة العاطفية بعمل خسيس أو خيانة، أو أسافر إلى إحدى البلاد البعيدة. فأنا مازلت غير متأكد من أنني أريد أن أستسلم لهذه الرغبة. لا يوجد شيء مؤكد هنا، لا يمكن أن تعرف بكل ثقة إلام ستنتهي هذه العلاقة وإلى متى ستصمد. عندما أذهب إلى الحانة في المساء كي أثمل قليلًا أعرف أنني في هذا المساء سأكون ثملًا. لكن في حالة كهذه! نريد

بعد أسبوع أن نذهب في رحلة مع أسرة صديقة، ألن يحرك هذا قلبي لمدة أربعة عشر يومًا؟ إن القبلات في تلك الأمسية بعثت في نفسي حالة من الخمول حتى تصنع لنفسها مكانًا فى أحلام جامحة. أقاوم هذا الأمر، فأقوم بنزهات ليلية. هنا سأتغلب على الأمر. أنا لا أخرج حبًا في الخروج، فوجهي يصير باردًا، ويتورد من خبطات الرياح. أضطر دائمًا إلى التقاط شرائط وردية من جيبي، صرت أخاف على نفسي كثيرًا، وغير قادر على أن أستجيب لمخاوفي تلك، وأتحمل رجلًا مثلك، يا سيدي! لو كنت في ظروف غير هذه الظروف لما تحدثت مع رجل مثلك في حياتي"

كنت أشعر بالبرودة الشديدة، وبدأت السماء تتخذ لونًا باهتًا. قلت له وأنا أضحك: "هنا لن يساعدك أي عمل خسيس، أو خيانة، ولا حتى رحلة إلى بلاد بعيدة. ليس أمامك إلا أن تنتحر

كانت توجد شجرتان صغيرتان أمامنا على الجانب الآخر من الزقاق، وخلفهما تقع المدينة. ومازالت بعض المصابيح تضيء.

صاح صاحبي: "حسنًا". ثم خبط بقبضة يده الصغيرة القوية أحد المقاعد. وتركها ملقاه كما هى. "لكنك ستبقى حيًا، لن تقتل نفسك. فلا أحد يحبك. ولن تحقق أي شيء. أنت عاجز عن أن تمتلك اللحظة القادمة. ورغم ذلك تتحدث معي بهذه الطريقة أيها الإنسان الوقح! أنت غير قادر على أن تحب أحدًا، ولا شيء يثيرك سوى الخوف. انظر إلى صدري!".

وهنا فتح بسرعة معطفه، وصدريته وقميصه. كان صدره بالفعل عريضًا وجميلًا.

بدأت أتحدث: "بالفعل، نوبات المقاومة هذه أحيانًا تعترينا. كنت في هذا الصيف في إحدى القرى التي تقع بجوار النهر. مازلت أذكر هذا جيدًا. كثيرًا ما كنت أجلس على المقعد عند النهر وأنا حزين. كان هناك أيضًا فندق على جانب النهر. كنت كثيرًا ما أسمع صوت الكمان يأتي منه. وشباب يجلسون حول الطاولات في الحديقة يتحدثون وهم يشربون البيرة عن الصيد، وعن المغامرات. وعلى الجانب الآخر من النهر كانت توجد جبال غارقة وسط السحاب"

وهنا نهضت وأنا أقبض قليلًا على فمي، وتقدمت ناحية مسطح الحشائش الخضراء خلف المقعد. تحطمت أسفل قدمي بعض الفروع التي غطاها الثلج، وقلت لصاحبي في أذنه:"أحب أن أخبرك بأن عندي خطيبة"

لم يتعجب صاحبي من أنني وقفت، وقال: "عندك خطيبة؟" ثم جلس بتأنٍ وهو يتكئ على ذراع المقعد. بعدها خلع قبعته، فرأيت شعره الذي كان يفوح عطرًا، شعر مصفف بطريقة لطيفة، وجانبان مستديران جميلان ومصففان بدقة يفصلان رأسه المستدير عن رقبته السمينة، وكانت هذه التسريحة منتشرة في ذلك الصيف.

كنت سعيدًا بأنني أجبته بهذه البراعة. قلت لنفسي: "عجيب! يتردد على الحفلات برأس متحررة وذراعين منبسطين. قادر وسط القاعة على أن يدير حوار حوارًا جذابًا مع إحدى السيدات، ورغم ذلك لا يزعجه إطلاقًا أن السماء تمطر أمام البيت، أو أن شخصًا خجولًا يظهر هناك أحيانًا، أو أن أمرًا مؤلمًا يحدث هناك. هذا ممكن، فهو يجيد الانحناء أمام السيدات. وهو الآن يجلس في هذه الحالة"

مرر صاحبي شال قطني رقيق على جبينه، وقال: "من فضلك! ضع يدك على جبيني قليلًا، أرجوك!" ولما لم أفعل ما طلبه على الفور، عقد ذراعيه.

وكأن همومنا نشرت سحابة داكنة على كل شيء، جلسنا فوق التل وكأننا في حجرة صغيرة، رغم أننا شاهدنا قبل ذلك شروق الشمس واستنشقنا نسيم الصباح. جلسنا متجاورين تمامًا رغم أن كل منا لا يحب الآخر، لكننا لم نتحمل أن يبتعد كل منا عن الآخر. فالحوائط كانت ضيقة، وقوية. كان كل منا يتصرف بطريقة تثير الضحك، لم نلق بالًا للمهابة. فلم نكن مضطرين إلى أن نخجل من الأغصان من فوقنا، ولا من الأشجار التي اصطفت أمامنا.

وفجأة سحب صاحبي سكينًا من جيبه، وفتحه وهو يتأمله، ثم غرسه في ذراعه الأيمن فوق المرفق، ولم يسحبه. تدفق الدم على الفور. ذبلت وجوهه المستديرة. فسحبت السكين، وفصلت كُم معطفه السميك

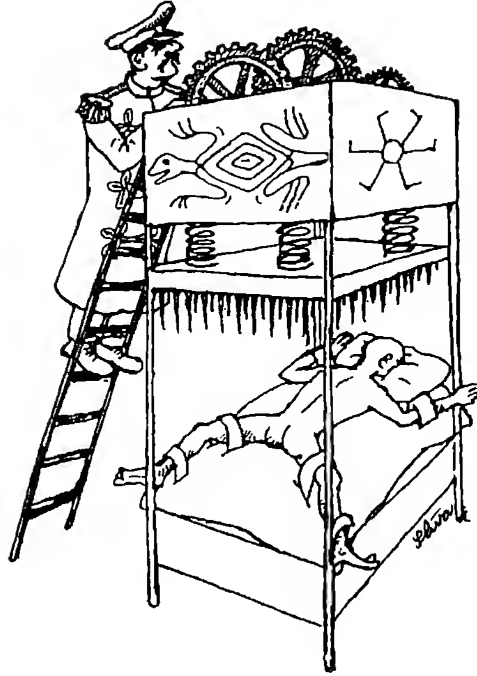
وكُمّ سترته، وفصلت الكُمّ عن القميص. وهرولت بعدها في الطريق صعودًا وهبوطًا حتى أبحث عن أحدهم كي يساعدني. كل الأغصان واضحة تمامًا وساكنة. رحت أمتص هذا الجرح العميق قليلًا. وهنا تذكرت بيت مسؤول الحديقة. أسرعت فوق الدرج، ناحية مسطح الحشائش المرتفع على يسار المنزل الصغير، وعلى عجلة حاولت الطرق على النوافذ وعلى الباب، ضغطت على الجرس بعنف وأنا أخبط بقدمي على الأرض رغم تيقني من أن البيت لم يكن به أحد. ثم ألقيت نظرة على الجرح الذي تسيل منه الدماء بغزارة. بللت ملابسه في الثلج، ثم لففت ذراعه بشكل مرتبك.

قلت له: "عزيزي، يا عزيزي! لقد آذيت نفسك من أجلي. إنك رجل ذو مكانة، محاط بأجواء الألفة. يمكنك أن تتجول في وضح النهار، بين الطاولات، أو ترى على الطرقات فوق الهضاب كثيرًا من الناس، يرتدون ثيابًا أنيقة. تذكّر! في الربيع سوف نذهب إلى حديقة القصر. كلا، لن نذهب نحن، بل ستذهب أنت مع أنيتشكا سعيدًا ومنتشيًا. نعم، صدقني! وسترافقكما الشمس في أبهى صورها. يا صاحبي! ها هي الموسيقى. أسمع من بعيد وقع أقدام الخيول. لا تحزن! هناك صياح، وأرغون يعزف في طريق الأشجار

قلت: "يا إلهي!"، ثم نهضت. اتكأ عليّ، ومشينا معًا: "لن نجد هنا من يساعدنا، للأسف. أعذرني! هل فات الوقت؟ ربما كان عليّ أن أفعل شيئًا في الصباح الباكر. يا إلهي!"

أضاء مصباح عالٍ بالقرب من أحد الحوائط، وأطلق فوق الطريق وعلى الثلوج البيضاء ظلال الأحجار. وعلى جانب التل نامت ظلال أغصان كثيرة متكسرة ومعوجة.

في مستعمرة العقاب[1]



[1] أقام كافكا مع والديه حتى عام 1915. كتب كافكا قصة (في معسكر العقاب) في خلال ثلاثة أيام، في الفترة من 15-18 أكتوبر عام 1914 وبعدها بقليل اندلعت الحرب العالمية الأولى. اضطر بعدها إلى مغادرة منزل الأسرة وهو في الواحدة الثلاثين من عمره. تنقل بين العديد من الشقق المستأجرة نتيجة لحساسيته المفرطه تجاه الضجيج.

"إنه جهاز غريب"، قال الضابط للرحالة وهو يلقي نظرة إعجاب على الجهاز الذي يعرفه جيدًا. قَبِل الرحالة من باب اللياقة فقط دعوة القائد له للمشاركة في إعدام أحد الجنود الذي أُدين بتهمة مخالفة الأوامر وإهانة قائده. لم يكن هناك اهتمام كبير بعملية الإعدام هذه حتى في معسكر العقاب، خاصة في ذلك الوادي الرملي الصغير والعميق، المحاط من كل جوانبه بتلال قاحلة. لم يكن موجود سوى الضابط والرحالة والشخص المحكوم عليه، وهو إنسان ينظر بطريقة بليدة، له فم كبير وشعر ووجه بائسان. كان أحد الجنود يمسك الجاني بسلسلة ثقيلة تتصل بها سلاسل أصغر حجمًا، كان المحكوم عليه مقيدًا بها عند كاحليه ومعصميه وحول رقبته. وكانت تلك السلاسل متصلة ببعضها بحلقات حديدية. بدا الجاني مستسلمًا، كان في إمكانهم أن يتركوه يجري حرًا طليقًا فوق التلال، ويكفى قبل الإعدام أن ينادوا عليه كي يأتي.

لم يكن الرحالة على دراية كاملة بالجهاز، يتحرك هنا وهناك خلف الجاني، بينما الضابط يضع اللمسات الأخيرة على التجهيزات.ينزل أسفل الجهاز المطمور في عمق الأرض، أو يصعد سلمًا كي يرى أجزاءه العليا. كان يمكنه أن يترك هذا العمل لأحد مشغلي الآلات، لكن الضابط كان يعمل بكل حماس، ربما لأنه كان من أشد المتحمسين لهذه الآلة، أو أن عملًا كهذا لم يكن ممكنًا أن يوكله لشخص آخر. وأخيرًا صاح وهو ينزل من فوق السلم: "أصبح كل شيء جاهزًا الآن!" بدا عليه الإرهاق الشديد، فجلس يستريح وهو يفتح فمه عن آخره.كان يضع خلف ياقة

بذته منديلين ناعمين من النوع الذي تستخدمه السيدات. وبدلًا من أن يسأل الضابط عن الجهاز، قال الرحالة: "هذه البذة تبدو ثقيلة جدًا" أجابه الضابط وهو يغسل يديه الملوثتين بالشحم والزيت في وعاء به ماء: "بالطبع، لكنها تعني الوطن، لا نريد أن نفقد الوطن"، وأضاف: "لكن انظر الآن إلى هذا الجهاز" ثم جفف يده في خرقة، وأشار إلى الجهاز، وقال: "حتى الآن كان يعمل يدويًا، لكنه منذ اليوم سوف يعمل من تلقاء نفسه" أومأ الرحالة، وراح يتابع الضابط الذي أضاف من باب الاحتياط: "بالطبع قد تحدث أعطال. لكني أتمنى ألا تحدث اليوم، ورغم ذلك يجب أن نتوقع حدوثها. فالجهاز يجب أن يكون جاهزًا للعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة. لكن لو حدثت أعطال، فإنها غالبًا ما تكون أعطالًا بسيطة، ويتم إصلاحها فورًا"

وأخيرًا سأله: "ألا تريد أن تجلس؟" ثم جذب مقعدًا من بين كومة مقاعد من الخيزران، وقدمه للرحالة الذي لم يستطع رفض دعوته. جلس على حافة إحدى الحفر، وألقى عليها نظرة عابرة. لم تكن حفرة عميقة. انتصبت على أحد جوانب الحفرة كومة من الطين المحفور، ووقف على الجانب الآخر الجهاز. قال الضابط: "لا أعرف إن كان القائد قد قدم لك شرحًا حول الجهاز صنع الرحالة بيده حركة بلا معنى، وكان هذا ما يريده الضابط. جاءته الفرصة لكي يقدم عرضا حول الجهاز. قال: "هذا الجهاز..."، ثم أمسك عصًا مكسورة واتكأ عليها، "هو من اختراع قائدنا السابق. وأنا عملت معه منذ البداية في التجارب،

وشاركت في العديد من الأعمال حتى انتهى. لكن الفضل في اختراع الجهاز يعود إليه وحده. هل سمعت من قبل شيئًا عن قائدنا السابق؟ كلا. حسنًا، لن أبالغ لو قلت لك إن الفضل في تجهيز معسكر العقاب بالكامل يعود إليه. ونحن، أصدقاءه، كنا نعرف في اللحظة التي توفي فيها أن تنظيم المعسكر يعتبر وحدة متكاملة تجعل من خليفته غير قادر على تغيير أي شيء مما هو قائم حتى ولو كان في رأسه آلاف الخطط المماثلة. وحدث ما توقعناه، واضطر القائد الجديد أن يعترف بذلك. خسارة أنك لم تعرف قائدنا السابق! لكني أقول.. "توقف الضابط لحظة، ثم قال "وجهازه يقف هنا أمامنا، يتكون، كما ترى من ثلاثة أجزاء. ومع الوقت أُطلق على كل جزء منها أسماء شعبية. الجزء الأول اسمه السرير، والجزء الأعلى يسمى الرسام، وهذا الجزء الأوسط المعلق يسمى البوابة" سأله الرحالة: "البوابة؟" لم يكن ينصت إليه جيدًا. مالت الشمس في الوادي دون أن تخلف ظلًا، وكان من الصعب التركيز. ومع ذلك واصل الضابط حديثه. كان يشرح بكل حماس وهو يرتدي معطفًا عسكريًا ضيقًا وأنيقًا، فوق كتفيه ثقل من نسيج مُقصب يتدلى من خيوطه، وكان يعبث وهو يتكلم بمفك البراغي في أحد المسامير.كان الجندي يشارك الرحالة شعوره. يلف حول كِلا معصميه سلسلة الجندي المحكوم عليه، ويتكئ بإحدى يديه على البندقية، وينظر نحو الأرض، فلم يكن يلاحظ شيئًا مما حوله. لم ير الرحالة في ذلك شيئًا غريبًا، فقد كان الضابط يتكلم باللغة الفرنسية التي لا يفهمها الجندي ولا المحكوم عليه. كان المحكوم عليه رغم ذلك يجاهد في متابعة

كلام الضابط، وينظر بعينيه المجهدتين بكل مثابرة إلى كل مكان يشير إليه الضابط. وعندما قاطع الرحالة الضابط بسؤال، نظر هو الآخر إلى الرحالة شأنه شأن الضابط.

قال الضابط: "نعم، بوابة. إنه اسم مناسب تمامًا. إن الإبر مرتبة تمامًا وكأنها في بوابة، وكل شيء يتحرك مثل البوابة رغم أنه يتحرك في مكان واحد وبطريقة بارعة للغاية. بعد قليل سيتضح لك الأمر. نضع هنا المحكوم عليه فوق السرير-في البداية أحب أن أصف لك الجهاز، ثم أشرح لك كيف يعمل. وعندها ستحكم على الجهاز بطريقة أفضل. إحدى عجلات التروس في جزء الرسام متآكلة بصورة واضحة: وتصدر صريرًا عاليًا أثناء دورانها، فلا تسمع أحدًا من حولك. للأسف لا يمكن الحصول على قطع غيار هنا بسهولة. – وهنا السرير كما قلت لك. وكله مغطى بطبقة من القطن، وستعرف لاحقًا السبب. نضع على هذه الطبقة القطنية المحكوم عليه ببطنه، عاريًا بالطبع. وهنا أربطة اليد، وهنا أربطة القدمين، وهنا أربطة العنق حتى يمكن ربطه بها. وهنا في أطراف السرير، كما قلت لك، المكان الذي يستلقي فيه المحكوم عليه على وجهه في البداية، يوجد عصا من اللباد يمكن تحريكها بسهولة لتدخل إلى فم الرجل مباشرة. ووظيفتها هنا هو منع المحكوم عليه من الصراخ، أو من عض لسانه. وطبعًا يجب على الرجل أن يمسك اللباد بفمه كي لا ينكسر عنقه من حركة السيور مال الرحالة وسأله: "وهذه قطعة قطنية؟". قال الضابط وهو يبتسم: "نعم، بالتأكيد. تحسسها بيدك!".

مد الرحالة يده ومررها على السرير. "إنها مصنوعة بطريقة خاصة، لذلك لا تبدو كأنها من القطن. سأخبرك فيما بعد عن وظيفتها" بدأ الرحالة يهتم بالجهاز، وراح ينظر إلى أعلى وهو يظلل عينيه بيده ضد الشمس. كان جهازًا ضخمًا. كان السرير والرسام بنفس الحجم الكبير، وبدوا مثل صندوقين داكنين.كان الرسام معلق فوق السرير بحوالي مترين تقريبًا، وكانت جوانبهم متصلة بأربع عصي نحاسية تكاد تلمع في ضوء الشمس. توجد بين الصندوقين البوابة معلقة على حبل من الفولاذ.

لم ينتبه الضابط كثيرًا إلى عدم الاكتراث الذي أبداه الرحالة في البداية، وبدأ يتفهم اهتمامه المتزايد الذي ظهر الآن. لذلك توقف عن الشرح كي يعطي الرحالة وقتًا للنظر إلى كل شيء دون إزعاج. راح المحكوم عليه يقلد الرحالة، ويطرف بعينيه إلى أعلى دون أن يظللهما لأنه لم يستطع أن يفعل ذلك.

قال الرحالة وهى يتكئ على المقعد، ويضع ساقًا فوق الأخرى: "إذن المحكوم عليه يستلقي على السرير قال الضابط: "نعم"، ثم حرك البيريه إلى الخلف، ومرر يده على وجه الملتهب من الشمس: "الآن اسمعني! كل من السرير والرسام يعملان ببطارية كهربائية. السرير يحتاجها ليتحرك هو نفسه، والرسام لتحريك البوابة. وبعد توثيق المحكوم عليه يتحرك السرير. يهتز محدثًا رعشة خفيفة وسريعة من جانب إلى آخر، وإلى أعلى وإلى

أسفل. ربما رأيت أجهزة مماثلة في المستشفيات. لكن حركات سريرنا محسوبة بدقة. ويجب أن تكون منسجمة تمامًا مع حركة البوابة. وتقوم هذه البوابة بدورها بتنفيذ الحكم".

سأل الرحالة: "لكن ما هو نص هذا الحكم؟" اندهش الضابط وقضم شفتيه، ثم قال. "اعذرني إن كان كلامي غير متسق، أرجوك أن تسامحني. في السابق كان يقوم القائد بالشرح، لكن القائد الجديد اعتذر عن أداء هذه المهمة الجليلة، لكن عند تشريفكم لنا بزيارة كهذه "– دفع الرحالة يديه ليعترض على كلمة التشريف، لكن الضابط أصر على كلماته، وأضاف "لكنه أمر جديد ألا نقوم أثناء زيارة هامة كهذه بالتعريف بشكل القرار الذي اتخذناه. وهو أمر... "– كادت كلمات السباب تنطلق على لسانه، لكنه انتبه وقال: "لم يخبرني أحد، وهذا ليس ذنبي. لكنني بالتأكيد مخول بأن أشرح أنواع الأحكام التي نصدرها هنا، فأنا هنا... "– ثم ضغط على زر موجود على صدره – "أحمل رسومات بخط يد القائد السابق"

سأل الرحالة: "رسومات بخط يد القائد السابق؟ هل كان خبيرًا في كل شيء؟ هل كان جنديًا وقاضيًا، ومصممًا، وكيميائيًا، ورسامًا؟"

"بالطبع"، قال الضابط وهو ينظر أمامه متأملًا، بعدها تطلع إلى يديه يتفحصهما، لم يرهما نظيفتين بالقدر الكافي حتى يمسك بهما التصميمات. لذلك توجه نحو الدلو، وغسلهما فيه مرة أخرى. ثم سحب

لوحات صغيرة، وقال: "أحكامنا هنا ليست صارمة. إن الأمر الذي خالفه المحكوم عليه تقوم البوابة بكتابته على جسمه. على سبيل المثال في حالة هذا المذنب "– أشار الضابط إلى الرجل – "ستكتب على جسمه: احترم قائدك!"

ألقى الرحالة نظرة عابرة على الرجل عندما كان الضابط يشير إليه. كانت رأسه مسدلة، ويعير الحديث أذنًا صاغية كي يلتقط أي كلمة. لكن حركة شفتيه المنتفختين والمعقودتين كانت تشي بأنه لم يتمكن من فهم أي شيء. أراد الرحالة أن يسأل عن أشياء كثيرة، لكن بمجرد أن نظر إلى الرجل، اكتفى فقط بسؤال واحد: "هل هو يعرف قراركم؟" قال الضابط: "كلا" وهمّ الضابط بمواصلة شرح الجهاز، لكن الرحالة قاطعه، وقال: "لا يعرف الحكم الذي صدر ضده؟". كرر الضابط الإجابة: "كلا"، ارتبك الضابط للحظة، وكأنه يحتاج إلى أن يقوم الرحالة بتفسير سؤاله، ثم قال له: "ربما يكون من غير المفيد إبلاغه بالحكم الصادر ضده. فهو في النهاية سيراه مكتوبًا على جسده" أراد الرحالة أن يلتزم الصمت، وشعر بأن المحكوم عليه يحدق فيه النظر، وكأنه يسأل إن كان يمكنه أن يعرف سير المحاكمة. لذلك انحني الرحالة من جديد وكان قد اتكأ على المقعد، وسأل الضابط مرة أخرى: "لكن هل يعرف أنه قد صدر في حقه حكم؟" قال الضابط: "هذا أيضا لا يعرفه"، ثم ابتسم للرحالة وكأنه يتوقع إجابة غريبة منه. قال الرحالة وهو يخبط على جبينه: "لا، إذن هذا الرجل لا يعرف حتى الآن

إن كان دفاعه قد قبل أم لا؟" قال الضابط: "لم تكن لديه فرصة للدفاع عن نفسه"، ثم نظر من حوله، وكأنه يتحدث مع نفسه، ولا يريد أن يشعر الرحالة بالخجل من شرح أشياء يعتبرها بديهية. قال الرحالة: "كان يجب أن يُمنح الفرصة للدفاع عن نفسه"، ثم نهض من على المقعد.

بدأ الضابط يشعر بالخطر من أن وصفه للجهاز سيطول، فتقدم من الرحالة، وجذبه من ذراعه، وأشار إلى المحكوم عليه الذي انتبه عندما وجد أن الأنظار مصوبة نحوه – كذلك جذب الجندي السلاسل – وقال: "هكذا تسير الأمور. أنا هنا في معسكر العقاب، أسير وفق أوامر القاضي. رغم أنه صغير السن. لقد ساعدت القائد السابق في كل الأمور التي تتعلق بالأحكام، وكذلك أعرف الجهاز أفضل من أي شخص غيري. القاعدة التي اتخذ قراراتي بناءً عليها تقول: الذنب دائمًا واضح. محاكم أخرى لا يمكنها اتباع هذه القاعدة، لأنها متعددة الأعضاء، وفوقها محاكم أخرى.الأمر هنا مختلف، أو على الأقل كان مختلفًا أيام القائد السابق. ألمح القائد الجديد بالطبع إلى أنه يرغب في التدخل فى قراراتي، لكني استطعت حتى الآن أن أمنعه من ذلك. وسأتمكن من ذلك أيضًا في المستقبل. – أنت أردت أن نشرح لك هذه القضية، وهى بسيطة مثل باقي القضايا. تقدم أحد النقباء بشكوى صباح اليوم، يقول فيها إن هذا الرجل الذي تم تكليفه ليقوم على خدمة ذلك النقيب، ويقضي ليلته أمام بابه، نام أثناء الخدمة. إن مهمته هى الاستيقاظ عند

دقة كل ساعة، ويلقي التحية أمام باب النقيب. بالطبع هى مهمة شاقة، لكنها ضرورية، لأن جندي الخدمة يجب أن يظل يقظًا حتى يؤدي مهامه. أراد النقيب ليلة أمس أن يعرف إن كان الجندي يؤدي مهامه، ففتح الباب عندما دقت الساعة، فوجده متقوقعًا ونائمًا. فانصرف يحضر سوطه، وضربه به على وجهه. وبدلًا من أن ينهض، ويطلب المغفرة، أمسك الجندي بقدمي سيده، وراح يهزها ويصيح: "ارمِ هذا السوط، وإلا قتلتك!" – هذه هى القضية. جاءني النقيب منذ ساعة، فأخذت بياناته، ثم كتبت فورًا منطوق الحكم. وأمرت بتقييد هذا الرجل بالسلاسل في الحال. كل هذا تم بمنتهى البساطة. ولو أنني استدعيت هذا الرجل لسماع أقواله فلن تكون هناك سوى الفوضى. قد يكذب، ولو لم ينجح في كذبته الأولى سيأتي بكذبة أخرى، وهكذا. الآن هو في قبضتي ولن أتركه. – هل وضحت الأمور الآن؟ لكن الوقت يمر، وكان يجب أن يتم البدء في تنفيذ حكم الإعدام منذ وقت مضى، وأنا لم أنته بعد من شرح الجهاز"، ثم بدأ: "وكما ترى، شكل البوابة يشبه الإنسان، هنا بوابة لهيكل الجسم، وبوابة للأقدام. وهذه إبرة صغيرة مخصصة للرأس. هل فهمت الأمر؟" أومأ بأدب للرحالة وهو على استعداد أن يشرح كل شيء بالتفصيل.

تطلع الرحالة إلى البوابة وهو عاقد جبينه. لقد أزعجه ما سمعه عن إجراءات التقاضي. لكنه قال لنفسه: إنه معسكر للعقاب، وإن الإجراءات هنا مختلفة ولا مفر منها، وإنه من الضروري تطبيق

الإجراءات العسكرية بحذافيرها. رغم ذلك كان يضع أملًا في القائد الجديد الذي ينوى على ما يبدو تطبيق نظام جديد، لكن تدريجيًا. هذا الضابط ضيق الأفق غير قادر على استيعاب هذا الأمر. سأله الرحالة وهو غارق في تلك الأفكار: "هل سيحضر القائد تنفيذ الإعدام؟" قال الضابط وقد بدا عليه الانزعاج من سؤاله، وتجهم وجهه الهادئ: "ليس هذا أمرًا مؤكدًا. لذلك يجب أن نسرع في التنفيذ. وسأضطر إلى اختصار الشرح رغمًا عني. لكن غدًا وبعد تنظيف الجهاز – هذا هو العيب الوحيد، وهو أنه يتلوث – يمكنني أن أكمل الشرح ببعض التفاصيل. والآن أشرح لك فقط الأمور الضرورية. – وما إن يستلقي الرجل على السرير، ويبدأ السرير في الاهتزاز، نطلق البوابة على جسمه. فتتوقف من تلقاء نفسها، بحيث تكاد أسنانها تلامس جسمه. وما إن تتخذ مكانها الصحيح يشتد هذا الحبل الفولاذي ويصير كالعصا، ويطلق البوابة. الشخص العادي لا يمكنه أن يعرف الفرق بين تنفيذ أنواع العقوبات، ويعتقد أن البوابات تعمل بطريقة واحدة في كل حالة، بأن تدك الأسنان المهتزة جسم الجاني الذي يهتز هو الآخر فوق السرير. صنعنا البوابات من الزجاج كي يمكن لكل من أراد معرفة كيفية تنفيذ الأحكام. حدثت مشاكل تقنية تتعلق بتثبيت الإبر، ولكن بعد عدة محاولات تمكنّا من حلها، ولم نوفر في ذلك جهدًا. والآن بإمكان كل شخص أن ينظر عبر الزجاج ليرى العبارات وهي تكتب على الجسم. تعال من فضلك! اقترب وانظر إلى الإبر!"

نهض الرّحالة على مهل، وتقدم من البوابة ومال عليها. قال الضابط: "أنت ترى نوعين من الإبر المصطفة بأساليب مختلفة. توجد دائمًا بجوار كل إبرة طويلة واحدة قصيرة. الطويلة تكتب والقصيرة ترش الماء الذي ينظف الدم. فلذلك تبقى الكتابة واضحة. يتدفق الماء إلى تلك القنوات الصغيرة حتى يصل إلى هذه القناة الرئيسية التي ينزل الماء منها إلى الحفرة عن طريق أنبوب صرف" أشار الضابط بإصبعه ليحدد على وجه الدقة المكان الذي يتدفق منه الماء المختلط بالدم. رفع الرحالة رأسه وهو يتحسس المكان من خلفه، وأراد أن يعود إلى المقعد عندما كاد الضابط أن يلامس الماء عند فتحة أنبوب الصرف بكفه إمعانًا في التوضيح. وهنا انتابه الفزع هو والمحكوم عليه عندما صاح الضابط يدعوه لرؤية جزء البوابة عن قرب. جذب المحكوم عليه الجندي الناعس من السلاسل، وانكب يتطلع إلى الزجاج. كان واضحًا أنه يبحث بنظرة تائهة عما يتابعه الرجلان، لكنه فشل في هذا نظرًا لأنه لا يفهم الشرح. راح يميل هنا وهناك. ثم مر بعينيه من جديد على الزجاج. أراد الرحالة أن يصرفه عما يفعل، لأن ما يفعله هو قطعًا أمر مخالف للتعليمات. لكن الضابط أمسك الرحالة بإحدى يديه، وأخذ بيده الأخرى حفنة من الطين من فوق الكومة وألقاها على الجندي. رفع الجندي بصره على الفور، فرأى ما فعله المحكوم عليه، فترك البندقية، ودك كعب حذائه في الأرض، وراح يجر السلاسل إلى أن سقط المحكوم عليه. ثم نظر إليه وهو يتقدم متعثرًا في السلاسل التي تجلجل. صاح الضابط: "ساعده على أن يقف على قدميه!"، فقد لاحظ أن المحكوم

عليه يجذب إليه أنظار الرحالة. مال الرحالة بجسده على البوابة، ولم يعد يهتم بها، وراح يتابع ما يحدث للمحكوم عليه. صاح الضابط من جديد: "تصرف معه بعناية!" دار حول الجهاز، وأمسك بالمحكوم عليه من ذراعه، وساعده هو والجندي على أن يقف على قدمه التي انزلقت منه عدة مرات.

قال الرحالة عندما عاد إليه الضابط مرة أخرى: "الآن فهمت كل شيء" قال الضابط: "بقى أهم شيء في الموضوع"، وأمسك بالرحالة من ذراعه، وأشار بيده إلى أعلى: "توجد في جزء الرسام تروس تنظم حركة البوابة. ونضبط هذه التروس طبقًا للتصميم المكتوب عليه قرار الإدانة. أنا مازلت أستخدم تصميمات القائد السابق. وهى هنا"، سحب من بضع أوراق من ألواح جلدية - "للأسف لا يمكنني أن أعطيها لك، فهى أغلى ما أملك. اجلس! سأعرضها عليك من بعيد بحيث يمكنك رؤيتها" عرض عليه الورقة الأولى. كان الرحالة يود أن يقول شيئًا من قبيل الثناء، لكنه لم ير سوى متاهة من الخطوط التي تتعارض بشكل عشوائي، وتغطي الصفحة بكثافة بحيث يصعب العثور على بقعة بيضاء وسطها. قال الضابط: "اقرأ!"، أجابه الرحالة: "لا أستطيع" قال الضابط: "لكنه واضح" قال الرحالة: "إنه مصنوع بمهارة شديدة، لكنني غير قادر على فك رموزه" قال الضابط: "نعم"، ثم ابتسم ووضع اللوحات في جيبه، وأضاف: "إنه ليس درسًا في فن الكتابة لتلاميذ المدارس. إنه يحتاج إلى وقت لقراءته، وفي النهاية

ستتمكن بالتأكيد من فهمه. لا يجب أن يكون النص بسيطًا وواضحًا، فهو لا يؤدي إلى الموت الفوري، لكنه يستمر لمدة اثنتي عشرة ساعة تقريبًا. ويحدث تحول في الساعة السادسة طبقًا لما هو مخطط له. ويجب أن تكون حول النص مجموعة كبيرة من الزخارف، فالكلمات الحقيقية تطوق الجسم بحزام ضيق، أما باقي الجسم فهو مجرد زخارف. هل أصبحت قادرًا الآن على فهم قيمة عمل البوابة وباقي أجزاء الجهاز؟ - اسمع!"، صعد فوق السّلم، وأدار إحدى العجلات، وصاح من أعلى: "انتبه! تنحى جانبًا! "وبدأ كل شيء يعمل. ربما بدا المشهد جميلًا لولا صوت صرير العجلة. ظهرت على الضابط علامات الدهشة من صوت تلك العجلة المزعج، فرفع قبضة يده نحوها ليتوعدها، ثم مد ذراعه نحو الرحالة معتذرًا، ونزل على الفور حتى يتابع حركة الجهاز من فوق الأرض. شيء ما لم يكن يعمل بصورة جيدة، وهو ما لم يلاحظه أحد غيره، فارتقى السلم من جديد، ومد كلتا يديه إلى داخل الرسام، ثم انزلق إلى اسفل أسفل فوق أحد الأعمدة، ولم يستخدم السّلم حتى ينزل بسرعة أكبر. وصرخ بصوت عالٍ في أذن الرحالة حتى يفهم ما يقوله جيدًا وسط ذلك الضجيج: "هل فهمت خطوات تشغيل الجهاز؟ تبدأ البوابة في الكتابة، وبمجرد أن تنتهي أول جرة للنص على ظهر الرجل، تتحرك طبقة القطن، وتقلب الجسم على جانبه لتجد البوابة مكانًا تكتب عليه. ثم تضع المكان الدامي الذي حفرت عليه الكلمات فوق القطن الذي يوقف النزيف على الفور بفضل المعالجة الجيدة ، ويجهز ظهر الرجل لحفر أعمق للكلمات. تقوم تلك الأسنان

الموجودة على جانب البوابة بجذب قطع القطن من الجرح بعد أن يقلب الجسم مرة أخرى، وتلقي بها في الحفرة، ثم تواصل البوابة عملها.فتواصل الكتابة على عمق أكبر لمدة اثنتى عشرة ساعة. أثناء الساعات الست الأولى يكون المحكوم عليه فقد وعيه تمامًا، إلا أنه يظل يعاني من الألم. نزيل اللباد بعد مرور ساعتين لأن الرجل يفقد عندها قدرته على الصياح. نضع في هذا الوعاء الساخن الموجود عند الرأس عصيدة الأرز الساخنة التي يمكن أن يأكل منها الرجل إذا أراد بالقدر الذي يطوله لسانه. ولا يفوت أحد فرصة كهذه. لا أعرف أحدًا لم يفعلها من قبل، وأنا لدي خبرات كبيرة في هذا الأمر. وبعد مرور ست ساعات تقريبًا يفقد شهيته. عندها أجثو عادة على ركبتي لأرى هذه اللحظة النادرة. نادرًا ما يستطيع الرجل ابتلاع آخر ما في فمه، فيلوكها في فمه ويلفظها في الحفرة. وأضطر إلى أن أنتحي بعيدًا كي لا يبصقها في وجهي. وحوالي الساعة السادسة يصمت الرجل تمامًا! ويبدأ الشحوب ينتشر في جسمه. يبدأ في الظهور حول عينيه. ثم ينتشر منه إلى باقي جسمه. إنه استعراض يغري أي إنسان أن يستلقي تحت البوابة. بعد ذلك لا يحدث أي شيء سوى أن الرجل يبدأ في محاولة فهم مغزى الكلمات، ويعقد شفتيه وكأنه يسمعها. رأيت بنفسك أنه ليس سهلًا فهم مغزى الكلمات بمجرد النظر إليها. لكن المحكوم عليه يفهم مغزاها من خلال جراحه. هذا يتطلب بالطبع مجهودًا كبيرًا، وست ساعات من المحاولة. بعد ذلك تقوم البوابة بوخزه بالكامل، وتلقي به في الحفرة،

فيسقط فيها وسط الماء المخضب بالدم وقطع القطن. وبهذا تنتهي المحاكمة، فأقوم أنا والجندي بدفنه"

كان الرحالة يميل بأذنه على الضابط ويتابع طريقة عمل الجهاز وهو يضع يديه في جيوب معطفه. كان المحكوم عليه ينظر هو الآخر، لكنه لم يفهم شيئًا.انحنى قليلًا، وراح يتابع الإبر المرتعشة. قام الجندي بناءً على أوامر الضابط بشق قميص وسروال الجاني من ظهره بالسكين، فسقطا من على جسمه. أراد الجاني أن يمد يده إلى الملابس ليغطي بها جسمه، لكن الجندي رفعه إلى أعلى، ونفض عنه ما تبقى من ملابسه. أوقف الضابط الماكينة، ثم وضع المحكوم عليه في صمت تحت البوابة. خلعوا عنه السلاسل، ووضعوا الأحزمة مكانها. بدا من الوهلة الأولى أن الجاني شعر بالارتياح. ثم حركوا البوابة قليلًا لأن الرجل كان نحيفًا.انتفض الرجل بمجرد أن لمست الأسنان جسمه. كان الجندي ممسكًا بيد الجاني اليمنى، بينما رفع الرجل يده اليسرى وهو لايدري أين يضعها، فتحركت في الاتجاه الذي يقف فيه الرحالة. لم يتوقف الضابط عن متابعة الرحالة بطرف عينه وكأنه أراد أن يقرأ على وجهه تأثير عملية الإعدام التي حاول أن يشرحها له الآن.

انقطع الحزام المخصص للساعد، ويبدو أن الجندي قد بالغ وهو يوثقه. تحرك الضابط للمساعدة، وأشار الجندي إلى الجزء المقطوع. مر الضابط من خلفه إلى الجانب الآخر، وقال وهو ينظر إلى الرحالة: "إن

الجهاز معقد للغاية، وطبيعي أن ينقطع أو ينكسر به شيء ما من وقت لآخر. لكن هذا لا يجب أن يؤثر في الحكم النهائي عليه. فمن السهولة تبديل السير على الفور. أستخدم قطعة من السلسلة، غير أن نعومة الاهتزازات في اليد اليمنى تتأثر بها" أضاف وهو يوثق يد الرجل بالسلسلة: "إن قِطع صيانة الجهاز غير متوافرة بشكل كبير في الوقت الحالي. أيام القائد السابق كان عندنا ميزانية مفتوحة خصيصًا لهذا الغرض. وكان هنا مخزن ممتلئ بقطع الغيار المختلفة. أعترف أنني كنت أُسرف في استخدامها، أقصد من قبل وليس الآن. فالقائد الجديد يبحث عن أي ذريعة كي يلغي الإجراءات المعتادة. هو الآن يدير بنفسه الميزانية المخصصة للجهاز. وعندما أرسل في طلب طوق جديد يطلب الطوق المقطوع كدليل، ولا يأتي الطوق الجديد إلا بعد عشرة أيام، ويكون بجودة سيئة ولا قيمة له. ولا يهتم أحد بكيفية تشغيل الجهاز بدون طوق"

راح الرحالة يقول لنفسه: من الخطورة التدخل بصورة كبيرة في ظروف عمل غريبة عنه. فهو لم يكن يومًا مواطنًا من مواطني معسكر العقاب، ولا مواطنًا من مواطني الدولة التي يوجد بها معسكر العقاب. ولو أراد أن يعارض عملية الإعدام أو يحبطها سيقولون له: أنت غريب، لا تتكلم! ساعتها لن يجد ما يرد به، بل سيضيف أنه لا يفهم ما يفعله. فهو يسافر فقط من أجل أن يرى، وليس بالتأكيد بغرض تغيير الأحكام القضائية. لكن الموقف هناك يغريه كثيرًا. فمن المؤكد أن المحاكمة غير عادلة، وعملية الإعدام غير إنسانية. فلا يمكن أن يتهمه

أحد بالمحاباة. فالمحكوم عليه رجل غريب عنه، وليس من أبناء بلده، ولا يشعر تجاهه بأي نوع من التعاطف. كما أن الرحالة يحظى بدعم من الجهات العليا، لذلك استقبلوه بكل احترام. ودعوته لحضور عملية الإعدام هذه ربما تشير إلى أن عليه أن يقول رأيه في أحكام من هذا النوع. وهو في الغالب السبب الذي جعل القائد، كما سمع الآن بكل وضوح، ليس من أنصار مثل هذه الأجهزة، ويتعامل مع الضابط بشكل عدواني على ما يبدو.

وهنا سمع الرحالة الضابط وهو يصرخ بغضب. لقد وضع للتو عصا اللباد – بصعوبة – في فم المحكوم عليه، فارتبكت معدة الجاني ولم يتحكم فيها، فأغلق عينيه وتقيأ. أبعد الضابط رأسه عن عصا اللباد على الفور ورفعها، وأراد أن يوجهها نحو الحفرة، لكن بعد فوات الأوان. فتناثر القيء على مختلف أجزاء الجهاز. صرخ الضابط: "القائد هو السبب في كل هذا!"، وراح يلطم عصا نحاسية بكل غضب: "لقد صارت الماكينة مثل الزريبة". وراح يشير بيديه ليُنبّه الرحالة إلى ماحدث: "وكأنني لم أحاول أن أوضح للقائد بأن عليه ألا يقدم طعامًا للجاني في اليوم السابق لإعدامه. لكن الاتجاه المعتدل له رأيٌ آخر. نساء القائد يطعمن كل رجل الحلوى قبل أن يأتي إلى هنا. طوال حياته لا يأكل سوى الأسماك المتعفنة، والآن يجب أن يأكل الحلوى! أيا كان الأمر، أنا لا أعترض على هذا، لكن لماذا لم يحضروا عصا لباد جديدة، أطالب بها منذ ثلاثة أشهر؟ وكيف لا ينفر

أحدهم من وضع عصا لباد فى فمه، لعقها وقضمها من قبله أكثر من مائة رجل حكم عليهم بالإعدام؟"

أرخى المحكوم عليه رأسه، وبدا عليه الرضا، بينما انشغل الجندي بتنظيف الجهاز بقميص المحكوم عليه. توجه الضابط نحو الرحالة الذي ارتاب فيه، فتراجع خطوة للخلف. لكن الضابط أمسك بيده، وسحبه جانبًا، وقال: "أريد أن أتحدث معك في أمر خاص. هل تسمح لي؟" قال الرحالة: "بالتأكيد"، وراح يستمع إليه وهو مسدل العينين.

"هذا الجهاز وطريقة الإعدام تلك التي جاءتك الفرصة لتراها، لم يعد اليوم أحد في معسكرنا يرحب بها. أنا الوحيد الذي يتحمس لها، وأنا أيضًا الداعم الوحيد لميراث القائد السابق. لم يعد أحد يفكر في تطوير الجهاز على الإطلاق. أستهلك كل طاقتي في صيانة ما هو قائم. أيام القائد السابق كان هناك الكثير من المتحمسين للجهاز. وظللت أحمل في نفسي قناعات القائد السابق، لكن تنقصني السلطة التي كان يتمتع بها، لذلك توارى المؤيدون. إن عددهم كبير، لكن لا يعترف أحد منهم بذلك. لو ذهبت اليوم، يوم تنفيذ حكم الإعدام، إلى البوفيه واستمعت إلى ما يقولونه هناك، ربما تسمع تخبطًا في كلامهم. إنهم جميعاً من أنصار الجهاز، لكن تحت إدارة القائد الجديد وفي ضوء آرائه الحالية صار وجودهم بالنسبة لي مثل عدمه. والآن أسألك: هل ذهب سدىً هذا العمل الذي قضينا فيه حياتنا بسبب القائد الجديد ونسائه

اللائي لهن تأثير كبير عليه؟ "وأشار إلى الجهاز. "هل يمكن أن يحدث هذا؟ وخاصة أن عندنا هنا، في هذه الجزيرة، رجلًا غريبًا لمدة أيام قلائل؟ لا يجب أن نضيع الوقت، إن أحدهم يتعدى على سلطتي القانونية، وتُعقد في رئاسة المعسكر اجتماعات لا يدعونني إليها أحد. وأيضًا أعتبر أن زيارتك اليوم حاسمة في هذه المسألة. إنهم جبناء كي يرسلوك إلى هنا، أنت الرجل الغريب.كيف كانت تنفذ أحكام الإعدام من قبل! قبل الإعدام بيوم كان الوادي يمتلئ بالناس، يأتي الجميع فقط ليشاهدوا. ثم يظهر القائد في الصباح الباكر مع نسائه. أصوات النفير تملأ كل أرجاء المعسكر. ثم يصدر إعلان بأن كل شيء صار جاهزًا، فيجلس الحاضرون حول الجهاز – لم يكن مسموحًا أن يتغيب أيٌّ من كبار الموظفين – وتلك الكومة من مقاعد الخيزران ما هى إلا بقايا بائسة من تلك الفترة. كان الجهاز وقتها يشع من النظافة. وكنت أضع قطعًا جديدة تقريبًا عند كل حالة إعدام. كان القائد يضع بنفسه المحكوم عليه تحت البوابة أمام مئات الأعين. كان جميع المشاهدين يقفون على أطراف أصابعهم عند ذلك المرتفع. وما يمكن أن يفعله جندي عادي أقوم به بنفسي، أنا الذي كنت رئيس المحكمة، وكان هذا شرفًا لي. ثم تبدأ عملية الإعدام. لم يحدث أن ظهر صوت نشاز واحد في الجهاز. بعض الحاضرين وقتها لم ينظروا، بل استلقوا في الرمل وأغمضوا أعينهم. كان الجميع يعرفون أن العدالة تتحقق الآنَ. لم يكن يُسمع سوى صوت أنين المحكوم عليه الذي كتمه اللباد. اليوم أصبح الجهاز غير قادر على إجبار المحكوم عليه على إصدار زفرات قوية حتى

لا يخنقه اللباد. لكن في ذلك الوقت كان يتساقط من إبر الكتابة سائل حارق، ممنوع استخدامه اليوم. ثم تحين الساعة السادسة! لم يكن ممكنًا تلبية رغبات كل من أراد النظر عن قرب. فقد أمر القائد من باب الحيطة أن تكون الأولوية للأطفال. أما أنا فبحكم وظيفتي كان مسموحًا لي بالتواجد باستمرار. كنت غالبًا أجلس في المقدمة ممسكًا بطفلين في يدي. كان شكل التحول في وجه الجاني المكروب ينطبع على وجوهنا. كنا نعرض وجوهنا لضوء العدالة التي تحققت في النهاية! يا لها من أيام، يا صديقي"! يبدو أن الضابط نسى من يقف أمامه: احتضن الرحالة، ووضع رأسه على كتفه. ارتبك الرحالة، وأدار وجهه بتململ بعيدًا عن الضابط. انتهى الجندي من التنظيف، وصب من إحدى العلب عصيدة الأرز في الطبق. استرد المحكوم عليه وعيه، وما إن لاحظ العصيدة حتى بدأ يلعقها بلسانه. لكن الجندي كان يبعده عنها، فهى مخصصة لمرحلة لاحقة. لكن الشيء القبيح أن الجندي نفسه كان يضع يديه القذرة في العصيدة ويأكل منها أمام المحكوم عليه الجوعان.

انتبه الضابط بسرعة، وقال: "لم أكن أقصد أن أجعلك تشعر بالشفقة. أعرف أن تلك الأوقات لا يمكن أن تصفها لأحد اليوم. إلا أن الجهاز مازال يعمل، وإنجازاته هى التي تتكلم. إنجازاته تتكلم رغم أنه يقف وحيدًا هنا، في هذا الوادي. ودائمًا ما تستقر الجثة في الحفرة بنعومة لا تصدق، رغم اختفاء مئات البشر الذين تجمعوا يومًا ما هنا

مثل الذباب. وقتها كنت مجبرًا على تركيب سور ضخم حول الحفرة. لكننا أزلناه منذ زمن".

أراد الرحالة أن يتفادي نظرات الضابط، فالتفت حوله بدون هدف. كان الضابط يعتقد أنه يتطلع إلى الوادي الموحش، فأمسك بيده، واستدار حوله كي يلفت نظره إليه، ثم سأله: "أترى هذا العار؟"

لكن الرحالة لازم الصمت. تركه الضابط للحظات، ووقف ينظر إلى الأرض منفرج الساقين ووضع يديه حول خصره. ثم ابتسم إلى الرحالة ليشجعه، وقال: "كنت بالأمس قريبًا من القائد عندما دعاك. سمعت دعوته لك. أنا أعرف القائد. عرفت على الفور إلام يرمي بهذه الزيارة. رغم أنه لديه صلاحية كبيرة تمكنه من اتخاذ إجراءات ضدي، لكنه لم يتمكن من ذلك بعد. ويبدو أنه يريد أن يتخذ من رأيك دليلًا، رأي رجل أجنبي محترم. لقد حسبها جيدًا. أنت هنا في الجزيرة لليوم الثاني. لا تعرف القائد القديم ولا دائرة معارفه. وأنت متأثر بالآراء الأوروبية، وربما تكون من كبار المعارضين لعقوبة الإعدام، وبخاصة الإعدام على آلة كهذه. فضلًا عن أنك ستشاهد عملية إعدام عادية دون مشاركة العامة. تتم على جهاز به الكثير من العطب، ألا يمكن أن يحدث مثلًا -كما يعتقد القائد- أنك ستعتبر هذه الآله غير مناسبة؟ ولو اعتبرتها غير مناسبة، فبالتأكيد لن تصمت حيال هذا -أنا مازلت أتحدث من وجهة نظر القائد- فأنت تؤمن بآرائك التي بنيتها عن خبرة طويلة.

بالتأكيد فأنت تعرفت على الكثير من عادات الشعوب المختلفة، وتعرف كيف تعطيها قدرها. فلن تقول رأيك المعارض لهذه الآلة بدافع من العجلة كما تفعل مثلًا في بلدك. لكن حتى هذا لا يهم القائد. يكفيه كلمة واحدة بسيطة، فقط كلمة واحدة غير دقيقة. وليس بالضرورة أن تتفق مع قناعاتك. يكفي أن تتفق مع قناعاته هو. أنا متأكد من أنه سوف يسألك بكل دهاء. وستلتف نساؤه حولكما منصتات. ربما ستقول: إن نظام القضاء عندكم مختلف، أو تقول: إن المتهم عندنا يُستجوب قبل إصدار الحكم، أو تقول: توجد عندنا عقوبات أخرى غير عقوبة الإعدام، أو تقول: إن الإعدام كان موجودًا عندنا في العصور الوسطى. كلها ملاحظات سليمة، وتبدو لك بديهية. وهي ملاحظات بريئة لا تتعلق بالنظام المطبق عندي. لكن كيف سيتقبلها القائد؟ أكاد أراه، أرى قائدنا الطيب وهو ينحي مقعده جانبًا، وينصرف إلى الشرفة على الفور. أراه ونساءه يهرولن خلفه، أسمع صوته – النساء يسمينه صوتًا هادرًا

ثم يقول ""الباحث الغربي الكبير، الباحث المخول ببحث الأنظمة القضائية في كل بلاد العالم، قال للتو إن نظامنا القديم غير آدمي. وبناء على رأي هذا الرجل فلا يمكنني أن أتحمل وجود نظام كهذا. وأُعلِن اليومَ.. الخ. تريد أن تتدخل، فأنت لم تقل شيئًا مما أعلنه، لم تصف جهازي بأنه غير آدمي، بل على العكس، أنت على قناعة تامة بأنه أكثر الأجهزة إنسانية، وأكثر الأجهزة التي تحترم آدمية الإنسان، إنك معجب بهذه الآلة – لكن سيكون الوقت قد فات، ولن تصل إلى الشرفة التي صارت مليئة بالسيدات، ستسعى إلى أن تلفت الأنظار إليك، وستحاول

أن تصرخ، لكن يد إحدى السيدات ستغطي فمك - ونضيع أنا والجهاز الذي ابتكره القائد السابق"

اضطر الرحالة إلى كتمان الابتسامة. إن المهمة التي كان يعتبرها صعبة تبدو سهلة للغاية. قال بنوع من الإنكار: "أنت تبالغ في تأثيري. لقد قرأ القائد خطاب التوصية، ويعرف أني لست خبيرًا على الإطلاق في شؤون المحاكمات. لو كان لي أن أقول رأيي، فلن يكون سوى رأي من شخص عادي لا يختلف في شيء عن رأي أي رجل آخر، وبالتأكيد أقل أهمية بكثير من رأي القائد الذي لديه على حسب علمي صلاحيات واسعة في معسكر العقاب هذا. ولو كان له رأيي واضح في هذه الآلة كما تعتقد فأخشى أن تكون نهاية هذه الآله قد حانت دون أي تأثير مني"

هل فهم الضابط ما قلته؟ لا، لم يفهم بعد. هز رأسه بكل حماس، وألقى نظرة خاطفة على المحكوم عليه وعلى الجندي، وكانا يتشاجران، ونسيا الأرز. اقترب تمامًا من الرحالة، لم ينظر في وجهه، لكنه نظر إلى مكان ما على معطفه، وقال بصوت أهدأ من ذي قبل: "أنت لاتعرف القائد، علاقتك به وبنا جميعًا - أعذرني على هذا اللفظ - علاقة سطحية إلى حد ما. لا يمكن المبالغة في أهمية رأيك، صدقني. كنت سعيدًا جدًا عندما سمعت أنك ستشارك في عملية الإعدام. قرار القائد هذا سيؤثر فيّ. لكني سأوظفه لصالحي. لقد سمعت شرحي، ولم تقاطعك أثناء الشرح همسات غير لائقة، ولا أية نظرات ازدراء محتملة

لو شارك في المحاكمة مزيد من المشاهدين. لقد رأيت الجهاز بنفسك، وبعد لحظات ستشاهد عملية الإعدام. ومن المؤكد أنك كونت رأيًا محددًا. ولو أنه مازالت هناك بعض الأمور البسيطة الغامضة فسوف تتضح بعد مشاهدتك لعملية الإعدام. والآن ألتمس منك الآتي: ساعدني في مواجهة هذا القائد!".

قاطعه الرحالة، وقال: "لا يمكنني أن أفعل شيئًا كهذا."صاح "مستحيل. أنا بهذا أساعدك، لا أسبب لك أي ضرر

قال الضابط: "يمكنك أن تساعدني لاحظ الرحالة وهو خائف أن الضابط أحكم قبضته. كرر الضابط مرة أخرى بإلحاح: "يمكنك. عندي خطة بالتأكيد ستنجح. أنت تعتقد أن تأثيرك غير كافٍ. وأنا أعرف أنه كافٍ. لكن لِنَقُل أنك على حق، أليس من الضروري محاولة كل ما هو ممكن كي أحافظ على هذه الآلة؟ اسمع خطتي الآن! من أجل تنفيذها عليك أن تكون اليوم في المعسكر حريصًا في حكمك على هذا الجهاز قدر الإمكان. ولا تتحدث عنه من تلقاء نفسك مالم يسألك أحد عنه مباشرة. يجب أن تكون كلماتك مختصرة وغير واضحة. من الضروري أن يلاحظوا أنه من الصعب عليك الحديث في الأمر، وأنك غاضب، لأنك لو تحدثت بصراحة فلن تتوقف عن السباب. لا أريد منك أن تكذب، بالتأكيد لا أريد. فقط أجب باختصار، قل مثلًا: نعم، لقد رأيت عملية الإعدام، أو قل "نعم، لقد استمعت إلى الشرح الكامل" قل

فقط هذا، لا أكثر ولا أقل. هناك الكثير من أسباب الغضب الذي ستبديه لهم، حتى وإن لم يكن في السياق الذي ينتظره القائد. هو سيفهمه بالطبع على نحو خاطئ، وسيفسره بطريقته. وهذا هو جوهر خطتي. غدًا سيعقد اجتماع كبير لكل القادة الإداريين الكبار برئاسة قائد المعسكر. بالتأكيد تمكن القائد من نيل إعجابهم خلال مثل تلك الاجتماعات السابقة. فقد أقام معرضًا يمتلئ دائمًا بالزائرين. أنا مضطر إلى المشاركة في تلك الاجتماعات رغم القرف الذي أشعر به أثناءها. على أي حال، سوف يدعوك للحضور في كل الأحوال. ولو لم تكن لسبب غير معلوم مدعوًا يجب أن تطلب الدعوة، ولا شك بأنك سوف تتلقاها. فغدًا ستجلس مع نساء القائد في مسكنه. سينظر من وقت لآخر إلى أعلى ليتأكد من وجودك. وبعد مناقشة بنود الاجتماع المختلفة، وهى تافهة، وموجهة للعامة – وهى في الغالب تدور حول بناء مرفأ، دائمًا، دائمًا، دائمًا يناقشون بناء المرفأ! – سيأتي الحديث عن المحاكمات. ولو لم يعرض القائد الموضوع، أو إذالم يكن هناك متسع من الوقت سأتولى أنا الأمر لكي نناقشه. ثم أقوم وأُعطي تقريرًا عن حكم الإعدام الذي تم اليوم. بكل اختصار، ولن أقول شيئًا آخر سوى هذا التقرير. قراءة تقرير كهذا ليس أمراً معتادًا، لكني رغم ذلك سأقرأه.وسيشكرني القائد كالعادة بابتسامة لطيفة، ولن يتحمل، فسيستغل أول فرصة مناسبة، ويقول "لقد سمعنا تقريراً عن عملية الإعدام. "أو شيئًا من هذا القبيل، "وأحب أن أضيف إلى هذا التقرير أن باحثًا كبيرًا قد شهد هذه العملية، وتعرفون جميعًا أنه في زيارة عندنا،

وهو شرف كبير لكل المعسكر. وازدادت أهمية اجتماعنا بتشريفه لنا بالحضور.ماذا لو سألنا الباحث الكبير عن رأيه في تنفيذ حكم الإعدام طبقًا للتقاليد القديمة وفي المحاكمة التي تسبقه؟ "سيعلو التصفيق من كل اتجاه إعلانًا عن موافقة جماعية، سوف أكون أول المتحمسين. سينحني القائد أمامكم، ويقول: "إذن باسم الجميع أطلب منه...
وهنا تتقدم من الدرابزين، وتضع يدك عليه كي يراها الجميع، وإلا سيمسكها السيدات ويلعبن بأصابعك. – والآن يحين دورك لتتحدث، لا أعرف كيف ستتحمل تلك الساعات حتى تحين تلك اللحظة. لا يجب أن تسمح لأحد بأن يقاطعك وأنت تتكلم. دع الحقيقة تأخذ مجراها، انحنِ على الدرابزين وتحدث بصوتٍ عالٍ، نعم، عبر عن رأيك للقائد بصوت عالٍ، عن رأيك الحاسم. لكن ربما لا تريد أن تفعل هذا، فهو لا يناسب طبيعتك. ربما تتصرف في بلدك بطريقة مختلفة في مثل هذه المواقف. لكن لا عليك، هذا يكفي. لست مضطرًا لأن تقف، فقط قل بضع كلمات، قلها بصوت منخفض بحيث يكاد يسمعها الموظفون أمامك.هذا يكفي. لست مضطرًا لأن تتحدث عن الاستعدادات غير الكافية أثناء الإعدام، أو عن صرير العجلة، أو عن الحزام الذي انقطع، أو عن اللباد الكريه، لست مضطرًا لهذا. سأتولى أنا كل هذه الأمور. ثق بي! لو لم تجعله كلماتي ينصرف من القاعة فستجعله يسقط على ركبتيه، وسوف يضطر إلى القول: أيها القائد السابق! ها أنا أنحني أمامك!. – هذه هى خطتي. هل تريد أن تساعدني في تنفيذها؟ بالطبع ستساعدني، ليس أمامك خيار آخر أمسك الضابط الرحالة بكلتا يديه وهو يلتقط

أنفاسه بصعوبة، وراح يتطلع إلى وجهه. صرخ وهو ينطق الجملة الأخيرة، حتى إن الجندي والمحكوم عليه بدآ يلتفتان نحونا، رغم أنهما لم يفهما أي شيء. لكنهما توقفا عن تناول الطعام، وراحا ينظران إلى الرحالة وهما يلوكان الطعام في فمهما.

لم يكن الرحالة يشك منذ البداية فيما سيقوله. لقد مر في حياته بتجارب كثيرة لا تسمح له بأن يتردد. كان في الواقع رجلًا شريفًا، ولم يخف أحدًا. رغم ذلك ساوره التردد قليلًا وهو ينظر إلى الجندي وإلى المحكوم عليه. لكنه في النهاية قال ما عليه أن يقوله: "لا" طرف الضابط بعينيه عدة مرات وهو يحملق في الرحالة. سأله الرحالة: "أتريد تفسيرًا؟" هزّ الضابط رأسه دون أن يتكلم. قال الرحالة: "أنا ضد هذه الآلة. لقد فكرت في هذا الأمر حتى قبل أن تفتح لي قلبك – لكن هذه الثقة لن أستغلها تحت أي ظروف -، هذا إن كان لي الحق في الاعتراض على هذه الآلة، أو كان هناك أية فرصة لنجاح تدخلي في الأمر. كنت أعرف من يجب عليّ أن أخاطبه أولًا، إنه القائد بالطبع. وصار الأمر أكثر وضوحًا بعد كل ما قلته لي. لكن هذا لا يعني أن كلامك قد جعلني أصر على قراري، بالعكس، إن ما قلته أثر فيّ، ورغم ذلك لا يمكنه أن يغير من قراري".

واصل الضابط صمته، واتجه نحو الجهاز، وأمسك أحد الأعمدة النحاسية، ثم نظر إلى أعلى نحو الرسام بعد أن انحنى قليلًا. بدا وكأنه

يتأكد من أن كل شيء في موضعه. كان من الواضح أن الجندي والمحكوم عليه قد صارا أصدقاء. كان المحكوم عليه يعطي للجندي إشارةً ما. وعندما صار من الصعب عمل تلك الإشارة، حيث كان المحكوم عليه مثبت بالجهاز بصورة قوية، انحنى عليه الجندي، وهمس له المحكوم عليه بشيء في أذنه، فأومأ له الجندي.

تقدم الرحالة من الضابط، وقال له: "لم تعرف بعد ما الذي أنوي فعله. بالطبع سأخبر القائد برأيي في هذه الآلة، لكن هذا لن يكون أثناء الاجتماع. بل سيكون بيني وبينه. كما أنني لن أبقى لأشارك في أى اجتماع. فأنا سأرحل صباح غد، أو على الأقل سأصعد إلى السفينة في هذا الوقت"

يبدو أن الضابط لم يكن يستمع إليه، فقال محدثًا نفسه: "لم تقتنع إذن بالجهاز" ثم ابتسم وكأنه عجوز يبتسم لطفل أحمق، وهو يخبئ آراءه الحقيقية خلف تلك الابتسامة.

نطق أخيرًا، وقال: "لقد حان الوقت إذن"، ونظر فجأة إلى الرحالة بعينين بارقتين، تنمان عن استدعاء ما، عن دعوة للمشاركة.

سأله الرحالة بقلق: "ما هو الذي حان وقته؟" لكنه لم يتلق ردًا.

قال الضابط على طريقته للمحكوم عليه: "أنت حر الآن" لم يصدق الرجل في البداية ما سمعه. قال الضابط: "هل سمعت! أنت حرا" دبت حياة حقيقية لأول مرة في وجه الرجل. هل هذا معقول؟ هل مجرد نزوة من نزوات الضابط التي سرعان ما يتجاهلها؟ هل ساعده هذا الرحالة الأجنبي ليحصل على العفو؟ ماذا حدث؟ كلها تساؤلات ظهرت على وجه الرجل. لكنه لم يبق هكذا طويلًا. أيًا كان الأمر، فهو يريد الحرية طالما سمح بهذا. وبدأ يتزعزع من مكانه بالقدر الذي سمحت به البوابة.

صاح الضابط: "إنك تمزق أربطة الجهاز. نم واهدأ، وسوف نفك الأربطة عنك" ثم بدأ الجندي بإشارة من الضابط في مساعدته على النهوض. وراح المحكوم عليه يبتسم لنفسه بصمت، ودون أن ينبس بكلمة. ثم التفت مرة على يساره صوب الضابط، ومرة أخرى على يمينه نحو الجندي، ولم ينس أن ينظر نحو الرحالة.

أمر الضابط الجندي قائلًا: "أخرجه بعيدًا!" كانوا يتصرفون بحذر شديد بسبب البوابات. وتسبب المحكوم عليه لنفسه في بعض الخدوش السطحية على ظهره بسبب تسرعه.

منذ هذه اللحظة توقف الضابط عن الاهتمام بأمره. تقدم من الرحالة، وأخرج الأسطوانات الجلدية الصغيرة، وراح يعبث بها. وأخيرًا عثر على الورقة التي كان يبحث عنها، ثم عرضها على الرحالة، وقال:

"اقرأ" قال الرحالة: "لا يمكنني قراءتها. لقد أخبرتك من قبل أني لا أستطيع قراءة هذه الأوراق" قال الضابط: "فقط انظر جيدًا إلى هذه الورقة"، ثم تقدم بجوار الرحالة حتى يقرآ الورقة معًا. وعندما فشل أشار بإصبعه الأصغر إلى أعلى الورقة، وكأنه ممنوع أن يلمس الورقة على الإطلاق. أراد فقط أن يسهل على الرحالة قراءتها. حاول الرحالة هو الآخر كي يثبت للضابط حسن نيته، لكنه لم ينجح. وهنا بدأ الضابط في هجاء عنوان الوثيقة، ثم قرأها مرة أخرى باسترسال، وقال: "كن عادلًا! – هذا هو المكتوب هنا. الآن يمكنك أن تقرأها بنفسك" انحني الرحالة بقوة على الورقة حتى خاف الضابط أن يلمس الورقة فتراجع قليلًا. لم يقل الرحالة شيئًا، لكن كان واضحًا أنه غير قادر على قراءة الورقة. قال الضابط مرة أخرى: "كن عادلًا! – هذا هو المكتوب فيها. قال الرحالة: "ربما. أنا واثق أن هذا هو المكتوب في الورقة" قال الضابط: "حسنًا" صار على الأقل هادئًا إلى حدٍ ما، ثم صعد السلم وهو يمسك الورقة بيده. وضع الورقة بحرص شديد بجوار الرسام، وراح يرتب التروس في وضع جديد تمامًا كما يبدو. بذل في هذا مجهودًا كبيرًا. كان الأمر بالطبع يتعلق بعجلة صغيرة للغاية. اختفت رأس الضابط بالكامل وسط جزء الرسام. هكذا كان ينبغي فحص التروس بكل دقة.

لم يتوقف الرحالة عن متابعة ما يحدث من مكانه أسفل الجهاز حتى تصلب عنقه، وتألمت عيناه من ضوء الشمس الساطع في السماء. انشغل كل من الجندي والمحكوم عليه بنفسيهما. سحب الجندي قميص

المحكوم عليه وسرواله من داخل الحفرة بحربة البندقية.كان القميص شديد الاتساخ، فغسله المحكوم عليه في ماء الدلو. ضحك الجندي عندما ارتدى الرجل القميص والسروال، وشاركه المحكوم عليه الضحك بصوت عالٍ، فكلٌ من القميص والسروال كانا ممزقين من الخلف. يبدو أن المحكوم عليه كان يشعر أن عليه تسلية الجندي، فاستدار أمامه عدة مرات بملابسه الممزقة، بينما الجندي يضرب بقدميه على الأرض ويخبط على ركبتيه من شدة الضحك. لم يبالغا كثيرًا في الأمر بحكم موقعهما.

عندما انتهى الضابط مما يفعله فوق الجهاز، تفحص الآلة مرة أخرى بابتسامة، جزءًا بعد جزء. خبط غطاء الرسام الذي كان لا يزال مفتوحًا، ثم نزل من على السلم، ونظر إلى الحفرة، ثم إلى المحكوم عليه. ظهرت علامات الرضا على وجهه عندما وجد أن المحكوم عليه قد ارتدى ملابسه. ذهب لغسل يديه في ماء الدلو. لم يكتشف إلا متأخرًا أن الدلو ممتلئ بالقذارة. أحزنه أنه لا يستطيع أن يغسل يديه، فدسهما في النهاية في الرمل -إلا أن هذه الطريقة البديلة لم تكن كافية، لكنه كان مضطرًا إلى الاكتفاء بها. نهض بعدها وبدأ يفك أزرار معطف بذته الرسمية. ووقع في يده المنديلان اللذان كان يضعهما خلف ياقة المعطف. قال: "أمسك منديليك!"، وقذف بهما إلى المحكوم عليه. وقال للرحالة موضحًا: "إنهما هدية من نسائه"

خلع المعطف وباقي ملابسه بتعجل واضح، ورغم ذلك كان يتعامل مع كل قطعة من الملابس بعناية كبيرة، وخاصة الحبل الفضي. مرر عليها أصابعه، وهزهز الشُّرابة كي تستقيم. وهكذا راح يرتب الملابس بكل هذا الحرص. وكلما انتهى من طي قطعة يلقي بها إلى الحفرة غاضبًا. وفي النهاية لم يتبق سوى سيف صغير في حزام مُعّلق. أخرج السيف من غمده، وكسره، ثم قذف كل شيء - قِطع السيف، والغمد، والحزام - بقوة في الحفرة. فتلاطمت الأجزاء ببعضها في القاع.

وقف عاريًا تمامًا. راح الرحالة يعض على شفتيه دون أن ينبس بكلمة. لم يكن من حقه أن يمنع الضابط مما سيفعله رغم أنه كان يعرف ما سيحدث. إن المحاكمة التي كان الضابط يصر عليها كانت على وشك أن تُلغَى - ربما بتدخل من الرحالة، وهو ما اعتبره واجبًا عليه، وها هو الضابط قد تصرف بطريقة سليمة تمامًا. ولو كان الرحالة مكانه لما فعل غير ذلك.

لم يفهم الجندي ولا المحكوم عليه ما يحدث، ولم ينظرا من البداية إليه. كان المحكوم عليه سعيدًا بعدما حصل على المنديلين مرة أخرى. لكنه لم يهنأ بهما طويلًا، فقد خطفهما منه الجندي بحركة سريعة ومباغتة. وراح المحكوم عليه يحاول أن ينتزع منه المنديلين المخبأين تحت الحزام، لكنه لم يفلح. فراحا يتشاجران مازحين. انتبها عندما صار الضابط عاريًا تمامًا، وخاصة المحكوم عليه الذي بدت عليه

علامات ترقب لحدوث تحول كبير. فما حدث معه يحدث الآن للضابط.وربما سيستمر إلى أن يبلغ نهايته القصوى. غالبًا ما حدث هذا بناءً على أمرٍ من الرحالة الغريب كنوع من القصاص. ورغم أنه لم يعش المعاناة حتى آخرها، لكنه سيرى القصاص حتى نهايته. ظهرت على ملامحه الابتسامة، وتجمدت على وجهه لاتفارقه.

توجه الضابط نحو الآلة. ورغم أن معرفته بالآلة كانت واضحة منذ البداية، إلا أن الأمر الآن مدهش وهو يتعامل معها، وهى تستجيب له. فما إن اقترب بيده من البوابة حتى بدأت تصعد وتهبط حتى اتخذت مكانها الصحيح لتستقبله. وبلمسة خفيفة لحافة السرير بدأ يهتز، ودخل ذراع اللباد إلى فمه مباشرة. كان واضحًا أن الضابط يأنف منه، لكن تردده لم يستمر سوى لحظات قليلة، ثم استسلم ووضعه في فمه. كان كل شيء جاهزًا إلا الأربطة، ظلت مدلاة على الجوانب. لكن يبدو أنها لم تكن ضرورية. فلم يكن ضروريًا ربط الضابط بها. لاحظ المحكوم عليه أن الأحزمة مُحرّرة، فاعتبر أن عملية الإعدام لن تكون كاملة بدون تلك الأحزمة، فأشار بيديه على الجندي بحماس، وهرولا ليربطا الضابط فوق السرير. كان الضابط قد مد قدمه ليدفع الذراع الذي يحرك الرسام. وهنا رأى الرجلين يقفان بجواره، فأنزل قدمه، وتركهما يشدان الأحزمة حوله. بعدها بالطبع لم يتمكن من الوصول إلى ذراع التشغيل. ولا يمكن أن يعثر عليه لا الجندي ولا المحكوم عليه. وكذلك قرر الرحالة ألا يبرح مكانه. لم يكن هذا ضروريًا. وبمجرد أن

أوثقاه بالأحزمة بدأت الآلة في العمل، راح السرير يهتز، والإبر تتراقص فوق جسمه، والبوابة تصعد وتهبط. تسمرت عينا الرحالة في البداية على ما يحدث، إلى أن تذكر أن عجلة ما في الرسام يجب أن تصدر صريرًا.لكن كل شيءٍ دار بهدوء، لم يسمع أي خشخشة ولو ضعيفة.

لم يلق أحد بالًا للآلة التي كانت تعمل بهدوء شديد. نظر الرحالة إلى الجانب الآخر حيث يقف الجندي والمحكوم عليه.كان المحكوم عليه يبدو مفعمًا بالحيوية.كان مهتمًا بكل أجزاء الآلة، فتارةً يحني قامته، وتارة يفردها، ويشير بإصبعه لينبه الجندي لشيء ما. شعر الرحالة بالضيق. قرر أن يبقى عند الجهاز حتى النهاية. لكنه لم يكن يتحمل النظر إلى هذين الرجلين، فصاح: "انصرفا من هنا!" كان الجندي يرغب في الانصراف، لكن المحكوم عليه اعتبر أمر الانصراف بمثابة عقاب له. فعقد يديه وراح يتوسل إليه أن يبقى، ثم سقط على ركبتيه عندما هزّ الرحالة رأسه ورفض السماح له بالبقاء. رأى الرحالة أنه لا طائل من الاكتفاء بأمرهما بالرحيل، فأراد أن يذهب إلى الجانب الآخر ويطرد الرجلين. وهنا سمع صوت جلبة قادم من الرسام في أعلى الجهاز. رفع رأسه. هل علق أحد التروس؟ لكن مصدر الجلبة كان شيئًا آخر. رفع ببطء غطاء الرسام حتى كشفه عن آخره. ظهرت أسنان التروس وارتفعت، ثم ظهرت عجلة التروس كلها، وكأن قوة كبيرة قد ضغطت على الرسام، فلم تترك مكانًا تسقط فيه عجلة التروس، فتدلت على جانب الرسام وسقطت على الأرض وهى تهتز وسط الرمال، ثم

استقرت عليها. تبعتها عجلة تروس كبيرة، وأخرى صغيرة لا تكاد تُرَى، وحدث معهما ما حدث مع العجلة الأولى. كان واضحًا أن الرسام قد صار الآن فارغًا تمامًا، وهنا ظهرت مجموعة جديدة وكبيرة من التروس، سقطت على الأرض وهى تدور وسط الرمال إلى أن استقرت عليها. نسي المحكوم عليه تمامًا ما أمر به الرحالة بعد أن شهد ما يدور هنا. كان مشغولًا بعجلات التروس، ويحاول في كل مرة أن يلمس إحداها، ويطلب من الجندي أن يساعده. لكنه سرعان ما يسحب يده خائفًا كلما سقطت عجلة تروس أخرى، أثارت في نفسه الرعب في الوهلة الأولى وهى تتدحرج نحوه.

كان الرحالة راضيًا تمامًا وهو يرى ما يحدث. يبدو أن الماكينة تتهاوى، والهدوء الذي أظهرته في البداية كان مجرد وهم.انتابه شعور بأن عليه أن يرى ما يحدث للضابط الذي لم يعد قادرًا على الاهتمام بنفسه. لكن كل تركيزه كان منصبًا على عجلات التروس التي تتساقط، فانشغل بها عن متابعة ما يحدث في باقي أجزاء الآلة. سقطت من الرسام آخر عجلة تروس، ومال الرسام ناحية البوابة، ثم حدثت مفاجأة جديدة أسوأ من التي سبقتها. توقفت البوابة عن الكتابة، وراحت فقط توخز في جسده. لم يستدر السرير، بل أخذ يرتفع ناحية الإبر وهو يهتز. أراد الرحالة أن يتدخل ويُوقف كل هذا قدر الإمكان. فليس هذا هو الإعدام الذي أراده الضابط، فلم يكن سوى عملية قتل صريحة. بسط الرحالة ذراعيه. لكن البوابة ارتفعت وهى تحمل الجسد

العالق في الإبر، ومالت إلى أحد جوانب الجهاز، وهو ما كان يحدث من قبل ولكن بعد مرور اثنتي عشرة ساعة.انبثق الدم من مئات الفتحات دون أن يكون مختلطًا بالماء. فقد حدث عطب في أنابيب الماء من قبل، وها هو يحدث هذه المرة أيضًا.انفصل الجسم عن الإبر الطويلة يلفظ الدم من داخله، لكنه بقى عالقًا فوق الحفرة ولم يسقط فيها. أوشكت البوابة على العودة إلى وضعها الطبيعي، لكنها وكأنما شعرت بأنها لم تتخلص من العبء الذي تحمله على كاهلها، فتسمرت فوق الحفرة. صرخ الرحالة في الجندي والمحكوم عليه: "ساعداني!"، وأمسك الضابط من قدمه، وأراد أن يستند عليها. وكان على الرجلين في الناحية الأخرى الإمساك برأس الضابط وفصلها عن الإبر بحرص. لكنهما لم يجرؤا على التقدم، وتراجع المحكوم عليه تمامًا. اضطر الرحالة إلى التوجه إلى الناحية الأخرى حيث يقفا ويجبرهما على الإمساك برأس الضابط. وقع بصره عن غير قصد على وجه الضابط. بدا وكأنه على قيد الحياة، خاليًا من أي علامة على الخلاص الذي كان يطلبه. ولم يعثر الضابط في الماكينة على ما عثر عليه كلٌّ من مات قبله في الماكينة: كانت شفتاه مغلقتين بإحكام، وعيناه جاحظتين، وبهما آثار الحياة. كانت نظرته هادئة وواثقة، وعلى جبينه ثقوب من رؤوس الإبر الحديدية.

عندما وصل الرحالة يتبع الجندي والمحكوم عليه إلى أول بيت من بيوت المعسكر أشار الجندي إلى أحد الأبواب، وقال: "هذا هو البوفيه".

كانت توجد غرفة عميقة ذات سقف منخفض في الطابق الأرضي للبيت، تشبه كهفًا بحوائط وسقف التصق عليها غبار الدخان. كانت الغرفة تطل على الشارع بمدخل عريض. لم يكن البوفيه يختلف كثيرًا عن باقي مباني المعسكر – باستثناء مباني القيادة الفخمة – المتهدمة، رغم ذلك شعر الرحالة وكأنها آثار تاريخية، فراوده شعور بقوة الأيام المنصرمة.اقترب من المقهى يتابعه الرجلان، ودار بين الطاولات الخاوية في الشارع أمام البوفيه، واستنشق هواءً باردًا، كريه الرائحة قادمًا من الداخل. قال الجندي: "إن القائد القديم مدفون هنا. لم يسمح الكاهن بدفنه في المقابر. وظلّوا لوقت طويل لا يعرفون أين سيدفنونه، إلى أن قرروا دفنه هنا. بالتأكيد لم يخبرك الضابط بشيءٍ كهذا، لأنه كان من أكثر الأمور التي يخجل من ذكرها. حاول عدة مرات أثناء الليل أن يفتح القبر ليأخذ جثة القائد السابق، لكن أمره كان يُفتضح في كل مرة" سأل الرحالة وهو متشكك في مقولة الجندي: "أين هذا القبر؟" وعلى الفور تقدمه كل من الجندي والمحكوم عليه وهما يمدان أيديهما ليشيرا إلى مكان القبر. قادا الرحالة حتى الحائط الخلفي حيث يجلس بضعة ضيوف حول الطاولات.كانوا على ما يبدو عمالًا في الميناء، رجالًا أقوياء بلحى سوداء قصيرة ولامعة. لم يكن أحدٌ منهم يرتدى معطفًا، يلبسون قمصانًا بالية، إنهم أناس فقراء ومقهورون. نهض بعضهم واقفًا عندما تقدم منهم الرحالة، والتصقوا بالحائط ينظرون إليه. سمعهم الرحالة يهمسون من حوله، ويقولون: "إنه الرجل الغريب، يريد أن يرى القبر حركوا إحدى الطاولات، فظهرت من تحتها بالفعل

بلاطة القبر.كانت لوحة حجرية بسيطة رفيعة، كادت تختفي أسفل الطاولة. وجد عليها نقشًا من أحرف صغيرة للغاية.اضطر الرحالة إلى أن يسقط على ركبتيه حتى يتمكن من قراءتها. وجد نصًا يقول: "هنا يرقد القائد السابق.حفر هذا القبر أتباعه الذين لا يجب أن تذكر أسماؤهم، ووضعوا عليه شاهد القبر.بعد بضع سنوات سيُبعث القائد من جديد وسيقود أتباعه من هذا المنزل كي يغزوا المعكسر. آمنوا وترقبوا هذه النبوءة!".وما إن قرأ الرحالة النص وهم واقفًا حتى وجد الرجال يقفون حوله ويبتسمون، وكأنهم كانوا يقرأون النص معه، فوجدوه نصًا سخيفًا، ويستحثونه على أن يشاركهم الرأي. تظاهر الرحالة أنه لم يلاحظ ما على وجوههم، ووزع عليهم بضعة قروش معدنية.انتظر بضع لحظات حتى أعدوا الطاولة فوق القبر، ثم خرج من المقهى وتوجه نحو المرفأ. التقى الجندي والمحكوم عليه مع من يعرفونهم في المقهى، فانشغلا بهم. لكنهما سرعان ما تركوهم عندما صار الرحالة في منتصف الدرج العالي الذي يؤدي إلى القارب، وأسرعا خلفه. ربما أرادا أن يجبرا الرحالة على أن يأخذهما معه في اللحظة الأخيرة. وبينما كان الرحالة يتحدث مع المراكبي كي يحمله إلى السفينة كان الرجلان يهرولان فوق الدرج صامتين، عاجزين عن الصياح. وما إن وصلا إلى أسفل الدرج كان الرحالة قد استقل القارب، وانصرف به المراكبي بعيدًا عن الشاطيء. كان في إمكانهم أن يقفزا في المركب، لولا أن الرحالة رفع حبلًا ثقيلًا مليئًا بالعقد من القاع، وحذرهما ، فحال دون أن يقفزا إلى القارب.

بلومفيلد العانس[1]



[1] جاءت هذه القصة في مخطوطات كافكا بدون عنوان. جاءت في طبعة ماكس برود تحت عنوان "بلومفيلد، العجوز العانس بدأ كافكا كتابة القصة في 1915/2/8 لكن النص الكامل للقصة ظهر تقريبا في شهر مارس من نفس العام.

صعد بلومفيلد الأعزب ذات ليلة إلى شقته. كان صعوده إليها أمرًا شاقًا، فهو يعيش فى الطابق السادس. كان كعادته فى الآونة الأخيرة وهو يرقى درجات السلم يفكر كثيرًا في وحدته القاتلة المقيتة، وفي درجات الطوابق السّت التي عليه أن يرقاها خِلسة حتى يصل الى غرفته الخاوية. هناك يرتدي ملابس الفراش أيضًا خِلسة، ويشعل غليونه، ثم يقرأ قليلًا فى مجلة فرنسية اشترك بها منذ سنوات. يرتشف براندي محلي الصنع، ثم يذهب للنوم بعد نصف ساعة، بعد أن يعيد ترتيب أغطية الفراش. فخادمته التي لا أمل في إصلاحها ترتب الغرفة في كل مرة على طريقتها الخاصة. كان بلومفيلد على استعداد أن يرحب بأى رفيق، أى شاهد على ما يقوم به. فكّر جديًا في أن يقتنى كلباً صغيراً. فهذه الحيونات تتمتع بالمرح، وحافظة للجميل، ووفية. كان لدى أحد من زملاء بلومفيلد كلب. كان لا يتبع أحداً غير سيده. كان عندما يغيب عن ناظريه لبضع دقائق يُحييه بنباح عالٍ، ليبرهن على سعادته بأنه وجد سيده، وولي نعمته. لكن الحقيقة أن الكلب لا يخلو من العيوب. حتى لو قمت على نظافته قدر استطاعتك، فمن المؤكد أنه سينشر الفوضى في الغرفة، وهذا أمر لا مفر منه. فلا يمكن للمرء أن يعطيه حماماً ساخناً فى كل مرة قبل أن يسمح له بدخول الغرفة، كما أن حالته الصحية لا تسمح له بذلك. لكن لا يمكن لـبلومفيلد أن يتحمل القذارة فى غرفته، فنظافة الغرفة شيء أساسي له، وتدفعه إلى الشجار مع خادمته عدة مرات فى الأسبوع الواحد، فهى للأسف لا تهتم بهذا الأمر كما ينبغي، مما يجعله يسحبها من ذراعها ليريها الأماكن التي يجب أن

تنظفها كما يريد. هذا الانضباط الصارم حقق له فى غرفته نظافة تتناسب إلى حد ما مع رغباته. لو أنه أحضر كلبًا إلى الشقة فسوف يتسبب طوعًا في نشر القذارة في غرفته، وهو أمر يرفضه بكل قوة. سوف تظهر البراغيث، رفقاء الكلب. ولو ظهرت البراغيث سيتخلى بلومفيلد على الفور عن غرفته المريحة للكلب، وسيبحث عن غرفة أخرى. فالقذارة هى عيب الكلاب الوحيد. كما أنها غالبًا ما تصاب بأمراض لا يعرفها أحد. عندها ينزوي هذا الحيوان فى إحدى الزوايا، أو يترنح فى أرجاء المنزل، ويسعل، ويعاني من ألم ما. عليه عندها أن يضعه فى البطانية، ويصفُر له بفمه ببعض الموسيقى، أو يقدم له حليبًا. ببساطة سيهتم به، على أمل أن تكون وعكة صحية طارئة. فى حين أنه قد يكون مرضاً خطيراً ومقرفاً، ومعديًا. ولو تمتع الكلب بحالة صحية جيدة، يوم يومًا ما سيصبح مسناً. لن يطاوعه قلبه في تلك اللحظة على التخلص من حيوانه المخلص. ثم تأتى اللحظة التي يطل فيها تقدم العمر من عين رشحة لكلب مُسِنّ. يجد نفسه أمام كلب شبه أعمى، وضعيف، وغير قادر على الحركة من كثرة الدهون. سيدفع ثمنًا باهظاً مقابل ما أعطاه له الكلب من سعادة. بقدر ما كان بلومفيلد يرغب فى الحصول على كلب فى تلك اللحظة، إلا أنه فضل أن يصعد السّلم بمفردة لثلاثين عاماً أخرى على أن تكون حياته مثقلة بكلب مُسِنّ، يسير بجواره وهو يجر قدميه فوق درجات السلم، ويتنهد بصوت أعلى من صوت بلومفيلد نفسه.

لذلك سيظل بلومفيلد وحيداً. فليس لديه تطلعات عذراء عجوز، تسعى إلى مرافقة كائن حي لتفرض عليه سيطرتها، وتقوم على رعايته كل يوم، وتوفر له الحماية وقد تعامله برفق - ربما تفى بهذا الغرض قطة ما، أو عصفور كناري، أو ربما سمكة ذهبية - وحتى لو لم تتمكن من هذا فستكفيها بعض الزهور عند النافذة. لكن بلومفيلد كان يريد رفيقاً، حيواناً لا يحتاج إلى الكثير من الرعاية، ولا تضره رفصة هنا أو هناك، ويمكنه في أسوأ الأحوال أن يقضي ليلته في الشارع. يريد بلومفيلد رفيقًا يكون تحت تصرفه فوراً وقتما يحب، بنباحه وقفزاته ولعقه لليدين. هذا هو ما أراده بلومفيلد تحديدًا. لكنه منذ أن أدرك أن هذا لن يحدث بدون عيوب خطيرة، توقف عن التفكير في الأمر. لكن نظرًا لطبيعته المتيقظة ظلت تلك الأفكار تراوده من وقت لآخر، تمامًا كما حدث في ذلك المساء.

فاجأه صوت قادم من الداخل وهو يُخرج المفتاح من جيبه أمام الغرفة، صوت خشخشة غريبة، صوت واضح تمامًا، لا يتوقف. فمنذ أن فكر بلومفيلد تواً فى الكلب، ذَكّرَه ما سمعه بوقع أقدام حيوان فوق أرض الغرفة، ولكن أقدام الحيوانات لا تصدر صوت خشخشة، فلا يمكن أن تكون أقدام حيوان. فتح الباب على عجل، وأضاء النور. فاندهش لما رأى. كانت مفاجأة كبيرة! رأى كرتين بيضاوين صغيرتين من المطاط بخطوط زرقاء تقفزان إلى الأعلى وإلى أسفل جنبًا إلى جنب على أرضية الغرفة الخشبية، وما إن تلمس واحدة منهما الأرضية تكون

الأخرى فى السماء، ظلا هكذا بدون توقف. حدث ذات مرة، فى أحد أيام المدرسة، أن رأى بلومفيلد كرات كهذه تقفز فى إحدى التجارب الكهربائية المعروفة، ولكن هذه الكرات بالمقارنة كبيرة نسبياً، وتقفز بحرية فى الغرفة دون أي تجربة كهربائية. تقدم بلومفيلد منهما ليتفحصهما عن قرب، إنهما بلا شك كرتان عاديتان، ربما توجد في داخلهما كرات أخرى أصغر حجمًا، وهذا ما يصنع صوت الخشخشة. مد بلومفيلد يديه في الهواء ليرى إن كانت هاتان الكرتان تتدليان من خيوط – لم يكن الأمر كذلك، إنهما تتحركان من تلقاء نفسيهما. لم يكن بلومفيلد المسكين طفلًا صغيراً كي يسعد برؤية هاتين الكرتين. انتابه على العكس شعور مزعج. كم هى حياة عديمة القيمة أن يعيش فى الخفاء كأعزب مُهمل، والآن شخص ما، لا يهم من يكون، اكتشف هذا السر، وأرسل له هاتين الكرتين الغريبتين.

حاول أن يمسك بواحدة منهما، ولكنها تراجعت أمامه، فاستدرجته ليتابعها فى أرجاء الغرفة، إنه أمر سخيف حقًا أن يجرى هكذا خلف الكرة. توقف عن الجري وهو ينظر إليهما. استقرتا في مكانهما بلا حراك بمجرد أن توقف عن ملاحقتهما. قال لنفسه: سوف أحاول الإمساك بهما معًا، ثم تقدم نحوهما، فهربا بسرعة. مد بلومفيلد قدميه المنفرجتين، وأجبرهما على أن يظلا فى زاوية الغرفة. وأمسك بإحداهما بجوار حقيبة السفر الموجودة في ركن الغرفة. أنها إنها كرة صغيرة باردة، تقلبت فى يده وكأنها تريد أن تنزلق منها. شعرت الكرة الأخرى بأن رفيقتها في خطر، فصارت تقفز

بقوة أكبر من ذي قبل. أسرعت من قفزاتها حتى وصلت إلى يد بلومفيلد، فضربته في يده، وزادت من ضرباتها بقفزات أسرع، ثم غيرت أماكن الهجوم. قفزت إلى أعلى بعد أن عجزت عن فعل أي شيء في مواجهة اليد التى احتضنت الكرة تماماً. ربما أرادت أن تصل إلى وجه بلومفيلد. استطاع بلومفيلد أن يمسك بتلك الكرة أيضاً. أراد أن يحبسهما في مكان ما. لكنه رأى أن هذا الإجراء الذي اتخذه ضد هاتين الكرتين الصغيرتين غير لائق. فمن الجميل أن يكون لديه كرتان مثلهما، وسرعان ما سيصيبهما الإرهاق، وعندها سيدسهما أسفل حافظة الملابس وينتهي الأمر. مع ذلك تملك بلومفيلد الغضب، فألقى بالكرة على الأرض. الغريب في الأمر أن كرة مطاطية رقيقة وشفافة تقريبًا كهذه لم تنكسر. استأنفت الكرتان بدون تردد قفزاتهما المتناغمة على ارتفاع منخفض، تمامًا كما فعلتا من قبل.

خلع بلومفيلد ملابسه بهدوء. رتبها في دولاب كان يتفقده دائماً ليتأكد من أن الخادمة وضعت كل شيء في مكانه الصحيح. التفت من وراء كتفيه مرة بعد مرة ناحية الكرتين اللتين بدأتا تقتربان منه وهما تتبعانه، وبدأتا تثبان خلفه مباشرة. ارتدى بلومفيلد رداء النوم، وذهب إلى ناحية الحائط المقابل ليجلب غليوناً من الغلايين الموجودة فوق الرف. قبل أن يستدير بجسده ضرب بساقه للخلف بشكل عفوي. لكن الكرتين تمكنتا من التنحى وتفاديا الضربة. تتبعته الكرتان على الفور عندما ذهب ليحضر غليونه. كان يمشى متثاقلًا، مرتديًا خفه، ويسير

بخطوات مضطربة. كل خطوة منه ترافقها خطوة من الكرتين اللتين تتابعانه. استدار بلومفيلد فجأة ليري كيف استطاعت الكرتان أن تفعلا ما فعلتاه. لكن بمجرد أن استدار رأى الكرتين تشكلان نصف دائرة، وتقفان خلفه. وكانتا تكرران هذا فى كل مرة يلتفت فيها إلى الخلف، مثل صحبة تابعة تتجنب الظهور أمام بلومفيلد. كانت محاولاتهما هذه تنم على أنهما يسعيان إلى أن يقدما نفسيهما إليه على أنهما صارتا منذ الآن في خدمته.

كان بلومفيلد معتادًا في المواقف الطارئة التي لا يستطيع فيها السيطرة على الموقف، تبني وسيلة مساعدة، وهى أن يتظاهر وكأنه لا يرى شيئًا. كانت هذه الطريقة تنجح فى كثير من الأحيان، أو على الأقل تجعل الوضع أفضل. وهو يتصرف الآن بنفس الطريقة، يقف أمام رف الغلايين، ويختار واحدًا منها وهو عاقد شفتيه، ويدس التبغ في فتحة الغليون التي يمسكها بين أصابعه، ويسمح للكرتين بأن تستمرا فى القفز خلفه وكأنه أمر طبيعي. لكنه تردد فى أن يذهب إلى الطاولة، حيث إن سماع صوت قفزات الكرتين مع وقع قدميه يجعله يشعر بشيء من الألم. لذلك وقف هناك، وبالغ في الوقوف ليملأ غليونه ويقدر المسافة التى تفصله عن الطاولة. أخيراً تغلب على تردده وقطع المسافة وهو يضرب بقدميه على الأرض فلم يسمع صوت قفزات الكرتين، ولكنه بالطبع عندما جلس بدأت أصواتهما خلف المقعد تعلو كما كانت.

كان يوجد أعلى الطاولة رف فى متناول يده، مُثبت على الحائط، وعليه زجاجة من البراندي، حولها مجموعة من الأكواب الصغيرة، وبجانبها كومة من نسخ عديدة من إحدى المجلات الفرنسية. اليوم وصل إليه العدد الأخير، فمد يده ليأخذه، ونسي البراندي تمامًا، كان لديه شعور بأن عليه أن يمضى قدماً فى أنشطته المعتادة لتعزية نفسه، لم يشعر بأى رغبة حقيقية فى القراءة، وعلى العكس من عادته بأن يقلب الصفحات، واحدة تلو الأخرى، فتح المجلة بشكل عشوائى، فرأى صورة كبيرة، أجبرته على أن يتفحصها بروية. يظهر في الصورة اجتماع بين قيصر روسيا والرئيس الفرنسي، كان الاجتماع فوق إحدى السفن. يحيط بهما بها عن بعد العديد من السفن الأخرى. الدخان المنبعث من مداخنها يتلاشي فى السماء الصافية، كلاهما، الرئيس والقيصر، يتجه نحو الآخر بخطوات واسعة، ويمد يده للآخر. يقف خلف القيصر والرئيس رجلان. مقارنة بالنظرة السعيدة التي ارتسمت على وجهي الرئيس والقيصر، كانت وجوه المرافقين لهما صارمة، ونظرات كل مجموعة مصوبة على سيدها. أسفل الصورة قليلًا - ويبدو أن المشهد يجري فوق سطح واحدة من أكبر السفن - اصطفت طوابير طويلة من البحارة المرحبين بالرجلين وغير مكتملة بنهاية طرف الصورة السفلي.

بدأ بلومفيلد يتأمل الصورة باهتمام متزايد، ثم أبعدها قليلًا، وراح يحدق فيها النظر. كان دائمًا يتمتع برغبة في النظر إلى تلك المشاهد التي تتسم بالفخامة. كان يعتبر طريقة تصافح الزعماء أمرًا طبيعيًا

للغاية، وحقيقيًا تماماً، وغير مُتكلف، ونابعًا من القلب، فوجد كل شيء نابض بالحياة. يحرص منظمو اللقاء والوفود المرافقة- وهى بالطبع مكونة من رجال ذوي مكانة رفيعة ودونت أسماؤهم أسفل الصورة - على إظهار أهمية اللحظة التاريخية من خلال وقفتهم.

بدلا من أن يأخذ ما يحتاجه من على الرف، جلس في هدوء، يحدق فى وعاء غليونه الذي مازال مشتعلًا. كان مستلقياً ينتظر. فجأة تخلى عن لامبالاته، وانتفض، ثم استدار من على الكرسي. انتبهت الكرتان كما هو مُتوقّع، أو بحكم القانون الذي يتحكم فيهما. غيرتا من مكانهما فى اللحظة التى استدار فيها بلومفيلد. واختبأتا خلف ظهره. جلس بلومفيلد والطاولة من خلفه، والغليون البارد فى يده. بدأت الكرتان تقفزان أسفل الطاولة. امتصت السجادة التي تقفزان عليها وقع ضرباتهما. أسعده أنه لم يسمع إلا أصواتهما المكتومة. لكي يسمعهما عليه أن ينصت جيدًا. كان بلومفيلد شديد الحرص، مما جعله يسمعهما بوضوح على الأقل حتى الآن. فبعد لحظات لن يعيرهما اهتمامه. كان بلومفيلد يرى أن نقطة الضعف الكبيرة لهاتين الكرتين هى أنهما لا تلفتان إليهما الكثير من الانتباه. يكفيه أن يضع من تحتهما سجادة أخرى أو ربما سجادتين فتصبحان عاجزتين تقريبًا. ربما فقط لفترة قصيرة. فمجرد وجودهما يعني أن لديهما قوة ما.

ربما كان وجود كلب لديه مفيد في لحظة كهذه. حيوان صغير ولطيف في استطاعته أن ينهي أمر هاتين الكرتين على الفور. تخيل الكلب وهو يطاردهما، ويقبض عليهما بأقدامه، ويطردهما من أماكنهما، أو يطاردهما في كل أرجاء الغرفة حتى تقعا بين أسنانه. يبدو أن بلومفيلد سيتدبر كلبًا في أقرب فرصة متاحة.

كانت الكرتان في حالة خوف من بلومفيلد، لكن لم يكن لديه أدنى رغبة في أن يدمرهما. ربما تنقصه فقط العزيمة ليفعل ذلك. عاد مساءً من العمل مرهقًا. وبدلًا من أن يأخذ حقه في الراحة وجد هذه المفاجأة في انتظاره. زاد هذا من شعوره بالإجهاد. من المؤكد أنه سيدمر هاتين الكرتين في أقرب وقت. لكنه لن يفعلها الآن. ربما غدًا. إذا نظرنا إلى هذا كله بشكل محايد سنجد أن هاتين الكرتين تتعاملان بكل تواضع. في إمكانهما أن تقفزان إلى الأمام من وقت لآخر لتعلنا عن نفسيهما، ثم تعودان إلى مكانهما مرة أخرى، يمكنهما أن تقفزا إلى أعلى، وتضربا على الطاولة، ثم تكافئان نفسيهما بالاستقرار على السجادة. لكنهما لم تفعلا ذلك. لم ترغبا في استفزاز بلومفيلد بلا طائل، واقتصرتا فقط على الحركات الضرورية.

مثل هذه الحركات الضرورية كانت كافية لأن تجعله ينصرف عن الجلوس عند الطاولة. لم يجلس هناك سوى بضع دقائق، ثم بدأ يفكر في الذهاب للنوم. من بين الأسباب التي دعته للجلوس هو أنه لا يمكنه

أن يدخن هناك لأنه ترك علبة الكبريت على المنضدة بجوار السرير، وعليه أن يذهب لإحضارها. وطالما سيذهب إلى هناك ربما يكون من الأفضل أن يظل هناك، ويستلقي على السرير. راودته فكرة على هامش أفكاره هذه. فكر في أن الكرتين في هوسهما الأعمى بملاحقته سيقفزان فوق السرير عندما يذهب إلى هناك، وسيمسك بهما رغمًا عنه وهو نائم. رفض فكرة مثلًا أن يقوم ما سيتبقى من الكرتين بالقفز. فهناك حدود حتى للأشياء الغريبة. صحيح أن الكرتين الكاملتين تقفزان بصورة غير متكررة، لكن بقايا الكرتين لن تستطيع القفز على الإطلاق، ولن تفعلانها تفعلاها هنا.

صاح: "قم!" ابتهج من هذه الأفكار، وانصرف نحو السرير تلاحقه الكرتان. حدث ما توقعه. عندما تقدم بالقرب من السرير قفزت إحداهما فوق السرير. ثم حدث شيء مفاجئ. انصرفت الكرة الثانية إلى أسفل السرير. لم يفكر بلومفيلد أن الكرتين يمكنهما أن تثبان تثبا حتى أسفل السرير. غضب من تلك الكرة لأنه شعر بأن ما فعلته ليس عدلًا، فالكرة التي تثب أسفل السرير تؤدي عملها على نحو أفضل من تلك التي فوق السرير. سينتظر الآن ليرى أين ستستقر كل منهما. كان بلومفيلد يشك في أنهما سيظلان هكذا منفصلتين طويلًا. وبالفعل، بعد لحظات قفزت الكرة من على الأرض، واستقرت فوق السرير. قال بلومفيلد لنفسه: وقعتما في قبضتي! غمرته السعادة. خلع رداء النوم حتى يدلف إلى السرير. وهنا قفزت الكرة مرة أخرى إلى أسفل السرير.

أصيب بإحباط كبير، وكاد يصاب باليأس. يبدو أن الكرة ألقت نظرة على الوضع فوق السرير، فلم يُعجبها. تبعتها الكرة الأخرى، وبالطبع ستبقى معها هناك، لأن الوضع أسفل السرير أفضل. قال بلومفيلد لنفسه: "ستظلان تنقران طوال الليل!"، ثم ضم شفتيه وهز رأسه.

كان حزينًا، فهو لا يمكن أن يتنبأ بما قد تفعله الكرتان أثناء الليل. إنه يغرق في النوم، وسوف يتحمل ذلك الضجيج الخفيف. من أجل مزيد من الاطمئنان قام بوضع سجادتين أسفلهما، كما تعلم من خبراته السابقة. بدا الأمر وكأن لديه كلب صغير، أراد أن يجعله ينام في فراش ناعم. تضاعفت قفزات الكرتين ضعيفة وبطيئة، وكأنهما أصيبتا بالإرهاق، وغلبهما النعاس. نزل بلومفيلد على ركبتيه بجوار السرير، وأشعل بطاريته، ووجهها تحته. رأى الكرتين ساكنتين فوق السجاد، تتمايلان بهدوء، وتتكوران قليلًا ببطء. ثم ترتفعان من جديد كالعادة لتواصلا مهمتهما. ربما عندما يتفحصهما بلومفيلد تحت السرير في الصباح الباكر قد يجد الكرتين ترقدان في هدوء وبراءة كالأطفال. لكن يبدو أنهما لن تتحملا الوثب حتى الصباح. فعندما استلقى بلومفيلد في السرير لم يسمع أي صوت. كان يسترق السمع، ويميل من فوق السرير ليستمع، لكنه لم يسمع شيئًا. لا يمكن أن يكون تأثير السجاد بهذه القوة. التفسير الوحيد أن الكرتين توقفتا عن الحركة. أو أن السجاد الناعم يعوقهما عن الارتداد بدرجة كافية، لذلك توقفتا عن الوثب، أو أنهما، وهذا هو الغالب، لن تعودا للقفز مرة ثانية. كان يمكنه أن ينهض وينظر ليتأكد من الأمر، لكنه

ارتضى بالهدوء الذي عَمّ أخيرًا. ففضل أن يظل مستلقيًا في سريره. لم يرغب حتى في أن تقع عيناه على الكرتين الهادئتين. أيضًا فقد رغبته في التدخين. وانقلب على جنبه، ونام على الفور.

تمنى ألا يزعجه شيء. نام يومها وهو في شدة الإرهاق. لكن القلق الشديد لم يفارقه. فزع من نومه أكثر من مرة وهو يعتقد أن شخصًا ما يطرق بابه. إنه يعرف جيدًا أن أحدًا لن يأتي. من سيأتي في الليل، ويدق باب رجل عانس وحيد! ورغم أنه يعرف كل هذا جيدًا، كان يثب من فوق السرير، ينظر في ترقب إلى الباب، ثم يفتح فمه عن آخره، وعيناه جاحظتان ، وأطراف شعره ترتجف فوق جبينه الرطب. حاول أن يحصى عدد المرات التي استيقظ فيها أثناء نومه، لكن النعاس غلبه وسط ذهوله من كثرة المرات التي استيقظ فيها. خمّن المكان الذي يأتي منه صوت الطَّرقات. إنها ليست طرقات على الباب، لكنها صادرة من مكان آخر. كان عاجزًا عن التثبت من الأمر وهو ناعس. كل ما يعرفه أن خبطات كثيرة وخفيفة ظهرت في البداية، ثم سرعان ما تحولت إلى طرقات قوية وكبيرة. كان على استعداد أن يتحمل إزعاج تلك الخبطات الخفيفة، لكنه لم يتحمل الطرقات. لم يتمكن من فعل أي شيء، وكان دائمًا متأخرًا لسبب ما. لقد تأخر، وعجز لسانه عن الكلام. فمه مفتوح كانفراجة من يتثاءب. دس وجهه بغضب في الوسائد. هكذا قضى ليلته.

أيقظته في الصباح طرقات الخادمة. تلقى تلك الطرقات بزفرة ارتياح. كان دائمًا يشكو من ضعف خبطاتها على الباب، وما يتلوها من كلمة "ادخل! "عندما يسمعها أكثر حيوية. صحيح أنها خبطات ضعيفة، لكنها تنم عن إصرار. الكرتان مازالتا تحت السرير. هل استيقظتا، واستجمعتا قواهما على خلاف ما حدث معه؟ أجاب بلومفيلد الخادمة، وقال: "حالًا!". نهض مسرعًا من فوق السرير مع بعض الحذر كي يبقى الكرتين خلف ظهره. تقدم وهو يدير لهما ظهره. أدار رأسه، ونظر خلفه فوق الأرض ليرى الكرتين – كاد يسب ويلعن. أزاحت الكرتان السجادة بعيدًا أسفل السرير مثل أطفال نزعت عن نفسها الغطاء في الليل وهى تصدر تشنجات خفيفة تصنعها طوال الليل. ثم تحركت إلى أن أصبحت فوق أرضية الغرفة الخشبية العارية، وبدأتا تصدران ضجيجهما. قال بلومفيلد بوجه عابس: "ارجعا إلى أسفل السجادة!" دعا الخادمة للدخول بعدما هدأ صوت الكرتين أسفل السجادة. تقدمت الخادمة السمينة، الغبية بخطوات متثاقلة. وضعت طعام الإفطار على الطاولة، ثم قامت ببعض الأعمال الضرورية. وقف بلومفيلد ساكنًا لا يتحرك، مرتديًا معطف النوم. لا يبرح مكانه عند السرير كي يمنع الكرات من الحركة، ويتابع الخادمة بنظراته ليرى إن كانت قد لاحظت شيئًا ما. لكن نظرًا لطرَشها لم يكن هذا الأمر واردًا. خُيّل إليه أنه يرى الخادمة وقد توقفت هنا وهناك، وتمسك بقطعة أثاث، ثم ترفع حاجبيها، وتسترق السمع. لكنه أرجع هذا إلى أنه لم ينل قدرًا كافيًا من النوم. ربما كان من الأفضل لو أنه

أجبر الخادمة على أن تسرع من وتيرة عملها قليلًا. لكنها كانت أكثر بطئًا من أي مرة سابقة. كانت تجمع ملابس بلومفيلد وأحذيته بين يديها بضجر، ثم خرجت إلى الدهليز. بقيت هناك طويلًا. وصلت إلى مسامعه خبطات رتيبة يعرفها قادمة من الدهليز وهي ترتب الملابس. اضطر بلومفيلد طوال تلك المدة إلى أن يقف في مكانه بجوار السرير، لا يبرحه طالما أراد ألا تسير خلفه هاتان الكرتان. اضطر إلى أن يترك القهوة التي يحبها ساخنة حتى صارت باردة. لم يكن في استطاعته شيء آخر سوى النظر إلى الستارة المسدلة، والضباب الذي ينقشع من خلفها في ضوء النهار. أخيرًا أنهت الخادمة عملها، فتمنت له صباحًا سعيدًا وهمت بالانصراف. وقبل أن تختفي بعيدًا توقفت عند الباب، ثم حركت شفتيها قليلًا وألقت نظرة طويلة على بلومفيلد. أراد بلومفيلد أن يستحثها على أن تتكلم، لكنها غادرت الشقة أخيرًا. كان بلومفيلد يود أن يسعى خلفها، ويصرخ فيها موبخًا. يا لها من امرأة عجوز غبية.

لكن عندما فكّر في الأمر، ليبحث عما فعلته لينزعج منها إلى هذه الدرجةلم يجد إلا سببًا تافهًا، وهو أنها لم تلاحظ شيئًا على الإطلاق. أرادت رغم ذلك أن تعطي انطباعًا بأنها ترتاب في شيء ما. ياله من تشويش في أفكاره! كل هذا من ليلة وحيدة لم يحظَ فيها بالنوم الكافي! تفسير صغير يوضح له أرقه في تلك الليلة، وهو أنه مساء أمس انحرف عن عاداته، فلم يدخن ولم يشرب الكحول. ما توصل إليه هو الآتي: أنا أُصاب بالأرق كلما توقفت عن شرب الكحول!

سيهتم من اليوم فصاعدًا بصحته أكثر من قبل. سيأخذ من علبة الدواء المنزلية الموجودة فوق طاولة صغيرة بجوار السرير قطعة قطن طبي، وسيصنع كرتين من القطن ليضعهما في أذنيه. ثم ينهض، ويقوم بخطوة على سبيل التجربة. صحيح أن الكرتين كانتا تلاحقانه، لكنه لم يسمع شيئًا تقريبًا. قطعة أخرى من القطن ولن يسمعهما على الإطلاق. قام بلومفيلد ببضعة خطوات أخرى. قام بها دون أية مشاكل على الإطلاق. صار كل منهما معزولًا عن الآخر. بلومفيلد والكرتين. الكرتان مرتبطتان ببعضهما، ورغم ذلك لا تزعج إحداهما الأخرى. عندما استدار بلومفيلد بسرعة، ولم تستطع إحداهما القيام بحركة سريعة مماثلة، اصطدمت ببلومفيلد عند ركبته. كانت هذه الحادثة الوحيدة. تناول بلومفيلد قهوته في هدوء. بعدها شعر بالجوع. بدا وكأنه لم يذق طعم النوم في تلك الليلة تقريبًا، وكأنه عائد من رحلة طويلة. اغتسل بماء بارد منعش، ثم ارتدى ملابسه. لم يسحب الستائر، وفضل أن يبقى في الفراش من باب الاحتياط. فهو لا يريد أن يرى إحدى الكرتين. لكن عندما هم بمغادرة الشقة كان عليه أن يهتم بالكرتين كي لا يتابعانه في الشارع أيضًا، وهو أمر غير معقول. جاءته فكرة جيدة، ففتح خزانة الملابس الكبيرة، ووقف أمامها بظهره. وكأن الكرتين تنبأتا بما يخطط بلومفيلد له، فانتبهتا حتى لا تدخلا إلى الخزانة، وراحت تستفيد من الفراغ بين الخزانة وبين بلومفيلد. ولو اضطرتا فسوف تقفزان إلى داخل الخزانة، ثم تهربان على الفور من الظلام الدامس في داخلها. فلا يمكن الخروج إلا من جانب الخزانة. ومخالفة للنظام الذي

تلتزمان به تقفان بجانب بلومفيلد. لكن حيلهما الصغيرة لم تساعدهما في أكثر من ذلك. فقد تراجع بلومفيلد إلى داخل الخزانة، واضطرا إلى ملاحقته هناك بالطبع. هكذا انتهى أمرهما. ففي قاع الخزانة توجد أشياء مختلفة صغيرة، مثل الأحذية، والصناديق، والحقائب الصغيرة، وهى مرتبة بطريقة جيدة – وهو ما أسف له بلومفيلد – لكنها تعوق الكرتين بصورة كبيرة. فتح بلومفيلد باب الخزانة قليلًا، ثم غادر الخزانة بقفزات واسعة لم يفعلها منذ أعوام طويلة. وصفع باب الخزانة من خلفه، ثم أغلقه بالمفتاح. هكذا صارت الكرتان محبوستين. قال لنفسه "لقد نجحت!" جفف عرقه من على وجهه. صدر ضجيج مرتفع من داخل الخزانة! أعطى هذا المشهد انطباعًا بأن اليأس قد حل بهما. لكن بلومفيلد كان سعيدًا. ترك الغرفة. وبدا له الدهليز الخالي واحة جميلة. نزع قطع القطن من أذنه. أثار الضجيج العالي الذي انتشر في أرجاء البيت الحماس في نفسه. لم يكن في الشارع إلا بعض المشاة في هذا الوقت المبكر من الصباح.

وقف صبي يبلغ من العمر عشر سنوات أسفل البيت في الدهليز أمام باب قصير يؤدي إلى شقة الخادمة بالدور الأرضي. يشبه أمه كثيرًا. لا يحمل وجهه الطفولي أي علامة من علامات تقدم العمر الكريهة. يقف مُقوّس الساقين، يضع يديه في جيبيه، ويلهث. فهو يعاني من التهاب في الغدة الدرقية ويتنفس بصعوبة. في أوقات أخرى كان بلومفيلد يُسرع الخطى عندما كان يقابل الصبي في طريقه حتى لا

يضطر إلى رؤية هذا المشهد. أما اليوم فلديه الرغبة في أن يذهب نحوه. ورغم أن هذا الصبي قد جاء إلى العالم لأم كهذه، ويحمل كل السمات التي تشير إلى أصله، إلا أنه مازال طفلًا، يحمل في رأسه الصغيرة هذه أفكار الأطفال. ولو خاطبه أحدهم بلغة مفهومة وسأله عن أي شيء فغالبًا سيجيبه بكلمات بريئة وبكل الاحترام. عندها قد يجهد الإنسان نفسه، ويمد يده على وجهه ليلاطفه. هكذا راح يفكر بلومفيلد وهو يشق طريقه. اكتشف بعد أن صار في عرض الشارع أن الجو صحوًا أكثر مما يبدو خلف النافذة. انقشعت شبورة الصباح، وكشفت عن بقع زرقاء في سماء غسلتها رياح قوية. كان عليه أن يشكر الكرتين على أنه خرج من الشقة قبل موعده المعتاد. نسى الجرائد التي لم يقرأها على الطاولة. في كل الأحوال أصبح لديه المزيد من الوقت كي يمشي متمهلًا. أمر جميل أن تتقلص همومه منذ أن انفصل عن تلك الكرات. عندما كانتا تلاحقانه بدا الأمر كأنهما جزء منه، لا ينفصل عنه، وعند الحكم على شخصه ستكونان جزءًا من هذا الحكم. لكنهما صارتا الآن مجرد لعبة في البيت، في خزانة الملابس. ورغم هذا رأى بلومفيلد أنه قد يبطل عمل هاتين الكرتين بصورة أفضل لو أنه أعادهما إلى مهمتهما الأصلية. كان الصبي مازال يقف في الدهليز. قد يعطيهما بلومفيلد له كهدية أو يعيرهما إياه. لو أهداهما له فسيكون هذا بمثابة أمر بتدميرهما. ستكون قيمتهما في يدي الصبي أقل من قيمتهما وهما في الخزانة، حتى ولو حافظ عليهما. سيرى كل سكان البيت الصبي وهو يلعب بهما. سينضم إليه أطفال آخرين. ستتحول الكرتان في النهاية وإلى الأبد إلى

مجرد كرات للهو، وستتوقفان عن كونهما رفقاء بلومفيلد. عاد بلومفيلد إلى البيت مرة أخرى. نزل الصبي على الدرج المؤدي إلى القبو، وهمّ بفتح الباب. نادى بلومفيلد على الصبي، ونطق اسمه الذي يدعو إلى السخرية مثل كل شيء يخص ذلك الصبي، وقال له: "يا ألفريد، يا ألفريد!" تردد الصبي طويلًا. أضاف بلومفيلد: "تعال! سأعطيك شيئًا!" خرجت من الباب المقابل اثنتان من أولاد الخادمة، ووقفتا على يمين وعلى يسار بلومفيلد تتابعانه بفضول. فهمتا الأمر بسرعة أكبر من ذلك الصبي، وتعجبتا من أنه لم يذهب معه على الفور. أومأتا لبلومفيلد وهما تراقبانه، وتتطلعان بشغف إلى الهدية التي تنتظر ألفريد. كاد الفضول يقتلهما، تقفزان من قدم إلى قدم. ابتسم لهما بلومفيلد وللصبي أيضًا. أخيرًا انتبه الصبي للأمر، وبدأ يصعد السلم ببلادة وبخطوات ثقيلة. لم يلقِ بالا إلى أمه التي ظهرت خلفه أسفل الدرج عند باب القبو. رفع بلومفيلد صوته كي تسمعه الخادمة، وتنصاع إلى أوامره عند الضرورة. قال بلومفيلد: "إنهما عندي هناك، في الغرفة. كرتان جميلتان. أتريدهما؟" قبض الفتى على شفتيه، ولم يعرف ماذا يفعل. استدار نحو أمه أسفل الدرج، ونظر إليها متسائلًا. التفّت الطفلتان حول بلومفيلد على الفور، تقفزان من حوله، وتناشدانه بأن يعطيهما الكرتين. قال بلومفيلد لهما وهو ينتظر ردًا من الصبي: "أنتما أيضًا يمكنكما اللعب بهما" كان يمكن أن يعطي الكرتين للفتاتين في الحال. لكنه رأى أن هذا قد يكون تصرفًا غير مسؤول، وأن ثقته بالصبي قد زادت الآن. تشاور الصبي مع أمه دون أن ينطق بكلمة

واحدة، ثم أومأ بالموافقة على طلب بلومفيلد المتزايد. قال بلومفيلد الذي تغاضى بكل سرور عن أنه لن يلقى عرفانًا منه مقابل هذه الهدية: "احترس إذن. مفتاح غرفتي مع والدتك. يجب أن تأخذه منها، وأنا سأعطيك مفتاح الخزانة، وهناك ستجد الكرتين. بعد أن تأخذهما، أغلق الخزانة وباب الغرفة جيدًا!. يمكن أن تفعل بالكرتين ما تشاء. ولست مضطرًا إلى أن تعيدهما لي. هل فهمت؟" لكن الصبي للأسف لم يفهم. أراد بلومفيلد أن يشرح لهذا الصبي الأبله كل شيء بوضوح. لذلك كرر عليه ما قاله عدة مرات. كرر له الحديث عن المفاتيح، وعن الغرفة، وعن الخزانة. رغم ذلك ظل الصبي يحدق فيه، وكأنه ليس رجلًا يعطيه هدية، بل رجل يُغرّر به. بالطبع فهمت الفتاتان الأمر. وراحتا تعبثان في المفاتيح بأيديهما. قال بلومفيلد وهو مضطربًا: "انتظروا!" كان الوقت يمر بسرعة، وعليه أن يتصرف بسرعة. كان يُفضل أن تدرك الخادمة الأمر، وتجيبه بأنهما فهمتا ما قاله، وأنها ستتولي الأمر بطريقة سليمة بدلا من الصبي. بدلًا من هذا لم تبرح مكانها بجوار الباب أسفل الدرج، وراحت تبتسم بخجل، وكأنها لم تسمع ما قاله. ربما تعتقد أن بلومفيلد تحمس لابنها فجأة، ويطلب منه أن يعلمه جدول الضرب. لكن بلومفيلد لا يمكنه أن ينزل على الدرج، ويذهب إليها، ويصرخ في أذنها ليسألها الرحمة بأن تخلصه من هاتين الكرتين. جاهد نفسه كثيرًا كي يأتمن هذه الأسرة على مفتاح الخزانة يومًا كاملًا. أعطى الصبي المفتاح، بدلًا من أن يأخذه إلى أعلى ويعطيه له هناك. لم يقصد بهذا أن يوفر على نفسه العناء. لكن لا يمكنه أن يعطي الصبي الكرتين ثم يأخذهما منه

مرة أخرى – وهو أمر وارد بالتأكيد – عندما تتبعانه وكأنهما حاشيته. راح بلومفيلد يشرح الأمر للصبي من جديد، ثم سأله بجزع: "أمازلت لا تفهم ما أقوله؟" لكن تعبيرات وجه الطفل الخاوية استوقفته وهو ينظر إليه وجهًا لوجه. مثل هذه التعبيرات الجوفاء تصيب الإنسان بالشلل: من شأنها أن تجعل الإنسان يقول أكثر مما ينبغي، فقط لكي يملأ هذا الفراغ بالاستيعاب.

قالت الفتاتان: "نحن سنحضر له الكرتين". إنهما فتاتان ذكيتان. عرفتا أنهما سيحصلان على الكرتين من خلال ذلك الصبي، وأن عليهما تدبر هذه الوساطة. دقت الساعة في غرفة الخادمة، ودعت بلومفيلد إلى الهرولة. قال بلومفيلد: "خذا إذن المفتاح" فالتقطتا المفتاح من يده قبل أن يعطيه لهما. إنه كان سيعطي المفتاح للصبي وهو أكثر ثقة. قال بلومفيلد: "خذا مفتاح الغرفة من السيدة في القبو. ويجب أن تعيدا لها المفتاح بعد أن تحضرا الكرتين" صاحت الفتاتان: "نعم، نعم"، ثم نزلتا على الفور فوق الدرج. كانتا تعرفان كل شيء، كل شيء، وصار بلومفيلد وكأنه أصيب بعدوى البلادة من ذلك الصبي، فلم يفهم كيف استطاعت الفتاتان أن تفهما كل ما قاله بهذه السرعة.

راحت كلاهما تجذبان الخادمة من تنورتها أسفل الدرج. كان مشهدًا يثير الفضول، لكن بلومفيلد لم يكن قادرًا على مواصلة النظر إليهما وهما تنفذان المهمة. ليس فقط لأنه قد تأخر عن موعده، بل لأنه لم يرغب في أن

يكون متواجدًا وهما تحرران الكرتين. أراد أن يكون بعيدًا عن الحدث، تفصله عنه بضعة شوارع، حتى تفتح الفتاتان باب غرفته. فهو لا يمكن أن يتكهن بما ستفعله الكرتان. خرج للمرة الثانية إلى الشارع. ألقى نظرة خاطفة عليهم، ليرى أمهم وهى تحاول أن تمنعهما، بينما تقدم الفتى بقدميه المقوستين ليساعد أمه. لم يفهم بلومفيلد السبب الذي يجعل أسرة مثل أسرة الخادمة هذه سعيدة، وتتكاثر أيضًا.

بدأت أفكار تتعلق بالعمل تسيطر على بلومفيلد وهو في طريقه إلى مصنع الملابس الذي يعمل به. أسرع من خطواته. كان أول من وصل إلى المكتب رغم تأخره بسبب ذلك الصبي. كان المكان عبارة عن غرفة محاطة بالزجاج. بها طاولة واحدة يجلس عليها بلومفيلد، ومكتبان صغيران مخصصان لمرؤسيه المتدربين. المكتبان صغيران وضيقان للغاية وكأنهما مخصصان لأطفال المدارس. كانت الغرفة ضيقة لدرجة لا تسمح للمتدربين بالجلوس. ولو جلسوا لما تبقى مكانًا لمقعد بلومفيلد. لذلك كانوا يقفون طوال اليوم محشورين خلف طاولاتهم. من المؤكد أن ظروف عمل كهذه لا تعجبهم. كذلك كان يصعب على بلومفيلد مراقبتهم. صحيح أنهم كانوا منكفئين بحماس فوق الطاولة لوقت طويل، لكن ليس بسبب العمل، بل كانوا يتهامسون وأحيانًا يغطون في النوم. لم يكن بلومفيلد راضٍ عنهم، لم يكونوا عونًا له، ويمكنه الاعتماد عليهم في عمل شاق يقع على عاتقه. كان مسؤلًا عن تشغيل وتمويل عاملات حياكة، تقمن بإعداد منتجات معينة ودقيقة

لصالح المصنع. كان من الضروري متابعة كل شيء عن قرب من أجل التحكم في حجم الأعمال. منذ أن مات رئيس بلومفيلد المباشر منذ عدة سنوات لم يعد أحد يجيد العمل مثله. لذلك لم يسمح بلومفيلد لأي شخص أن يعطي لنفسه الحق في تقييمه. على سبيل المثال، كان السيد أوتومار مدير المصنع يُحقّر بشكل ملحوظ من العمل الذي يؤديه بلومفيلد. هو بالطبع يعترف بدوره على مدة عشرين عامًا، وما فعله للمصنع. لم يكن احترامه لهذا الدور نابعًا من التزام عليه، بل كان بالفعل يعتبر بلومفيلد رجلًا أمينًا، ومحل ثقة. رغم ذلك كان يحُطّ من قدره في كل ما يقوم به. كان يعتقد أن العمل يمكن إنجازه على نحو أكثر بساطة، وبطريقة أكثر فعالية من الطريقة التي يتبعها بلومفيلد. هناك اعتقاد لا يستطيع إلا أن يصدقه، وهو أن السيد أوتومار لا يظهر كثيرًا في القسم الذي يعمل فيه بلومفيلد كي يوفر على نفسه الغضب الذي ينتابه وهو يرى طريقته في العمل. لم يكن بلومفيلد سعيدًا بمثل هذا الجحود، لكنه أُسقِط في يده. فلم يكن في مقدوره إجبار أوتومار على أن يبقى مثلًا لمدة شهر كامل في القسم الذي يعمل به بلومفيلد. يجرب طُرقًا مختلفة للعمل تناسب ما يقومون به في القسم، ويستخدم أنظمته المزعومة والتي يعتبرها جيدة، حتى يتأكد مما تأكد منه بلومفيلد بأن الطرق الجديدة ستجعل الأمور تسوء في القسم، وهو أمر لا جدال فيه. لذلك كان بلومفيلد يواصل عمله كالمعتاد. أحيانًا يتملكه الخوف عندما يظهر أوتومار في القسم بعد غياب طويل. فيقوم، بحكم التزامه تجاه رئيسه، بمحاولة كسولة بشرح عمل حائكة هنا أو هناك للسيد أوتومار

الذي يومئ له ببلادة وبعينين مسدلتين، ثم يواصل السير. لم يكن مشغولًا بمثل هذا الإنكار أكثر من تفكيره في أنه يومًا ما سيكون عليه ترك هذا العمل، وما سيتبع ذلك من فوضى كبيرة لن تنتهي. لم يكن بلومفيلد يثق في أن أحدًا في كل المصنع يمكنه أن يحل محله، ويؤدي المهام بنفس الطريقة التي حالت دون حدوث المشاكل الكبيرة على الأقل في الشركة على مدى أشهر طويلة. وطالما قلل رئيس العمل من قيمة موظف عنده فيجب على الأقل أن يتفوق عليه في شيء ما. لذلك كانوا جميعهم يقللون من قيمة عمل بلومفيلد. لم يؤمن أحدهم يومًا بضرورة أن يعمل لوقت ما في القسم التابع لبلومفيلد. عندما كانوا يُوظفون أشخاصًا جددًا، لم يفكر أحدهم في أن يعمل عنده طوعًا. لذلك كان القسم المسؤول عنه بلومفيلد في حاجة إلى دم جديد. مرت أسابيع من الحروب الكبيرة، يطالب فيها بتعيين مُتدرّب واحد جديد. عندما أخذ بلومفيلد على عاتقه كل أعمال القسم، لم يكن يساعده فيها سوى موظف واحد. كان يتردد يوميًا على مكتب أوتومار. يشرح له بهدوء وبإسهاب أسباب الحاجة الملحة لمثل هذا المتدرب الجديد في قسمه. لم تنبع هذه الحاجة من رغبته في أن يستريح من العمل. لم يكن هذا ما يعنيه. إنه يعمل فوق طاقته، ولا يفكر في أن يتوقف عن هذا. كان يريد أن يدرك السيد أوتومار أن الشركة نمت مع الوقت، وبالتالي توسّعت معها جميع أقسامها. رغم ذلك لم يأخذ مدير المصنع القسم الذي يعمل به بلومفيلد في الاعتبار. زادت عنده المهام. عندما بدأ بلومفيلد العمل في القسم يومًا ما – لا يمكن أن يتذكر السيد أوتومار تلك الفترة – كان به

ما يقرب من عشر عاملات حياكة. صار عددهم اليوم يتراوح بين خمسين وستين عاملة. عمل كهذا يتطلب مزيدًا من المساعدين. كان بإمكان بلومفيلد أن يراهن على أن يفعل كل ما في وسعه من أجل سير العمل على ما يرام، لكنه من الآن فصاعدًا لا يمكنه أن يضمن هذا. لم يرفض السيد أوتومار يومًا مطالب بلومفيلد بشكل مباشر. فلا يمكن لموظف محنك مثله أن يفعل شيئًا كهذا. لكن كان يعطيه وعودًا منقوصة. فيتحدث مع أناس آخرين بينما بلومفيلد يعرض عليه طلباته، وسرعان ما ينسى الأمر برمته بعد عدة أيام. كان أسلوبًا مهينًا في معالجة الأمر. لم يأخذه بلومفيلد على هذا المحمل، فهو ليس بواهم على الإطلاق. إن مشاعر الاحترام والتقدير مهمة، ولا يمكن له أن يستغني عنها. رغم كل شيء ظل في مكانه قدر استطاعته. إنه على أية حال صاحب حق، ويومًا ما سيحصل على التقدير الذي يستحقه حتى ولو تأخر كثيرًا. في الواقع أن بلومفيلد حصل على اثنين من المتدربين في النهاية. لكن يالهم من متدربين! فبدلًا من أن يرفض طلبه، عبر عن عدم تقديره للقسم بأن أعطاه هذين المتدربين. ماطل بلومفيلد طويلًا وهو يبحث عن مثل هذين المتدربين، ولم يعثر عليهما بالطبع إلا بعد عناء وبحث طويل. لم يستطع بلومفيلد وقتها أن يشكو. كان يتوقع الإجابة. فها هو قد حصل على اثنين من المتدربين رغم أنه كان يطالب بواحد فقط. هكذا تدبر أوتومار الأمر بكل دهاء. لكن بلومفيلد رغم ذلك كان يشتكى منهما. دفعه إلى ذلك الموقف الحرج الذي كان فيه، وليس الأمل في أن يتم تدارك الأمر. لم تكن شكواه صريحة، بل كانت عرضية

وكلما سنحت الظروف بذلك. شاع بين الخبثاء من زملائه أن أحدهم تساءل باستنكار أمام أوتومار: كيف لبلومفيلد أن يشكو وقد حصل على دعم غير عادي! يُقال إن أوتومار كان يجيب بأن بلومفيلد بالفعل مازال يشكو، وهو على حق. نظر أوتومار في الأمر، وقرر أن يمنح بلومفيلد بالتدريج عاملًا لكل حائكة، وهو ما يعنى قُرابة ستين عاملًا. وحتى لو لم يكفِ هذا العدد فسيرسل المزيد، ولن يتوقف حتى يرى هذا النمو الكبير على مدار الأيام في القسم الذي يعمل به بلومفيلد قد صار مثاليًا. بالطبع هذا التعليق يليق تمامًا بطريقة أوتومار في التعبير. لم يشك بلومفيلد في هذا على الإطلاق، لكنه كان أبعد ما يكون عن أن يقول أوتومار شيئًا كهذا عن بلومفيلد. لم تكن سوى ترهات من بنات أفكار هؤلاء المتنطعين في مكاتب الطابق الأول. كان بلومفيلد يتجاوز تلك الأقاويل، وليته استطاع أن يتجاوز وجود المتدربين عنده. فيومًا ما جاءا عنده ولا يمكنه بعدها التخلص منهما. يالهما من طفلين شاحبين، وهزيلين! طبقًا للأوراق من المفترض أنهما أنهيا مرحلة التعليم. لكنه في الواقع لم يستطع تصديق هذا. لا يمكن حتى أن تأتمن مدرسًا عليهما. بالكاد يحتاجان إلى مربية أطفال. لم يتمكنا من الحركة بطريقة منطقية. عندما يتركهما الإنسان للحظة دون مراقبة، ينتشر الوهن فجأة في أوصالهما، ويقفان مائلين محنيين في أحد الأركان. كان بلومفيلد يحاول استفزازهما، ويدعو لهما بأن يصبحا كسيحين إلى الأبد طالما استسلما لهذا الكسل. كانت جرأة كبيرة أن تطلب منهما القيام بأي عمل. ذات مرة وقف أحدهما على بعد خطوات من شيء كان عليه

أن يحضره، فانطلق بحماس مبالغ فيه، وارتطمت ركبته بالمنضدة فانكسرت. كانت الغرفة وقتها مليئة بعاملات الحياكة، والأرفف زاخرة بالبضاعة. اضطر بلومفيلد إلى ترك كل شيء، وأخذ المتدرب وهو يبكي إلى المكتب، وضع له هناك بعض الأربطة على الجرح. ذلك الحماس من المتدربين كان مجرد حماس شكلي. كانا يريدان أحيانًا أن ينالا بعض الاستحسان مثل الأطفال. لكنهما غالبًا، أو دائمًا ما أرادا أن يضللا رئيسهما ويخدعاه. ذات مرة ذهب عندهما بلومفيلد في ذروة وقت العمل وهو غارق في عرقه. وجدهما مختبئين بين أربطة البضاعة، ويتبادلان طوابع البريد. ودّ لو ضربهما بقبضة يده في رأسيهما. إنها العقوبة الوحيدة الملائمة على تصرف كهذا. لكنهما كانا طفلين، ولا يمكن أن يؤذي بلومفيلد طفلًا. تواصلت معاناته معهما على هذا المنوال. كان بلومفيلد يتخيل في البداية أن المتدربين سيكونان له بمثابة مساعدين مباشرين، يحتاجهما وقت توزيع البضاعة التي تتطلب الكثير من الجهد واليقظة. كان يتصور أنه سيقف بمفرده في مكان ما خلف الطاولة، يتابع بالطبع ما يحدث، ويقوم بتسجيل البضاعة، بينما يسعى المتدربان هنا وهناك بناء على أوامره، ويصنفان كل شيء. كان يرى أن نظرَه الذي رغم قوته لا يمكن أن يصل إلى كل شيء في هذا الزخم الكبير سوف يعوضه بمساعدة المتدربين، وأن هذين المتدربين سيكتسبان الخبرة مع الوقت، وسيتصرفان باستقلالية في الأمور التفصيلية دون الحاجة إلى أوامره. بمرور الوقت سيتعلمان التفرقة بين عاملات الحياكة، خاصة فيما يتعلق باحتياجات البضاعة ومصداقية

كل منهن. لكن هذين المتدربين برهنا على أنها كانت مجرد آمال عقيمة. قرر بلومفيلد في وقت مبكر أنه لا يجب أن يسمح لهما بالتحدث مع عاملات الحياكة. في الواقع أنهما لم يقتربا منذ البداية من بعض عاملات الحياكة لأنهما كانا ينفران منهن، أو يخافان منهن. أُعجِبا ببعضهن، وكانا كثيرًا ما يقتربان من أبواب غُرفهن، يلبيان لهن رغباتهن، ويدسان لهن الأشياء سرًا في أيديهن. كان مسموحًا لعاملات الحياكة تقبل كل شيء. كان المتدربان يجمعان فوق أحد الرفوف الفارغة قصاصات الأقمشة، وبقايا القماش، وأيضًا بعض الأشياء التافهة المستهلكة ويعطيانها للمعجبات منهن. يلوحان لهن من بعيد بسعادة دون أن يراهما بلومفيلد. وكانا يتلقيان منهن الحلوى مكافأة لهما ما يقومان به. كان بلومفيلد يقاوم هذين المعتوهين من البداية. كان دائمًا يصرفهما إلى خلف الطاولة عند قدوم العاملات. كان المتدربان يعتبران أن هذا تصرفًا ظالمًا، فيعبسان، ويثنيان شفاههما بتمرد. كانا أحيانًا يطرقان على الحوائط الزجاجية بصوت مسموع كي ينبها العاملات إلى المعاملة السيئة التي يلقيانها من بلومفيلد على حد قولهما.

لم يفهما أنهما يرتكبان أخطاءً. كانا يحضران إلى العمل متأخرين دائمًا. كان بلومفيلد، رئيسهما في العمل، يعتبر منذ شبابه أنه من الطبيعي أن يحضر إلى مكان عمله نصف ساعة قبل بداية الدوام على الأقل – لم يكن هذا خنوعًا أو مبالغة في أداء عمله، بل كان يفعله من باب اللياقة. كان ينتظر مرؤسيه المتدربين أكثر من ساعة غالبًا.

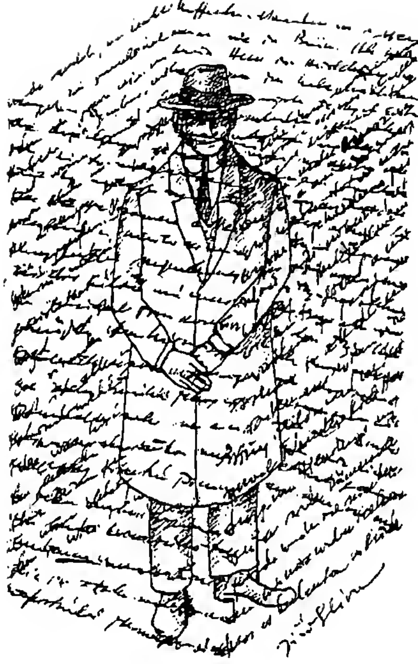
جاء إلى العمل، ثم وقف كالعادة خلف الطاولة في صالة العمل وهو يلوك الطعام في فمه، ثم حمل ورقة الحساب في كتيبات صغيرة وأعطاها للعاملات. ثم سرعان ما استغرق في العمل تمامًا، ولم يفكر في أي شيء غيره. انطلق أحد المتدربين إلى داخل الصالة، بدا وكأنه سيسقط على الأرض في أية لحظة. يمسك بإحدى يديه شيئًا ما، ويضغط بيده الأخرى على صدره وهو يتنفس بصعوبة. لم يكن هذا يعني إلا محاولة لاختلاق عذر على حضوره إلى العمل متأخرًا. كان عذرًا سخيفًا تجاهله بلومفيلد عن عمد. لو أنه لم يتصرف بهذه الطريقة لكان عليه أن يدفع لهذا الفتى بعد انتهاء وقت الخدمة. نظر للحظات إلى ذلك الفتى، ثم أشار بيده في هدوء نحو الطاولة، وعاد بعدها للعمل. كان المتوقع أن يعترف المتدرب بالفضل لرئيسه ويسرع عائدًا إلى مكتبه. لكنه لم يفعل. تلكأ في سيره، وهو يمشي على أطراف أصابعه، يضع قدمًا أمام الأخرى بكل هدوء. هل كان يسخر من رئيسه؟ لم يكن الأمر كذلك على ما يبدو. إنه مجرد خليط من الرضا بالنفس والخوف، الذي يقف الإنسان أمامه عاجزًا. لم يكن عنده تفسير آخر. جاء بلومفيلد يومًا متأخرًا عن العمل على غير العادة. لمح فجأة وسط سحابة التراب التي نشرها عامل بسيط في الهواء بالمكنسة المتدربين يسيران في الشارع، ويتوجهان إلى المصنع. كان ينتظر ليسجل حضوره – لم يكن يحب إطلاقًا تسجيل نفسه في كشف الحضور. كان أحدهما يتأبط ذراع الآخر، يبدو أنهما يناقشان أمورًا هامة، من الواضح أنها أمور هامة، وتتعلق بالعمل. كانا يبطئان من خطواتهما كلما اقتربا من الباب

الزجاجي. ثم أمسك أحدهما بمقبض الباب، لا يفتحه وهو يواصل الحديث، ويسترقان السمع ويبتسمان. صاح بلومفيلد على أحد العمال وهو يمد ذراعه: "افتح الباب لهذين السيدين!" دخل الرجلان إلى المبنى. لم يكن بلومفيلد يرغب في الشجار. لم يرد التحية، وتوجه إلى مكتبه. بدأ عملية الإحصاء وهو يسترق النظر من وقت لآخر ليرى ما يفعله الرجلان. كان الإرهاق الشديد باديًا على أحدهما، فراح يفرك عينيه. وبعد أن علّق معطفه فوق الحمّالة، استغل الفرصة وأسند جسمه على الحائط. كان نشيطًا وهو يسير في الشارع، لكن وجوده في العمل الآن أصابه بالإرهاق! كان المتدرب الثاني على العكس مقبلًا على العمل، لكن بشكل انتقائي. كانت أمنيته منذ البداية أن يجمع القمامة. غير أن عملًا كهذا ليس من اختصاصه، فجمع القمامة من مهام عامل القمامة. لم يعترض بلومفيلد أن يقوم المتدرب بتنظيف المكان، فليفعل إن أراد. لن يكون أسوأ من عامل النظافة على أي حال. لكن عليه أن يحضر إلى العمل قبل الموعد طالما أراد التنظيف، وقبل أن يشرع عامل النظافة في عمله. عليه ألا يهدر الوقت المخصص للأعمال المكتبية. لكن بما أن هذا الصبي لا يعي قولًا، فليترك له عامل النظافة - ذلك العجوز الأعمى، الذي لا يتحمله مديره في أي قسم آخر، والذي يعيش فقط من رحمة الله ورأفة مديره به - فليترك له مكانه، وليعطِ المقشة لصبي أخرق مثله. من المؤكد أنه سيكف عندها عن التنظيف. سيهرول خلف عامل النظافة وهو يحمل المقشة، وسيحاول إقناعه لكي يتولي هو التنظيف. لكن يبدو أن عامل النظافة كان يأخذ عمله بكل الجدية.

أمسك المقشة بقوة بيديه المرتعشتين، وما إن اقترب منه الرجل توقف فورًا عن التنظيف كي يوجه كل انتباهه للإمساك بالمقشة. لم يكن المتدرب يخاطبه، فهو يخاف بلومفيلد الذي يقوم بالإحصاء. ولن تكون الكلمات مفيدة على أية حال، لأن عامل النظافة لم يكن يسمع إلا الصراخ القوي. قام المتدرب بجذب العامل من ذراعه. كان العامل يعرف ما يريده، فتطلع إلى المتدرب بغضب، وهز رأسه، وسحب المقشة، ثم وضعها على صدره. فعقد المتدرب يديه يتوسل إليه. لكن بلا طائل. لم تسفر توسلاته عن أن شيء. لكنه كان يجب أن يتوسل، مجرد رغبة في نفسه في أن يتوسل. كان المتدرب الثاني يتابع كل شيء بضحكات مكتومة، وهو يعتقد على ما يبدو أن بلومفيلد لا يسمعه، وهذا أمر غريب. لم تؤثر توسلات المتدرب في عامل النظافة على الإطلاق. استدار وهو يرى أن في إمكانه مواصلة عمله بكل هدوء. لكن المتدرب راح يقفز على أطراف أصابعه، يلاحقه من جانب إلى آخر وهو يفرك راحتية توسلًا. تكررت حركات عامل النظافة وقفزات المتدرب عدة مرات. شعر عامل النظافة أنه مطوق من كل الجهات، وأنه سيصاب بالإرهاق قبل ذلك المتدرب – وهو ما كان عليه أن يدركه منذ البداية بكل بساطة. لذلك راح يطلب المساعدة، ويهدد المتدرب بإشارة من أصبعه نحو بلومفيلد، بأنه سيشكوه عنده ما لم يتوقف على الفور. أدرك المتدرب أنه طالما عزم على أخذ المقشة فعليه أن يُسرع. مد يديه بقسوة وحاول انتزاعها منه. صرخات عفوية من المتدرب الثاني أنبأت باقتراب القرار. راح العامل يُدافع عن المقشة، فتراجع خطوة للخلف وهو يسحبها معه.

لكن المتدرب لم يستسلم. قفز إلى الأمام بفم مفتوح وعينين لامعتين. أراد العامل أن يهرب، لكن ساقيه الضعيفتين لم تسعفاه. جذب المتدرب المقشة، لم يمسك بها على الفور، لكنه على الأقل تمكن من أن يسقطها على الأرض. وهكذا فقدها العامل، والمتدرب أيضا. فما إن سقطت على الأرض حتى تسمر الثلاثة في مكانهم، المتدربان والعامل، وها هو بلومفيلد يرى أمامه الموقف برمته. نظر بلومفيلد من نافذته الصغيرة وكأنه لم ينتبه لما يحدث إلا الآن. رمقهم واحدًا بعد الآخر بنظرة حادة مُتفحصة، ثم نظر على المقشة الملقاة على الأرض. ساد الصمت فترة طويلة، لكن المتدرب المُتهم بكل ما حدث لم يستطع كبت رغبته في حمل المقشة، فتحرك رغم كل شيء، بحذر بالطبع، وكأنه مقبل على الإمساك بحيوان وليس بمقشة. التقط المقشة، ثم راح يحركها فوق بلاط الأرضية. لكن سرعان ما ألقاها على الأرض عندما هم بلومفيلد، وخرج إليهم. صاح بلومفيلد: "أنتما! انصرفا إلى عملكما، وكفا عن الإزعاج!" ثم مد يديه ليشير لهما نحو طاولتيهما. استجابا على الفور. لم تكن استجابة خجولة، برأس متدلية، بل مرّا ببلومفيلد بكل قسوة، وألقيا عليه نظرة تحدٍ وكأنهما أرادا أن يمنعاه من أن يعاقبهما. كان من المفترض أن يتعلما من خبراتهما بشكل كاف، ويستفيدا من تسامح بلومفيلد معهما. لكنهما كانا يبالغان في قلقهما، ويسعيان إلى الدفاع عن حقوقهما الحقيقية أو المصطنعة بلا هوادة.

التحول[1]



[1] في الفترة من عام 1909 وحتى 1915 حاول كافكا التخلص من العزلة التي كان يعيشها في براغ فسافر مع صديقه ماكس برود إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا. لكن محاولات الخروج من تلك العزلة رغم ذلك فشلت. فبدأ في هذه الفترة في كتابة روايات لم يكملها لا حقا مثل "المحاكمة "و"القلعة "التي أعدها ماكس برود للطباعة لاحقًا. من بين القصص التي كتبها في تلك الفترة، في عام 1915 كانت قصة "التحول".

أفاق رشيهورش سامسا صباح ذات يوم من أحلامٍ مزعجة ليجد نفسه مستلقياً على الفراش وقد تحول إلى حشرة متوحشة. ينام على ظهرٍ صلبٍ كالفولاذ. ورأى وهو يرفع رأسه قليلًا بطنه البنية المحدبة وقد تقسمت إلى أجزاء مقنطرة الشكل، فوقها غطاء بالكاد يغطي بعضها، ويكاد ينزلق من عليها. رأى أمام عينيه أقداماً رفيعة لا تتناسب مع باقي جسده وهي تهتز بقوة.

قال لنفسه: "ماذا أصابني؟" لم يكن هذا حلمًا. كانت حجرته، نعم حجرته التي بالكاد تكفي لجسد بشري وتقع بين أربعة حوائط تقليدية. توجد فوق الطاولة التي تبعثرت عليها عينات لبضاعة من الصوف الناعم - فقد كان سامسا بائعًا متجولًا - صورة اجتزها مؤخرًا من إحدى المجلات المصورة، ووضعها في إطار ذهبي جميل وجذاب. راح يتذكر سيدة ترتدي قبعة جلدية ووشاحًا جلديًا، تجلس منتصبة القامة، وتُلبِس أحد المشاهدين فراءً جلديًا ثقيلًا وقد اختفى ساعداها بين ثناياه.

وجه سامسا ناظريه نحو النافذة ليطالع الطقس الكئيب. سمع طرقات حبات المطر وهي تتساقط على إفريز من الصفيح عند النافذة، فانقبض صدره. فكر في أن يواصل نومه، وينسى كل هذا العبث. لكنه لم يستطع. فقد اعتاد النوم على جانبه الأيمن، ولا يمكنه أن ينام كما يريد وهو في هذه الحالة. فكلما دفع جسده بكل قوة ناحية الجانب

الأيمن، عاد مرة أخرى كما كان. حاول مرات عديدة وهو يغلق عينيه كي لا يرى سيقانه المتشابكة. ثم توقف بعدما شعر بوخزٍ خفيف في جنبه لم يشعر بمثله من قبل.

يا إلهي! يا لها من مهنة شاقة امتهنتها! أمشي في الشوارع كل يوم. إن مشقة ذلك العمل أصعب بكثير من العمل في البيت، فضلًا عن مشقة السفر، والتنقل بين القطارات، والأكل السيئ غير المنتظم، والعلاقات المتعاقبة غير الثابتة التي لا تتحلى بالعاطفة. اللعنة على كل هذا! شعر في أعلى بطنه بحكة خفيفة، فجرّ ظهره على مهل نحو مقدمة السرير حتى يتمكن من رفع رأسه بصورة أفضل، فرأى مكان الحكّة، حيث تناثرت كثيرٌ من البقع الصغيرة البيضاء. لم يتمكن من معرفة طبيعتها. حاول أن يلمس المكان بقدميه، لكنه سحبهما على الفور عندما شعر بقشعريرة فور ملامسته له.

انزلق عائدًا إلى الوضع الذي كان عليه من قبل. راح يقول لنفسه إن الاستيقاظ مبكرًا يُصيب الإنسان بالجنون. فهو بحاجةٍ لأن يأخذ حقه من النوم. تُجّار غيره يعيشون حياةً هانئة كالجواري في حريم السلطان. فمثلًا عندما أعود بعد الظهيرة إلى الحانة كي أكتب قائمة الزبائن الجدد، أجد هؤلاء السادة لا يزالون يتناولون طعام الإفطار. كم أحب أن أجرب هذا الأمر مع رئيسي في العمل، إنه ليصعق لو سمع هذا. لكن من يدري، ربما لا يمكنني أن أُطيق حياةً كهذه. ولولا والدي لتركت

العمل منذ زمن بعيد، ولذهبت إلى رئيسي، وأخبرته بكل ما يجيش في صدري، عندها قد يسقط من فوق المكتب المرتفع! أسلوب عجيب أن يجلس فوق المكتب، ويتحدث من هذا الارتفاع مع مرؤوسه الذي يضطر إلى أن يقترب تمامًا من المكتب بفضل صمم رئيسه. حسنًا، لم أستسلم بعد تمامًا، مازلت أنتظر حتى أجمع مالًا كثيرًا كي أدفع له ديون والدي - ربما استغرق الأمر عدة سنوات أخرى، ست سنوات ربما - لكني سأفعله يومًا ما، وأحسم الأمر. لكن حتى ذلك الوقت يجب أن أستيقظ في الخامسة كي ألحق بالقطار.

نظر إلى ساعة المنبه الذي يدق فوق خزانة الملابس. يا إلهي! إنها السادسة والنصف، وعقارب الساعة تواصل التقدم، ها هي تجاوزت منتصف الساعة، وقاربت على السابعة إلا الربع. ألم يدق المنبه؟ يرى من فوق السرير أنه كان مُعدًا ليدق في الساعة الرابعة. من المؤكد أنه دق في ذلك الوقت. لكن هل كان ممكنًا تعطيل ذلك الرنين الذي يهز أثاث البيت؟ كلا، إن المنبه لم يتعطل، بل كان رنينه قويًا. وماذا سيفعل الآن؟ القطار التالي يأتي في الساعة السابعة. وكي يلحق به يجب أن يسرع، فتشكيلة البضاعة غير جاهزة بعد، وهو لا يشعر بالنشاط والاستعداد. لو أنه لحق بالقطار فلن ينجو من تعنيف رئيسه له، فعامل المتجر الذى ينتظره عند القطار في الساعة الرابعة والنصف لابد أنه أبلغهم أنه لم يأت. إنه رئيس متوحش، ليس له عزيز ولا عقل. ماذا لو أخبرهم أنه مريض؟ سيكون أمرًا مربكًا مشكوكًا فيه. سامسا لم يمرض مرةً على

مدار خمسة أعوام في هذا العمل. وسيحضر رئيسه بالتأكيد ومعه الطبيب، وسيوبخ والديه بأن ابنهم كسول، وسيدحض أي حجة معتمدًا على رأي طبيب المتجر الذي يرى دائمًا أن جميع الناس يتمتعون بالصحة، ويرغبون فقط عن العمل. وهل سيكون في هذه الحالة مذنبًا؟ شعر رشيهورش ببعض الخمول غير الضروري، والذي يحدث عادة بعد كل نوم طويل، باستثناء ذلك كان يشعر أنه في حالة جيدة للغاية، ويشتهي الطعام.

وبينما هو غارق في أفكاره المتلاحقة، وعاجز على النهوض من السرير – دق جرس المنبه ليعلن السابعة إلا الربع – سمع طرقات حَذِرة على الباب القريب من السرير، ونادى الصوت – كان صوت أمه - "رشيهورش! إنها السابعة إلا الربع. ألن تذهب إلى العمل؟". ياله من صوت رقيق! فزع رشيهورش عندما سمع الصوت الذي أجابها به. إنه صوته الذي اعتاده من قبل، لكنه كان مصحوبًا بصوت زقزقة كبيرة قادمة من أعماقه، ومصحوبًا بألم. كان صوته في الوهلة الأولى واضحًا مع تلك الزقزقة، التي شوشت على الكلمات، فلا يعرف الإنسان إن كان قد سمع الكلام جيدًا. أراد رشيهورش أن يجيبها بإسهاب ويشرح لها الأمر. لكن إجابته في هذه الظروف كانت مقتضبة: "نعم، نعم يا أمي، شكرًا، ها أنا أنهض". لم يكن ممكنًا عبر الباب الخشبي ملاحظة التغيير الذي حدث على صوته، فقد رضيت أمه بتلك الإجابة وانصرفت. لكن الحوار المقتضب نبه باقي أعضاء الأسرة إلى أن رشيهورش مازال

في البيت على غير المتوقع. خبط أباه على أحد الأبواب المجاورة بضربة خفيفة من قبضة يده، وقال: "رشيهورش! رشيهورش! ماذا حدث؟". عاود الطرق بعد لحظات بطريقة أكثر إلحاحًا، ونادى بصوتٍ أكثر عمقًا: "رشيهورش!، رشيهورش!" ثم جاءه من ناحية باب جانبي آخر صوت هادئ ينتحب: "رشيهورش؟ هل أنت بخير؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟" أجاب رشيهورش في كلا الجانبين، وقال "ها أنا قادم"، حاول جاهدًا أن ينطق الكلمات بوضوح، ويبعد عن صوته كل ما هو غريب بوقفات بين الكلمات. عاد أبوه لتناول طعام الإفطار، لكن أخته راحت تهمس، وتقول: "رشيهورش! افتح الباب، أستحلفك بأعز ما لديك" لكن رشيهورش لم يفكر في فتح الباب، وراح يثني على حرصه، فقد تعود أثناء رحلاته أن يغلق جميع أبواب البيت أثناء الليل.

كان يريد أن ينهض في هدوء وبدون إزعاج، ليرتدي ملابسه ثم يتناول فطوره، وبعدها يفكر فيما سيفعله. لأنه كان يعرف تمامًا أن الأفكار التي تراوده وهو في الفراش لا جدوى منها. تذكر أنه كثيرًا ما كان يشعر وهو في السرير بألم خفيف نتيجة نومه في وضع غير مناسب. عندما يستيقظ بعد ذلك سيكتشف أنه كان يُوهم نفسه بهذا التفسير. هو الآن يريد أن يعرف إلام ستأخذه أفكاره. فتغيُّر صوته لا يدل إلا على أنه مصاب ببرد شديد، وهو مرض التجار الرحالة. لم يشك في تفسير كهذا على الإطلاق.

أزاح الغطاء بكل سهولة، كان يكفيه أن ينفخ فيه بفمه حتى يسقط. لكن دون ذلك كان ثقيلًا، خاصة وأن جسده كان عريضًا للغاية. كان يكفيه ساعداه كفاه حتى ينهض، لكنه بدلًا منهما كان لديه أقدام كثيرة تتلوى بطريقة غريبة، لم يكن قادرًا على التحكم بها. كلما حاول أن يثني إحداها، تنفرد تلقائيًا مرة أخرى. حتى عندما تمكن أخيرًا من أن يثني إحداها، كانت باقي الأرجل تضطرب بشكل مؤلم وبصورة جنونية.

قال رشيهورش لنفسه: "من العبث البقاء في السرير".

حاول في البداية أن ينهض من السرير بالجزء الأسفل من جسمه الذي لم يره بعد، ولم يتمكن حتى من تخيل شكله. لكنه شعر أن هذا الجزء ثقيل للغاية. ثم تمكن منه ببطء شديد عندما دفعه إلى الأمام بكل ما أوتي من قوة وهو غاضب. اختار الاتجاه الخاطئ، وارتطم بعارضة السرير الأمامية. فشعر بألم شديد، وعرف أن الجزء السفلي من جسمه هو أكثر أعضائه حساسية.

حاول أن ينهض من السرير بالجزء العلوي من جسمه. التفت بحذر ناحية لوح السرير الأمامي. فتمكن من ذلك بسهولة، وتحركت كتلة جسمه العريضة الثقيلة ببطء في نفس اتجاه رأسه. عندما برزت رأسه أخيرًا خارج السرير، وعَلِقت في الهواء، انتابه الخوف من التقدم بنفس الطريقة. لو أنه نهض بهذه الطريقة، فالمعجزة وحدها هي التي

قد تنقذ رأسه من ألا تتأذى. وليس عليه الآن سوى ألا يفقد ثقته بنفسه تحت أي ظرف، وإلا، فليبق في السرير.

لكنه عاد استلقى في السرير بعد محاولات عديدة، واسترخى كما كان من قبل. رأى مرة أخرى أقدامه الصغيرة وهى تتشاجر على نحو أعنف من ذي قبل. لم يكن بالإمكان التحلي بالهدوء والنظام وسط هذا الجنون. قال لنفسه إنه من المستحيل أن يظل في السرير، ومن المنطقي أن يضحي بكل شيء طالما كان هناك أمل في أن يتحرر من هذا السرير. راح يفكر ويمعن في التفكير المتعقل الهادئ بدلًا من أن يتخذ قرارًا يائسًا. في لحظات كهذه كان يشخص ببصره نحو النافذة، لكن النظر إلى شبورة الصباح التي تغطي الجانب المقابل للشارع الضيق لا تبعث على الكثير من الثقة والنشاط.

قال لنفسه عندما رن جرس المنبه مرة أخرى: "الساعة الآن السابعة، أصبحت الساعة السابعة ومازال الضباب عالقًا" ظل مستلقيًا وهو يتنفس بضعف وكأنه ينتظر أن يعيد الهدوء الكامل الأوضاع إلى طبيعتها وحقيقتها.

ثم قال لنفسه: "يجب أن أنهض من السرير تحت أي ظرف قبل أن تدق السابعة والربع" على أية حال سيأتي أحدهم من المتجر ليسأل عني لأن المتجر يفتح قبل السابعة" راح يجتهد في أن يسحب جسمه بالكامل وبانتظام من على السرير. لو أنه سحب جسمه من فوق السرير

بهذه الطريقة فلن يبقى سوى رأسه، وهو مستعد لأن يرفعها بقوة أثناء سقوطه قبل أن تصاب بمكروه. إن ظهره يبدو صلبًا، وقد لا يحدث له شيء أثناء سقوطه على السجادة. من أكثر الأمور إزعاجًا سيكون الضجيج العالي الذي سيحدث بالتأكيد، وسينشر الفزع خلف الباب، أو الخوف بالتأكيد. يجب أن يأخذ هذا في الاعتبار.

عندما دفع رشيهورش نصف جسده خارج السرير - صارت الطريقة الجديدة لعبة أكثر منها إجهادًا، وكان يكفيه أن يسحب جسده شيئًا فشيئًا -، كان يرى أن الأمور ربما تكون أبسط من ذلك بكثير إذا جاءوا لمساعدته. شخصان قويان - كان يقصد أبيه والخادمة - يأتيان، وكل ما عليهما أن يفعلاه هو أن يضعا أيديهما خلف ظهري الأحدب، ويرفعانه فوق السرير، ثم يسحبانه ببعض الجهد وينتظرا حتى يسقط على الأرض، وهنا قد تهدأ أرجلي. لكن، نظرًا لأن الباب موصد، هل يجب أن يطلب المساعدة؟ لم يستطع أن يخفي ابتسامته رغم الحالة التي هو فيها.

كان متماسكًا، ويحافظ على توازنه وهو يترنح بقوة، والآن عليه أن يتخذ قرارًا نهائيًا في أسرع وقت، فبعد قليل ستبلغ الساعة السابعة والربع. رن جرس الشقة، فتسمر في مكانه بينما حركة أرجله تزداد توترًا، وقال لنفسه: "إنه رجل من المتجر   هدأ كل شيء للحظات، ثم قال رشيهورش و هو يشعر ببعض الأمل الخادع: "لن يفتحوا الباب"

لكن الخادمة تقدمت بخطوات ثابتة نحو الباب، وفتحته. سمع رشيهورش بصعوبة أولى كلمات الترحيب بالزائر، وعرف منها من هو – إنه المدير المالي للشركة. لماذا رشيهورش وحده يضطر للعمل بشركة تثور فيها على الفور شكوك كبيرة من مجرد تقصير بسيط؟ هل كل الموظفين آثمون، أليس بينهم رجل واحد يتمتع بالوفاء والولاء، رجل لمجرد أنه لم يعمل عدة ساعات في الصباح لصالح الشركة، يؤنبه ضميره، رغم أنه عاجز بالفعل عن النهوض من سريره؟ ألم يكن يكفيهم أن يرسلوا موظفًا مبتدئًا كي يسأل – طالما أنهم حريصون على أن يسألوا –، هل كان يجب أن يأتي المدير المالي بنفسه، ويقول للأسرة البريئة كلها إن التحقيق في تلك الملابسات المريبة لا يقوى عليه سوى رجل بعقلية المدير المالي؟ انتفض رشيهورش من على سريره منزعجًا من تلك الأفكار التي راودته، وليس لقرار عادي اتخذه. علا صوت فرقعة، لكنه لم يكن ضجيجًا كبيرًا. امتصت السجادة وقع الصدمة قليلًا. كان ظهره مرنًا أكثر مما توقع، وأصدر صوتًا مكتومًا وضعيفًا. لكنه لم يحرص على رأسه بالصورة الكافية فارتطمت؛ أدارها، وجعله الغضب والألم يلقي بها على السجادة.

سمع صوت المدير المالي من الغرفة الموجودة على يساره يقول: "هل سقط شيء ما هناك؟" حاول رشيهورش أن يتخيل شيئًا مماثلًا يمكن أن يحدث للمدير المالي كما حدث معه اليوم. وهذا أمر وارد بالطبع. وكرد فعل وقح على تساؤله تقدم المدير المالي الجالس في الغرفة

المجاورة بضع خطوات ثابتة وهو يصدر صريرًا من نعل حذائه الجلدي. سمع رشيهورش من غرفة على يمينه صوت شقيقته، تقول له: "رشيهورش! المدير المالي هنا" قال رشيهورش لنفسه "أنا أعرف"، لكنه نطق الجملة دون أن يدري بصوت مسموع، وصل إلى شقيقته.

قال أبوه من الغرفة التي على يساره: "يا رشيهورش! لقد جاء السيد المدير المالي ليسأل، لماذا فاتك قطار الصباح، ولا نعرف ماذا نقول له؟. وأيضًا أريد أن أتكلم معك شخصيًا. افتح الباب من فضلك! فهو سيسامحنا على الفوضى الموجودة بالغرفة".

قال المدير المالي بدماثة: "صباح الخير يا سيد سامسا!" قالت أمه: "إنه ليس بخير يا سيدي المدير المالي، صدقني! كيف تفسر أن رشيهورش لم يلحق بقطار الصباح بغير هذا؟ إن هذا الشاب لايفكر في شيء غير العمل. وكدت أنزعج منه لأنه لا يخرج في المساء، فقد كان يتردد على المدينة، لكنه الآن يبقى في البيت كل مساء. يجلس معنا حول الطاولة، ويقرأ الجريدة بهدوء، أو يراجع جدول السفر. وأحيانًا من باب التغيير يقطع الأخشاب بالمِبرَد. صنع على سبيل المثال إطارًا صغيرًا على مدى ثلاث ليال، إنه جميل! وهو معلق في الغرفة عنده، وستراه بعد قليل، بمجرد أن يفتح رشيهورش الباب. أنا سعيدة جدًا يا سيدي لأنك هنا عندنا، وبدونك لن نتمكن وحدنا من أن نجبر رشيهورش على أن

يفتح الباب. إنه عنيد، وبالتأكيد ليس في حالة جيدة، رغم أنه قال غير ذلك في الصباح"

قال رشيهورش على مهل وبحذر: "أنا قادم على الفور"

لم يتحرك كي لا تفوته كلمة من الحوار. قال المراقب المالي: "نعم يا سيدتي، أنا لا يمكن أن أفسر الأمر بغير ذلك. أتمنى ألا يكون الأمر خطيرًا. لكني من ناحية أخرى يجب أن أقول إننا كتجار – للأسف أو لحسن الحظ، كما تشائين – يجب أن نتغلب على الوعكات الصحية البسيطة لخدمة التجارة"

سأله والده المتبرم وهو يطرق على الباب من جديد: "هل يمكن أن يدخل السيد المدير المالي الآن؟" أجابه رشيهورش: "لا" وساد صمت غريب في الغرفة التي على اليسار، وفي الغرفة اليمنى بدأت شقيقته تنتحب.

لماذا لم تنضم للآخرين؟ ربما استيقظت الآن من النوم، ولم تغير ملابسها بعد. لكن لماذا تبكي؟ لأنه لا يريد أن ينهض ويفتح الباب للمدير المالي، لأنه معرضٌ للخطر، وسيفقد وظيفته، وبعدها سيطارد رئيسه أسرتهم من جديد بديونهم القديمة؟ قد تكون كلها مجرد هواجس لا داعي لها. رشيهورش مازال هنا، وهو لا يفكر على الإطلاق في التخلي عن أسرته. إنه في هذه اللحظة مستلقياً على السجادة، ولا يمكن لأحد في حالته تلك أن يطلب منه السماح للمدير المالي بالدخول.

لكنهم لن يغفروا لـ رشيهورش هفوةً صغيرةً كهذه، يمكن أن تجد لها بسهولة عذرًا مناسبًا. كان رشيهورش يرى أنه قد يكون من الأفضل أن يتركوه في حاله، ولا يزعجونه بالبكاء والإلحاح. لكن انعدام اليقين أزعج الآخرين، وبرر سلوكهم.

قال المدير المالي بصوت عالٍ: "يا سيد سامسا! ماذا يحدث؟ أنت تتحصن في غرفتك، ولا تجيب إلا بنعم أو لا، وتتسبب لأهلك في قلق لا داعي له، وتهمل – وهذا بالمناسبة فقط – واجبات العمل بأسلوب غير مقبول. أنا أتحدث هنا باسم والديك وباسم رئيسك في العمل، وأطالبك بكل جدية أن تقدم لي تفسيرًا واضحًا لما يحدث. أنا مندهش، أنا بالفعل مندهش. لطالما عهدتك رجلًا هادئًا وعاقلًا، وأنت الآن وفجأة تريد أن تقوم بأعمال شديدة الغرابة. لقد ألمح لي رئيسك اليوم إلى شيء قد يفسر إهمالك – وهذا الأمر يتعلق بالعهدة المالية التي عهد بها إليك مؤخرًا – لكني أقسمت له بشرفي أن هذا التفسير غير صحيح. ولكني إذ أرى تصرفاتك الغامضة تلك بدأت أفقد أي رغبة في الدفاع عنك. كما أن موقفك ضعيف. كنت أنوي أن أقول لك هذا الكلام كله وجهًا لوجه. لكن بما أنك تتركني هنا أضيع وقتي عبثًا، فأعتقد- لا أعرف- أن والديك يجب أن يعرفا بهذا الأمر. إن أداءك في الفترة الأخيرة غير مرضٍ تمامًا، صحيح أنه ليس موسم التجارة الناجحة، ونحن نعترف بهذا، لكن لو لم نقم ببعض الأعمال التجارية، سنخسر هذا الموسم تمامًا يا سيد سامسا، لن يكون له وجود"

صاح رشيهورش منفعلًا وقد نسي كل ما يتعرض له: "لكنى يا سيدي المدير المالي، سأفتح الآن على الفور، إنها وعكة بسيطة، فقد منعني الدوار من الاستيقاظ، ومازلت في الفراش. ولكني صرت الآن بخير. وها أنا أنهض من السرير. انتظرني لحظة! لا تبدو الأمور جيدة تمامًا كما كنت أعتقد. لكني في حالة أفضل الآن. كيف يتعرض الإنسان فجأة لشيءٍ كهذا! بالأمس كنت على ما يرام، ووالدي يعرفان ذلك، في الواقع لقد شعرت مساء أمس بأن شيئاً سيحدث. مؤكد أن شكلي كان ينبئ بهذا. لا أعرف لماذا لم أخبر المتجر بشيء كهذا! لكن هكذا الإنسان يعتقد خطأً أنه سيتغلب على المرض، وليس من الضروري البقاء في البيت. يا سيدي المدير المالي، أرجوك ألا تزعج والدي! فلا سبب إطلاقًا لكى توبخني عليه، فلم يتحدث معي أحد بكلمة واحدة عن شيء كهذا. ربما لم تقرأ بعد الطلبيات التي أرسلتها. وسوف أسافر على أي حال في قطار الساعة الثامنة. فبعض ساعات جعلت حالتي تتحسن. لا تُعطّل نفسك يا سيدي المدير المالي، سأكون في المتجر على الفور، لكن من فضلك أبلغ هذا للسيد المدير ورئيسي في العمل!"

كان رشيهورش وهو يفرغ ما بجعبته على عجل بالكاد يدرك ما يقوله، واقترب بسهولة من خزانة الملابس بفضل التدريب الذي حصل عليه في السرير، وحاول أن يقف على قدميه بناءً عليه. في الواقع أراد أن يفتح الباب، وأراد أن يرى المدير المالي ويتحدث معه. فقد كان شغوفاً بأن يعرف رأي الآخرين الذين ينادونه فيما يحدث عندما يرونه، وإذا

ما كانوا سيصابون بالفزع. لن يكون لدى رشيهورش أي إجابة، ويمكنه أن يبدو هادئًا. لو أنهم استقبلوا الأمر برمته بهدوء، فلن يكون لديه سبب للانزعاج، ولو أنه همّ فيمكنه أن يكون في المحطة تمام الساعة الثامنة. في البداية انزلق عدة مرات وهو يستند على الخزانة الناعمة، ثم قفز بكل قوته حتى وقف منتصبًا. لم يلق بالًا للألم في أسفل معدته، رغم أنه كان ألماً شديداً. ثم سقط على ذراع مقعد قريب وهو يمسكه بأقدامه الصغيرة. وبدأ يتمالك نفسه، والتزم الهدوء حتى يسمع ما يقوله المدير المالي.

سأل المدير المالي أبويه: "هل فهمتم كلمةً مما قاله؟ هل هو يعبث معنا؟"صاحت أمه هي تبكي: "يا ويحي! ربما يكون مريضا، ونحن نعذبه. "ثم نادت قائلة "يا مركيتا! يا مركيتا!"أجابتها شقيقته من الجانب الآخر: "نعم يا أمي" كانتا تتبادلان الحديث عبر غرفة رشيهورش "لتذهبي حالًا لإحضار الطبيب، إن رشيهورش مريض. اذهبي على الفور. ألم تسمعي كيف تكلم رشيهورش الآن؟" قال المدير المالي بصوت منخفض مقارنة بصوت أمه: "لقد كان صوت حيوان صاح أبوه في وسط الدهليز المؤدي إلى المطبخ وهو يصفق بيديه: "نعم! نعم!. وأحضري النجار فورًا!" وهرولت كلتا السيدتين وهما تصدران حفيفًا من تنورتيهما- كيف استطاعت شقيقته أن ترتدي ملابسها بهذه السرعة؟ - وغادرتا المنزل. لم يسمع أحد صوت ارتداد الباب. ربما تركتاه مفتوحًا، كما هي العادة في الشقق عندما يحدث أمر جلل.

صار رشيهورش الآن أكثر هدوءًا. فهم لم يفهموا ما قاله رغم أن كلماته كانت واضحة للغاية، أوضح من أي وقت مضى. ربما لأن أذنه اعتادت عليها. لكنهم بالتأكيد أصبحوا واثقين بأن حالته سيئة، وأنهم على استعداد لمساعدته. الثقة واليقين، أولى الخطوات التي بدأ بها وجعلته يشعر بالارتياح. شعر بأنه عاد من جديد إلى جنسه البشري، حيث الطبيب والنجار – في الواقع لم يعرف الفرق بينهما – فراح ينتظر تدخلًا حاسمًا. سعل قليلًا حتى يستعد لحديث قادم بصوت أكثر وضوحًا. كان يجتهد ألا يسمع أحد صوته وهو يسعل، فلعل صوتاً كهذ يختلف عن صوت البشر وهم يسعلون، وهو لا يستطيع بنفسه أن يحكم على الأمور. هدأت الأصوات في الغرفة المجاورة. ربما تجلس الأسرة مع المراقب المالي حول الطاولة يتهامسون. أو ربما يستندون جميعاً على الباب ويسترقون السمع.

تحرك رشيهورش ببطء نحو الباب مستندًا على الكرسي، ثم حرر الكرسي، وسقط فوق الباب، وتعلق به وهو منتصب الجسد – كانت أقدامه لزجةً قليلًا – وقف هناك يستريح بعد هذا العناء. حاول أن يدير المفتاح بفمه، لكن للأسف يبدو أنه ليس لديه أسنان – بماذا سيمسك الآن مفتاح الباب؟ - لكن فكيه كانا قويين للغاية. وبفضلهما استطاع أن يحرك المفتاح دون أن يلقي بالًا لأنه سيؤذي نفسه بالتأكيد. فقد بدأ ينساب من فمه سائل بني، وسال على المفتاح، ثم تساقط على أرضية الغرفة. قال المدير المالي من الغرفة المجاورة: "اسمعوا! إنه يدير المفتاح" شجع هذا

رشيهورش، أراد أن يسمعهم جميعًا، حتى أبيه وأمه يقولان: "إلى أعلى يا رشيهورش، استمر! ادفع المفتاح بقوة داخل الباب!" ضغط على المفتاح بين فكيه بكل ما أوتى من قوة وهو يتصور أنهم جميعًا يتابعون محاولته بترقب. وبمجرد أن بدأ المفتاح يتحرك ويهتز في فتحة الكالون بدأ يشد من فمه، يتعلق تارة بالمفتاح، وتارة أخرى يدفعه إلى أسفل بكل قوة. وانطلق صوت المِغلاق وارتد أخيرًا إلى الخلف. انتبه رشيهورش من جديد، والتقط أنفاسه، وقال:"لم أكن في حاجة إلى النجار ثم وضع رأسه على مقبض الباب حتى يفتحه على مصراعيه.

انفتح الباب بالفعل على مصراعيه لأنه اضطر إلى فتحه بتلك الطريقة. لكنه لم يظهر لهم بعد. اضطر إلى أن يدور حول أحد جناحي الباب بكل حذر حتى لا يسقط على ظهره أمام مدخل الغرفة. كان متأثرًا بتلك الحركة الصعبة، ولم يكن لديه وقت لملاحظة ما يدور حوله. وهنا سمع صوت مراقب الحسابات يصيح بصوتٍ عالٍ: "يا إلهي!"– كان صياحًا يشبه صرير الرياح. فها هو يراه – وكان أقربهم إلى الباب – وهو يضغط بيده على فمه المشدوه، ويتراجع إلى الخلف ببطء، وكأن قوةً خفيةً تطارده شيئًا فشيئًا. نظرت إليه أمه – وكانت تقف في مواجهة المدير المالي بشعرها المبعثر المنتصب كما هى العادة في الصباح – وقد أمسكت والده بذراعيها، ثم تقدمت خطوتين نحو رشيهورش، ومالت على الأرض حتى انثنت التنورة التي ترتديها. وسقط وجهها حتى صدرها، وغابت عن الوعي. قبض أبوه على قبضته

وعلت وجهه تعبيرات قاسية، وكأنه يريد أن يدفع رشيهورش إلى داخل الغرفة. تجول بنظره في غرفة الاستقبال، ثم غطى وجهه بيديه، وأجهش بالبكاء، فاهتز صدره القوي.

لم يدخل رشيهورش إلى الحجرة، واتكأ على جناح الباب ممسكًا بالقفل، فلم يروا منه إلا الجزء العلوي من جسمه ورأسه المائلة على صدره وهو ينظر بها إليهم. انتشر نور الصباح، وظهر بيت داكن اللون امتد بلا نهاية على الجانب المقابل للشارع كان مبنى أحد المستشفيات – به نوافذ متساوية تتخلل واجهته. كان المطر مازال يسقط، وتتساقط حباته كبيرة واضحة، وترتطم بالأرض. أطباق طعام الإفطار الكثيرة مازالت على الطاولة. فأبوه كان يعتبر وجبة الإفطار من أهم وجبات اليوم. يقضي بعدها ساعات وهو يتصفح مختلف الجرائد. وعلى الحائط المقابل عُلِّقَت صورة رشيهورش وهو في الخدمة العسكرية، يظهر فيها وهو يرتدي زي ملازم أول، ويمسك بيده سيفًا وهو يبتسم ابتسامة صافية. إنها صورة تجبرك على احترام رتبته وزيه. كان الباب المؤدي إلى الدهليز مفتوحًا عن آخره، وكذلك باب الشقة كان هو الآخر مفتوحًا، ويظهر منه الدهليز الكائن أمام الشقة، وبداية درجات السلم المؤدي إلى خارج البيت.

قال رشيهورش وهو يعلم جيدًا أنه الوحيد الذي يلتزم الهدوء: "حسنًا، سأرتدي ملابسي على الفور، وأحزم البضاعة، وأنصرف. هل

مازلت تريدني، هل مازلت تريديني أن أذهب؟ كما ترى ياسيدي المدير المالي، أنا لست متعنتًا، وأحب عملي. أنا خبير في السفر، ولا يمكنني أن أعيش بدونه. إلى أين ستذهب يا سيدي المراقب المالي؟ أنت ذاهب إلى المتجر؟ نعم؟. هل ستخبرهم هناك بالحقيقة؟ ربما يكون الإنسان غير قادر على العمل في الوقت الحالي، لكنها اللحظة المناسبة كي يتذكر ما أنجزه من قبل، ويعلم أن العوائق سوف تزول لاحقًا، وأنه سوف يمارس عمله بكل همة وتركيز. وأنا مدين للسيد صاحب العمل، وأنت تعرف هذا جيدًا. كما أنني أعيل والديّ وأختي. أنا الآن في أزمة، وسوف أتخطاها. لا تجعل حياتي أسوأ مما هي عليه. قف بجانبي في المتجر! إن الموظف الرحالة لا يحبه الناس، وأنا أعرف ذلك. الناس تعتقد أنه يجني مالًا حرامًا، ويعيش حياةً هانئة، ولا يشغلون بالهم كثيرًا في مراجعة مثل هذه الأحكام المسبقة. لكنك، يا سيدي المدير المالي، تعرف أكثر من باقي الموظفين كل التفاصيل، ويمكنني أن أقول بأنك الوحيد بيننا الذي يعرف الأمور أكثر من السيد صاحب العمل نفسه، فهو بصفته رب العمل يسهُل أن يتنازل لصالح موظف عنده. وتعرف أيضًا جيدًا أنه من السهل أن يصبح الموظف المتجول الذي يقضي العام كله تقريبًا خارج المتجر ضحية للشائعات والصدف والشكاوى غير المبررة، وهو عاجز عن أن يدافع عن نفسه، لأنه غالبًا لا يعرف شيئًا عنها. فهو يعود من رحلته مرهقًا، وفي البيت يحاسب بنفسه على تبعات أعمال لا يعرف لها سببًا. يا سيدي المدير المالي! قل لي قبل أن تنصرف كلمة واحدة حتى أعرف أنك توافقني الرأي ولو جزئيًا"

لكن المدير المالي أدار وجهه بعد أن بدأ رشيهورش يتكلم، وراح ينظر إليه من خلف كتفيه وهو يضم شفتيه. لم يتوقف عن الحركة لحظة بينما كان رشيهورش يتكلم، وتراجع ناحية الباب عيناه لا تفارقان رشيهورش، ثم خرج من الباب متسللًا وكأنه يغادر مكاناً ممنوع عليه مغادرته. وصل الردهة، ثم جر قدميه من غرفة الاستقبال بسرعة، يعتقد من يراه أن قدمه قد التهبت. وفي الدهليز مد يده اليمنى أمامه ناحية الدرج وكأنه في انتظار قوة خارقة ستنقذه.

كان رشيهورش يعتقد أنه لا يجب بأي حال من الأحوال أن يترك المدير المالي ينصرف وهو في هذه الحال حتى لا يتعرض عمله في المتجر لأي تهديد. لم يفهم أبواه الأمر جيدًا، كانا على قناعة طوال هذه السنوات بأن عمل رشيهورش في المتجر مؤمّنًا مدى الحياة. وهما الآن غارقان فيما يريانه، وفقدا كل ما لديهما من حكمة. لكن رشيهورش مازال يتحلى بتلك الحكمة. من الضروري منع المدير المالي من الانصراف، ومحاولة إرضائه وإقناعه بأن يقف إلى جانبه. فمستقبل رشيهورش وكل العائلة يتوقف على هذا الأمر! ليت شقيقته كانت هنا! إنها إنسانة ذكية، كانت تبكي عندما كان رشيهورش مستلقيًا على الأرض، وكان في إمكانها إقناع المدير المالي الذي يُعتبر صديقًا للنساء. كانت ستغلق باب الشقة، وستخفف عنه الفزع وهو في ردهة الشقة. لكن شقيقته ليست هنا، وعلى رشيهورش أن يتولى الأمر بنفسه. فاته أنه لايعرف كيف سيتحرك في هذه اللحظة، وفاته أيضًا أنهم ربما لم

يفهموا ماقاله. فترك جناح اباب، وتحرك خارجًا من فتحة الباب، وهم بالتوجه نحو المدير المالي الذي كان يمسك سور السلم في الردهة بكلتا يديه بطريقة تثير الضحك. لكنه سقط فورًا على الأرض وهو يبحث عن شيء يتعلق به، واستقر على أقدامه الصغيرة، وأطلق صرخات خفيفة. غريب أن يحدث هذا، لأول مرة يشعر بصحة جيدة صباح هذا اليوم. كانت الأرض صلبة تحت أقدامه الصغيرة التي تطاوعه بكل إذعان، وهو يتطلع إليها بسعادة. كانت تحاول أن تحمله إلى حيث يريد. وبدأ يشعر أن كل آلامه ستتحول إلى راحة. استقر على الأرض قريبًا من أمه وفي مواجهتها تمامًا. وعى الفور راح يتأرجح بحركات غريبة، فانتفضت أمه فجأة رغم أنها كانت غارقة في أحزانها، وصرخت هي تمد ذراعيها أمامها وأصابعها متباعدة: "النجدة، يا إلهي! النجدة!" كانت تحني رأسها وكأنها تريد ن ترى رشيهورش بطريقة أفضل. لكنها على العكس تراجعت وهربت من أمامه. نسيت أن خلفها طاولة مفروشة بالطعام. وعندما ارتطمت بالطاولة جلست عليها شاردة الذهن. كان يبدو أنها لم تر القهوة هي تسقط بشدة على السجادة من القدر المقلوب بجوارها.

قال رشيهورش وهو برفع رأسه نحوها: "أمي!أمي!" نسي تمامًا المدير المالي، ولم يتمالك نفسه، فراح يفتح فكيه ويضمهما فارغين عدة مرات. فارتفع صراخ أمه، ونزلت من على الطاولة، ثم ارتمت في أحضان والده الذي أسرع نحوها. لكن رشيهورش لم يكن يسعى نحو والديه. كان

المدير المالي قد أصبح فوق سلم البيت، يلتفت خلفه للمرة الأخيرة وقد أسند ذقنه على عمود الدرابزين. انطلق رشيهورش خلفه كي يحاول اللحاق به. يبدو أن المدير المالي قد تنبأ بشيء كهذا، فتجاوز بحركة واحدة عدة درجات من السلم، واختفى وهو يصرخ: "ياربي!". تردد دوي صوته في كل أرجاء منطقة الدرج. أصاب هروب المدير المالي أباه بالارتباك الشديد، وكان حتى تلك اللحظة هادئًا نسبيًا. وبدلًا من أن يهرول وراء المدير المالي، أو يحاول أن يمنع رشيهورش من أن يطارده، التقط بيده اليمنى عصًا تركها المدير المالي على المقعد مع قبعته ومعطفه، وأمسك بيده اليسرى جريدة، وراح يهز العصا والجريدة وهو يخبط بقدميه على الأرض ليدعو رشيهورش إلى العودة إلى غرفته. لم تساعد رشيهورش توسلاته التي لم يفهمها أحد، رغم أنه ظل يهز رأسه بكل تواضع، بينما خبطات أبيه فوق الأرض تتزايد. دفعت أمه النافذة في الجهة المقابلة بقوة لتفتحها، رغم أن الجو كان باردًا في الخارج، ومالت برأسها خارج النافذة هي تضع وجهها بين راحتيها. هب تيار هواء شديد بين الشارع والسلم، وتطايرت الستائر، وعلا حفيف أوراق الجرائد على الطاولة، وانزلقت بعض أوراقها على أرض الغرفة. ظل أبوه يلاحقه بكل قوة وهو يهدر كالمجنون. لم يكن رشيهورش قد تدرب بعد على التراجع للخلف بصورة جيدة، فتحرك ببطء شديد. لو أنه استطاع أن يستدير لدخل إلى غرفته على الفور. لكنه خشي أن ينفد صبر أبيه وهو يستدير ببطء شديد، ففي كل لحظة تهدده عصا أبيه ويخشى أن يصاب بجرح قاتل في رأسه أو في ظهره. في النهاية لم يكن أمام رشيهورش مفرًا من أن يتراجع. وراح يتابع خطواته بهلع وهو عاجز

عن تحديد الاتجاه أثناء تراجعه، وأخذ يستدير بأقصى سرعة له – وكان في الواقع شديد البطء - وهو ينظر في كل لحظة بخوف صوب أبيه. يبدو أن والده لاحظ محاولته الجادة، فلم يزعجه وهو يستدير، بل راح يوجهه بطرف عصاه عن بعد ويشير له هنا وهناك. كان صراخ أبيه غير محتمل. وكاد رشيهورش يفقد عقله تمامًا. كاد يستدير تمامًا لولا صراخ أبيه الدائم. ارتبك رشيهورش فارتد جسمه إلى الأمام قليلًا مرة أخرى. واكتشف عندما وصل برأسه عند فتحة الباب أن جسمه أكبر من أن يدخل من فتحة الباب. لم يخطر على بال أبيه وهو في حالة الهياج هذه أن يفتح جانب الباب الثاني، ويمكن (رشيهورش) من الدخول. اعتراه هاجس وحيد وهو أن يصل رشيهورش إلى غرفته بأسرع ما يمكن. لم يستجب لحاجة رشيهورش للاستعداد المتأني حتى ينتصب جسده ويمر من الباب. وكأنه ليس عائقًا على الإطلاق، وكل ما فعله هو أنه راح يلاحق رشيهورش بضجيج غريب حتى يتقدم إلى الأمام. لم يكن الصوت الذي يسمعه رشيهورش خلفه كصوت أبيه الذي يعرفه. وهنا نفذ نفد صبره، فدفع رشيهورش جسده في فتحة الباب دون مراعاة للنتائج. دخل جانب من جسده في فتحة الباب وانحشر فيه مائلًا، وتخضب جنبه كله بالدم، وانتشرت على جسم الباب الأبيض بقع قبيحة، ثم علق جسده بالكامل، وصار عاجزًا عن الحركة تمامًا. تدلت أقدامه الصغيرة في الهواء هي تتلوى في أحد الجوانب، وفي الجانب الآخر كانت مضغوطة فوق الأرض بطريقة مؤلمة – وهنا تلقى من الخلف ضربة قوية من أبيه، جعلته يتحرر ويطير بعيدًا داخل حجرته. أغلق أبوه الباب بعصاه، ثم ساد الصمت أخيرًا.

استيقظ رشيهورش من نوم عميق وثقيل عند الأصيل. ربما كان ليستيقظ قبل ذلك دون حاجة إلى أن ينبهه أحد. شعر بالراحة والحيوية، لكنه أحس وكأن خطوات حثيثة أيقظته أو صوت أبواب تغلق في الردهة بكل حرص. انتشر على سقف الغرفة وعلى أجزاء الأثاث العليا ضوء باهت قادم من مصابيح الشوارع. لكن الظلام انتشر في الجزء السفلي حيث يرقد رشيهورش. تحرك نحو الباب على مهل وهو يتلمس طريقه عن طريق قرون الاستشعار التي صار الآن يعرف قيمتها، وأخذ ينظر إلى ما حدث. بدا جانبه الأيمن وكأنه جرح واحد طويل، وضيق ﺋ ـِ ستقيم. شيهـ ع. صفي أقدامه بصورة واصحة. ـعرض ت إ ـ ـه قد يه لـبرِ بالغ حراء أحداث الصباح – وكانت معجزة أن قدمًا واحدة فقط تعرضت للإصابة – فراح يجرها خلفه.

لاحظ عند الباب شيئًا أثار شهيته. إنها رائحة الطعام. رأى فوق الطاولة وعاءً مليئًا باللبن المحلى، تطفو فوقه قطع الخبز الأبيض الصغيرة. كاد يطير من السعادة، لأنه يشعر بالجوع أكثر من الصباح. فغمز وجهه حتى عينيه في وعاء اللبن. لكنه سرعان ما رفعها بخيبة أمل. فجنبه الأيسر المجروح يؤلمه – ولم يتمكن من تناول الطعام إلا بتعاون من كل أعضاء جسده –، كما أنه لم يعجبه مذاق اللبن الذي

كان يومًا مشروبه المفضل، وكانت تعده له شقيقته. ابتعد بنفور عن الوعاء، وزحف عائدًا إلى منتصف الغرفة.

رأى رشيهورش من فرجة الباب الضوء ينتشر في غرفة الاستقبال، لكنه لم يسمع أي صوت، وكان أبوه معتادًا في ذلك الوقت أن يقرأ لأمه ولشقيقته أحيانًا شيئًا من الجرائد المسائية. حسنًا، ربما قد أقلعوا عن تلك القراءات التي طالما حكتها له شقيقته وكتبت له عنها. لكن الصمت كان يلف المكان رغم أن أحدهم لابد أن يكون في البيت. قال رشيهورش لنفسه وهو جاحظ العينين في الظلام: "يا له من هدوء تعيش فيه هذه الأسرة" لكن ماذا لو أن كل هذا الهدوء وكل هذا السرور وكل هذه السكينة تنبئ بنهاية مؤلمة؟ وحتى لا يسقط فريسة لمثل هذه الأفكار، بدأ رشيهورش في الزحف والتحرك في أرجاء الغرفة.

كانت فرجة ضيقة تُفتَح أثناء ذلك المساء الطويل ثم تُغلق مرة أخرى بسرعة. تارة من الباب الجانبي، وتارة أخرى من الباب الآخر. يبدو أن أحدهم كان يريد الدخول إلى الغرفة، لكنه يتراجع. تقدم رشيهورش مباشرة نحو الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال. كان ينوي أن يشجع ذلك الزائر المتردد على الدخول، أو على الأقل يتأكد من هويته. لكن الباب لم يُفتح، وراح رشيهورش ينتظر عبثًا. من قبل عندما كان يوصد الباب خلفه كانوا جميعاً يرغبون في الدخول عنده، أما الآن،

وعندما فتح هو بنفسه الباب، وكان الباب الآخر مواربًا طوال اليوم، لم يأت أحد، وأصبح المفتاح موجودًا في الباب من الخارج.

لم ينطفأ النور في غرفة الاستقبال إلا أثناء الليل، وصار سهلًا الآن التأكد من أن والديه وشقيقته كانوا مستيقظين حتى ذلك الوقت. كان يسمع بوضوح وقع خطواتهم جميعًا وهم ينصرفون على أطراف أصابعهم. بالتأكيد لن يأتي إليه أحد حتى الصباح. وصار لديه المزيد من الوقت ليفكر في هدوء كيف سيعيد ترتيب حياته من جديد. لكن الخوف اعتراه من الغرفة الفارغة ذات السقف العالي، التي أجبر على النوم منبطحًا فوق أرضيتها. لكنه لم يعرف سبب هذا الخوف، فلطالما كانت غرفته التي عاش فيها خمسة أعوام – التف بنصف جسده، وسحب نفسه ببعض الخجل إلى أسفل الأريكة، حيث شعر على الفور براحة كبيرة، رغم أن ظهره كان مضغوطًا قليلًا، ولم يتمكن من رفع رأسه. كل ما أزعجه أن جسده بالكامل لم يستقر تحت الأريكة بسبب حجمه الكبير.

ظل هناك طوال الليل، قضى بعضه لا ينام إلا إغفاءة، أحيانًا يوقظه الجوع، وأحيانًا القلق والآمال الغامضة التي جعلته يصل إلى قناعة بأن عليه أن يتحلى بالهدوء والصبر، وأن يحاول مساعدة أسرته بكل ما يستطيع على أن تتجاوز المحنة التي تتعرض لها بالتأكيد وهو في حالته تلك.

وفي الصباح الباكر، ولم يكن الظلام قد انقشع بعد، جاءته الفرصة ليجرب مدى صلابة القرار الذي اتخذه عندما جاءت شقيقته بكامل ملابسها، وفتحت الباب المؤدي إلى الدهليز، وراحت تنظر بتوجس إلى داخل الغرفة. لم تعثر عليه على الفور. لكن عندما رأته أسفل الأريكة – فبالتأكيد إنه هنا في مكان ما، فلا يمكنه أن يطير –، فزعت ولم تتمالك نفسها، وصفعت الباب وراءها وأغلقته من الخارج. لكنها سرعان ما فتحت الباب مرة أخرى وكأنها ندمت على ما فعلت، ودخلت إلى الغرفة وهى تمشى على أطراف أصابعها وكأنها تتجه نحو مريض بمرض عضال، أو نحو رجل غريب. حرك رشيهورش رأسه نحو حافة الأريكة، وراح يراقبها. هل ستنتبه إلى أنه لم يشرب اللبن رغم أنه جوعان، وهل ستحضر له طعامًا أفضل منه؟ لو لم تفعل هذا من تلقاء نفسها لتمنى الموت جوعًا قبل أن ينبهها إلى ذلك! رغم ذلك شعر برغبة كبيرة في أن يخرج من أسفل الأريكة، ويرتمي تحت قدمي شقيقته، ويرجوها أن تحضر له شيئًا يأكله. لاحظت شقيقته على الفور أن وعاء اللبن مازال كما هو ممتلئًا. فقط القليل منه قد انسكب حول الوعاء، فرفعته على الفور بخرقة وليس بيد عارية، وحملته بعيدًا. كان رشيهورش متشوقًا إلى ما قد تحضره له بدلًا منه. وراحت تراوده تصورات مختلفة. لم يكن يتوقع على الإطلاق ما فعلته أخته. أحضرت أصنافًا مختلفة من الأطعمة، ووضعتها فوق ورق الجريدة حتى يختار ما قد يطيب له. أحضرت خضراوات متعفنة، وعظامًا من بقايا العشاء مغطاة بصلصة بيضاء لزجة، وبعض حبات العنب والمكسرات، وقطعة من الجبن، كان رشيهورش قبل أسبوعين

قد أخبرها بأنه لا يمكن أن يأكلها، خبزًا جافًا، خبزًا مدهونًا بالزبد، خبزًا مملحًا بالزبد. ووضعت بجوار هذا كله وعاء كان مخصصًا لـ رشيهورش فقط، وصبت فيه ماء. وانصرفت بسرعة كنوع من الحنكة لأنها كانت تعرف أن رشيهورش قد لا يأكل أمامها. وأدارت المفتاح في الباب حتى يعلم رشيهورش أنه يمكنه أن يتصرف كيفما يشاء. بدأت سيقانه تهتز عندما رأى الطعام. التأمت جراحه تمامًا ولم تعد تؤلمه. تعجب من الأمر، وتذكر أنه منذ أكثر من شهر خَدش أصبعه بالسكين، وكان الخدش مازال يؤلمه حتى مساء أمس. قال لنفسه: هل قَلّ شعوري بالألم؟ بدأ يمتص الجبن بنهم وقد أعجبته من بين كل الأنواع الأخرى. التهم الجبن والخضراوات والصلصة مرة واحدة، والدموع تلمع في عينيه من الفرحة. كان لا يحب الطعام الطازج، ولا يتحمل رائحته، حتى الأشياء الطازجة نحّاها جانبًا بعدما شرع في تناولها. انتهى بسرعة من تناول كل شيء، ثم استلقى في نفس مكانه. أدارت شقيقته مفتاح الغرفة بحذر لتبلغه أن كل شيء على ما يرام. أفزعه صوت المفتاح بعد أن كاد يستسلم للنوم، وذهب عائدًا إلى أسفل الأريكة. كانت مشقة كبيرة أن يبقى أسفل الأريكة في الوقت القصير الذي ظهرت فيه شقيقته في الغرفة، لأنه أسرف في تناول الطعام وانتفخت بطنه، فراح يتنفس بصعوبة أسفل الأريكة. شعر بضيق في التنفس وهو يتابع شقيقته بعينين جاحظتين وهى تزيل بالمقشة بقايا الطعام، والأنواع التي لم يمسسها رشيهورش وكأنها زائدة عن حاجته. كان يراقبها وهى ترمي على عجل كل البقايا في سلة، ثم أغلقتها بغطاء

خشبي، وحملت كل شيء إلى الخارج. وما إن استدارت حتى سحب رشيهورش جسمه من أسفل الأريكة، وتمدد وهو يزفر أنفاسه.

هكذا كان رشيهورش يتناول طعامه كل يوم. مرة في الصباح أثناء نوم والديه والخادمة، والمرة الثانية في وقت الغذاء، حين كان والداه يغفوان قليلًا بعد الطعام، وكانت شقيقته ترسل الخادمة لقضاء أمر ما خارج البيت. مؤكد أنهما لم يتمنا له الموت جوعًا، لكن ربما أرادا أن يطمئنا على طعامه فقط من خلال شقيقته التي كانت تسعى إلى أن تجنبهما المزيد من الحزن، فما عانياه لم يكن بالقليل.

لم يتمكن رشيهورش من أن يعرف كيف استطاعوا أن يقنعوا الطبيب والنجار في ظهيرة اليوم الأول بالانصراف من الشقة. إنهم لا يفهمون كلامه، لكن لم يخطر على بال أحدهم ولا حتى شقيقته أنه يفهم كلام الآخرين. كان يكتفي بسماع شقيقته وهى عنده في الغرفة تتأوه وتدعو له. لاحقًا، وبعد أن اعتادت الأمر قليلًا – بالطبع لم يكن ينتظر أن تعتاد الأمر تمامًا - كان رشيهورش أحيانًا يسمعها وهى تبدى ملاحظات على الطعام. كان واضحًا أنها تقولها بحسن نية، أو هكذا يمكن أن يفسر الأمر. كانت عندما تجد أن رشيهورش قد أكل الطعام كله تقول: "اليوم أعجبه الطعام" وخلاف ذلك عندما كان يترك الطعام ويكرر هذا كثيرًا، كانت تقول بحزن: "لم يأكل شيئًا من الطعام اليوم أيضًا"

لم يستطع رشيهورش أن يتابع كل ما يستجد في البيت، وكان يسترق السمع للصوت القادم من الغرف المجاورة. وفي كل مرة يسمع فيها صوتًا يسرع نحو الباب القادم من خلفه الصوت، ويلتصق خلسة بكل جسده فوق الباب. على مدى يومين كاملين كان يسمعهم يتناقشون أثناء الطعام في أمره. حتى بين الوجبات المختلفة كانوا يتحدثون في نفس الموضوع. دائمًا ما تواجد في البيت اثنان على الأقل من الأسرة. فلم يرغب أحد في البقاء بمفرده في البيت، وكان من المستحيل أيضًا مغادرة الشقة دون أن يبقى فيها أحد. ألحت الخادمة في أول يوم – لا أحد يعرف كيف فهمت الأمر بالتحديد – على أمي وناشدتها أن تسمح لها بمغادرة البيت وأثنت على فترة وجودها بالبيت. ودون أن يطلب منها أحد أقسمت بكل عزم على أن تبقي الأمر سرًا، وأنها لن تتفوه بأي كلمة عما حدث.

وصارت شقيقتي وأمي تقومان على أمور الطهو. لم يكن الأمر صعبًا، لأنهم كانوا لا يأكلون تقريبًا. كانوا رشيهورش يتوجس من صوتهم على الدوام عندما يدعو أحدهم الآخر لتناول الطعام، ولا تصله سوى إجابة واحدة: "شكرًا، لقد شبعت"، أو شيء من هذا القبيل. يبدو أنهم كانوا لا يشربون أية خمور. كانت شقيقته تسأل أباها باستمرار إن كان يريد بعض البيرة، كانت تعرض عليه بكل جدية أن تذهب لتشتريها له بنفسها. لكن عندما كان أبوه يلوذ بالصمت، وحتى تبدد أي شكوك لديه كانت تقول له أنها يمكن أن ترسل البواب ليشتريها، لكنه كان يقول بكل حزم:"لا"، ثم يتوقف الحديث عن هذا الأمر.

في أول يوم أخرج والده كل ما يمتلكه، وعرضه على شقيقته ووالدته. كان ينهض من عند الطاولة ويتحرك هنا وهناك وأحضر من صندوق صغير استطاع أن يحافظ عليه بعدما أفلست تجارته قبل خمسة أعوام مستندًا ما ومفكرة. كان رشيهورش يسمعه وهو يفتح قفلًا ثقيلًا ثم يغلقه مرة أخرى بعد أن أخرج منه ما يبحث عنه. كان حديث والده أول شيء يسمعه و يبعث في نفسه السرور ولو جزئيًا منذ بداية حبسه في الغرفة. كان يعرف أن والده فقد كل شيء في تجارته، أو على الأقل لم يخبره أبوه خلاف ذلك. ولم يسأله رشيهورش بعدها عن الأمر. كان كل ما يهم رشيهورش وقتها هو أن يسعى بكل قوته كي تتجاوز أسرته بسرعة تلك الكارثة التجارية التي أصابت الجميع باليأس والقلق. فانصرف إلى العمل بكل همة، حتى تحول بين ليلة وضحاها من بائع صغير إلى تاجر متجول، ذي إمكانيات كثيرة لكسب العيش، وتحولت نجاحاته في العمل فورًا إلى أموال سائلة في صورة عمولات. كان يضع هذه الأموال تحت تصرف الأسرة السعيدة المذهولة بنجاحه. كانت أوقاتًا جميلة لم تتكرر بعد ذلك، أو لم تظل بذلك البريق رغم أن رشيهورش كان يتكسب لاحقًا نقوداً كثيرة، جعلته قادرًا على توفير نفقات الأسرة، وبالفعل وفرها لهم. لقد اعتادوا جميعًا على هذا، اعتادت عليه الأسرة وأيضًا رشيهورش. كانوا يتقبلون منه الأموال بكل العرفان، وكان يعطيها لهم بكل سعادة. لكن كان هذا ينقصه الحنان الحقيقي. الوحيدة بينهم كانت شقيقته التي تزداد قربًا منه. كان يخطط سرًا أن يرسلها العام القادم إلى معهد الموسيقى متحملًا أي

نفقات كبيرة مقابل ذلك، لأنها كانت، على عكس رشيهورش تحب الموسيقى وتعزف على الكمنجة بمهارة. كان عندما يكون في المدينة لبعض الوقت تأتي في أحاديثه مع شقيقته إشارة إلى معهد الموسيقى. كان يبدو وكأنه مجرد حلم جميل لا يمكن أن تأمل في أن يتحقق يومًا ما. لم يكن والداه يرحبان بالاستماع إلى مثل هذه الإشارات الساذجة. لكن رشيهورش كان يفكر فيها بكل جدية، وكان يخطط لأن يعلن عن هذا في أعياد الميلاد بشكل احتفالي

مثل هذه الأفكار التي لا طائل منها وهو في حالته هذه عصفت برأسه وهو يقف مشدودًا وملتصقًا بالباب ليستمع إليهم. أحيانًا كان يصيبه الإرهاق، لا يستطيع مواصلة الاستماع إليهم، فتسقط رأسه فوق الباب من غلبة النعاس. لكنه سرعان ما يستفيق. كان مثل هذا الضجيج الخافت الذي يسببه يسمعه الآخرون في الغرفة، فيصمتون. قال أبوه بعد لحظة وهو يتوجه على ما يبدو نحو الباب: "ماذا يفعل هذا الشاب؟" ثم يعاود الحديث معهم.

أصبح رشيهورش الآن على قناعة – كان أبوه يكرر ما يحكيه مرارًا، إما لأنه لم يتحدث عن هذه الأمور من قبل، وإما لأن أمه لم تفهم الأمر من الوهلة الأولى – بأنه قد بقيت رغم كل المصاعب ثروة صغيرة من أيام الرخاء، زادت قيمتها بفوائدها التي لم يمسوها. كما كان رشيهورش يقتطع لنفسه بعضاً من الأموال التي كان يحملها إلى الأسرة

شهراً بعد الآخر. ولم ينفقها كلها، وادخر منها مبلغًا صغيرًا. كان رشيهورش يومئ برأسه بحماس وسعادة من هذه الحكمة وهذا الاقتصاد.كان قادرًا على أن يدفع لرئيسه في العمل الديون المتبقية لوالده من تلك الأموال التي وفرها، ويصبح اليوم الذي يترك فيه تلك الوظيفة قريبًا للغاية. لكن والده تكفل بالأمر بصورة أفضل بلا شك.

لكن هذه الأموال ليست كثيرة حتى تعيش الأسرة من فوائدها. فهى قد تسد حاجات الأسرة لمدة عام، أو عامين على الأكثر. إنه مبلغ من المال لا يمكن الاقتراب منه، ويجب الاحتفاظ به فقط لوقت الأزمات. فيجب العمل من أجل توفير نفقات الحياة. ورغم أن أباه كان يتمتع بصحة جيدة، لكنه كان مسنًا، ولم يعمل منذ خمسة أعوام، ولا يجب أن يغامر بكل تأكيد. فبعد خمسة أعوام قضاها كأول إجازة في حياته الشاقة المليئة بالإخفاقات، ترهل جسده وصار صعب الحركة. هل أمه الآن هى التي ستعول الأسرة وهى تعاني من الربو، ومجرد التنقل بين الغرف يصيبها بالإجهاد، وتستلقي يومًا بعد يوم فوق الأريكة بجوار النافذة المفتوحة ينازعها الألم؟ هل شقيقته هى التي ستعول الأسرة وهى مازالت طفلة في السابعة عشرة من عمرها، وتحتاج إلى الكثير حتى تعيش حياتها كما عاشتها حتى الآن، فهى تحتاج إلى الملابس الأنيقة، والنوم الطويل، وأن تساعد في أعمال البيت، وتتمتع ببعض الترفيه المتواضع، والأهم من ذلك أن تعزف على الكمان؟ عندما يتطرق الحديث الى ضرورة توفير الأموال، كان رشيهورش دائمًا يسحب نفسه

بعيدًا عن الباب، ويسقط مغتمًا فوق أريكة جلدية بجوار الباب وهو يحترق خجلًا وحزنًا.

كان يرقد هناك كثيرًا على مدى ليال كاملة وطويلة دون أن يغمض له جفن. ساعات طويلة لا يفعل فيها شيئًا سوى حك جلده، أو إجهاد نفسه بتحريك المقعد نحو النافذة، ثم يتسلق عتبة النافذة وهو مستند على المقعد، ثم يميل عليها، ويتذكر شعورًا بالحرية كان يتمتع به من قبل عندما كان يتطلع من النافذة. يبدو أن الأشياء البعيدة كانت تبدو له أقل وضوحًا يومًا بعد يوم، فلم يعد يرى نهائيًا المستشفى المقابل له والذي كان يراه من قبل كثيرًا حتى ضاق به. لم يكن متأكدًا من أنه يسكن في المدينة في شارع شارلوت الهادئ. فهو ينظر من النافذة ولا يرى سوى أرض جرداء، سماء وأرض باهتة لا يميزهما شيء. عندما رأته شقيقته التي تسهر علي رعايته أكثر من مرة يقف بجوار النافذة ومن وقتها وهى تضع المقعد قريبًا من النافذة في كل مرة تدخل فيها إلى الغرفة، حتى أنها كانت تترك أبواب النافذة الداخلية مفتوحة.

همه كثيرًا ما تفعله معه شقيقته. كان سيتقبل اهتمام شقيقته به بكل سهولة لو أنه استطاع أن يتحدث معها ويشكرها على كل ما تفعله معه. كانت شقيقته تحاول أن تخفف من وقع الحادثة، ونجحت في ذلك مع الوقت. كما أن رشيهورش أصبح يدرك ما يحدث بصورة أكثر وضوحًا يوماً بعد الآخر. أصيب بهلع عندما دخلت إلى الغرفة. فقد

دخلت شقيقته عنده، وعلى الفور أغلقت الباب خلفها، كانت حريصة تمامًا على ألا يرى أحد ما يحدث في غرفة رشيهورش، ثم توجهت على الفور ناحية النافذة، وفتحتها على عجل على مصراعيها وكأنها على وشك الاختناق، توقفت للحظات عند النافذة حيث كان الجو مائلًا إلى البرودة، وراحت تتنفس بعمق. كان رشيهورش يفزع من هرولتها وضجيجها اللذين يحدثان مرتين في اليوم، بينما هو مستلقٍ يرتعد أسفل الأريكة طيلة هذه المدة. كان يعرف جيدًا أنها كانت ستتوقف فورًا عن هذه الأفعال لو أنها تحملت البقاء في الغرفة عند رشيهورش والنوافذ مغلقة.

مر شهر على التحول الذي أصاب رشيهورش، ولم تر شقيقته سببًا للاندهاش من منظره. وجاءت ذات مرة مبكرة قليلًا على غير عادتها، فرأت رشيهورش وهو ينظر من النافذة منتصبًا في وضع مخيف. لو أنها لم تدخل لما اندهش رشيهورش. لم تستطع الوصول إلى النافذة لأنه يقف عندها. لكنها دخلت، وأنهت أعمالها، وخرجت، ثم أغلقت الباب خلفها. أي شخص غريب قد يعتقد أن رشيهورش هجم عليها وأراد أن يلتهمها. لكن رشيهورش اختبأ بالطبع على الفور أسفل الأريكة. واضطر للانتظار حتى الظهيرة إلى أن عادت شقيقته، وكان القلق الشديد باديًا عليها أكثر من أي وقت مضى. لاحظ أن النظر إليه مازال يمثل لها صعوبة شديدة، وسوف يظل ثقيلًا عليها على الدوام، وأن عليها أن تجاهد كثيرًا حتى لا تهرب من النظر إلى جزء صغير من

جسمه يظهر من أسفل الأريكة. وحتى يوفر عليها مشقة هذا المشهد، حمل ذات يوم على ظهره غطاءً ووضعه على الأريكة – تطلّب هذا أربع ساعات من العمل – وأعد الغطاء بحيث يغطيه تمامًا. لن تتمكن شقيقته من رؤيته حتى وإن مالت بجسمها. لو اعتقدت أن هذا الغطاء غير ضروري يمكنها أن ترفعه. كان واضحًا أن رشيهورش لم يكن يختبئ بغرض المزحة. لكنها تركت الغطاء كما هو. واعتقد رشيهورش أنه رأى علامات الامتنان على وجهها عندما رفع الغطاء ذات مرة بحذر، وأومأ برأسه لينظر كيف تقبلت شقيقته هذا الأمر.

لم يجرؤ والداه خلال الأربعة عشر يومًا الأولى من الدخول إليه. كان رشيهورش يسمعهما وهما يتحدثان كثيرًا بامتنان عما تقوم به شقيقته من رعاية له، رغم أنهما كانا أحيانًا ينهرانها، لأنهما كانا على قناعة بأنه لا طائل من وراء ما تفعله. لكن كليهما، أباه وأمه كانا ينتظران أمام غرفة رشيهورش بينما ترتب شقيقته له الغرفة، وبمجرد أن تخرج يسألانها لكي تحكي لهما بالتفصيل عن شكل الغرفة من الداخل، وما هو الطعام الذي تناوله رشيهورش، وما هو سلوكه، وهل هناك تحسن ولو بسيطًا في حالته أم لا. كانت أمه تريد أن تزوره منذ وقت بعيد، لكن أباه وشقيقته كانا يمنعانها لأسباب منطقية، استمع إليها رشيهورش بإنصات وأقرها تمامًا. لكنهما اضطرا إلى منعها بالقوة في وقت لاحق، عندما صاحت فيهما: "اتركوني أدخل عنده، إنه ابني المسكين. ألا تفهمان أني لابد أن أذهب إليه؟". اعتقد رشيهورش

أنه قد يكون طيبًا أن تأتي إليه والدته، ليس كل يوم بالطبع، لكن مرة في الأسبوع مثلًا. إنها تفهم الأمور على نحو أفضل من شقيقته التي رغم كل شجاعتها، مازالت طفلة. حملت على عاتقها عبئًا ثقيلًا، ربما كان دافعها الرئيسي هو عفوية الطفولة.

تحقق ما كان رشيهورش يتمناه، وزارته أمه. لم يعد يظهر بجوار النافذة خلال النهار احترامًا لرغبة والديه، ولم يرغب في الزحف على أرضية الغرفة في مساحة بضعة أمتار مربعة، وأثناء الليل لم يكن يتمكن من البقاء ساكنًا، ولم يعد الطعام يروقه كما كان. وحتى يقتل الوقت اعتاد على الزحف فوق الحوائط، جيئةً وذهابًا، وعلى السقف. كان يحب البقاء فوق السقف بصفة خاصة. كان شيئاً مختلفاً عن الاستلقاء على أرض الحجرة. هناك يتنفس براحة أكبر، وانتفاضة خفيفة تسري في جسده. ويحدث أن يشرد ذهنه وهو على السقف وترتخي عضلاته فيترك نفسه يسقط ويرتطم بأرض الغرفة. صار الآن يتحكم بجسده على نحو أفضل من السابق، وحتى بعد هذا السقوط الكبير لايصاب بأي أذى. لاحظت شقيقته طرق اللهو الجديدة التى ابتدعها – كان يترك خلفه آثار مادة لزجة على جسده في كل مكان –، وخطر لها أن تساعد رشيهورش على الزحف في مساحة أكبر، بأن تزيل الأثاث الذي يعوقه، وخاصة خزانة الملابس، وطاولة الكتابة. لكنها لم تتمكن من هذا بمفردها، ولم تستطع أن تطلب المساعدة من أبيها، ومن المؤكد أن الخادمة لن تساعدها، لأنها فتاة في السادسة عشرة من عمرها

تقريبًا. صحيح أنها تقبلت الأمر بشجاعة، على عكس الخادمة السابقة، إلا أنها طلبت أن يسمحوا لها بأن تغلق على نفسها المطبخ طوال الوقت، وتفتح الباب فقط عندما يطلبها أحدهم. فلم يكن أمام شقيقته إلا أن تدعو والدتها لمساعدتها عندما يغيب أبوها عن البيت يومًا ما. جاءت أمه، وصاحت بكل سعادة وحماس. لكنها صمتت عندما وصلت إلى باب حجرة رشيهورش. بالطبع نظرت شقيقته في بادئ الأمر لتتأكد أن الأمور في الغرفة طبيعية. ثم دعت والدتها للدخول. وبسرعة سحب رشيهورش الغطاء إلى الأرض أكثر مما هو معتاد، وهذبه أكثر. ظهر المشهد وكأن أحدهم ألقى الغطاء على الأريكة مصادفة. لكن رشيهورش راح يختلس النظر من خلف الغطاء، وأصر على ذلك حتى يرى أمه. إنه سعيد أنها جاءت أخيرًا. قالت شقيقته وهي على ما يبدو تجرّ أمها من يدها: "تعالي! إنه مختبئ" سمع رشيهورش كيف تدفع هاتان السيدتان الضعيفتان الخزانة القديمة الثقيلة، ولاحظ أن شقيقته دائمًا تطلب أن تقوم بمعظم الأعمال بنفسها متجاهلة تحذيرات والدتها لها بألا ترهق نفسها. استغرق الأمر وقتًا طويلًا. بعد مرور ما يقرب من ربع الساعة قالت أمه إنه من الممكن ترك خزانة الملابس في مكانها، لأنها أولًا ثقيلة جدًا ولن يتمكنا من تحريكها إلى مكان آخر قبل وصول والده، وأن الخزانة سوف تعوق رشيهورش عند وضعها في منتصف الغرفة، إضافة إلى أن نقل الأثاث لن يعجب رشيهورش. كانت تعتقد العكس تمامًا، فرؤية حائط خاوٍ قد يصيبه بالحزن. ومن يضمن أن رشيهورش لن يحزن، فهو اعتاد على الأثاث في الغرفة منذ زمن بعيد،

وسوف يشعر بالوحدة لو أفرغنا الغرفة تمامًا من الأثاث. راحت تتحدث بصوت خافت، وتكاد تهمس وكأنها كانت تخشى أن رشيهورش الذى لا تعرف مكانه في الغرفة على وجه الدقة قد يسمع صوتها، فهو لا يفهم الكلمات، وكانت مقتنعة بذلك، وقالت"ألن يبدو الأمر عندما نفرغ الغرفة من الأثاث كأننا فقدنا الأمل تمامًا في تحسن حالته، لذلك نتركه وحيدًا؟ أعتقد أنه من الأفضل أن نحافظ على الغرفة في حالتها كما هى، حتى عندما يعود إلينا رشيهورش مرة أخرى يجد كل شيء كما هو، وبذلك سينسى بسرعة ما حدث له"

عرف رشيهورش وهو يسمع كلمات أمه أن قلة تواصله مع البشر، وحياته الرتيبة وسط الأسرة خلال الشهرين الماضيين قد أفسدت عقله تمامًا. لم يستطع تفسير رغبته الحقيقية في أن تصبح الغرفة خاوية. هل يريد بالفعل أن تتحول هذه الغرفة الدافئة بأثاثها المريح إلى ما يشبه العرين، حيث يستطيع الزحف بلا عائق في كل مكان، فينسى بسرعة إلى الأبد ماضيه كبشر؟ إنه في الواقع كاد ينسى، ولم ينبهه إلى هذا إلا صوت أمه الذي لم يسمعه طويلًا. فليتركا كل شيء في مكانه، يجب أن يبقى كل شيء في مكانه. لا يمكن أن يظل هنا بدون أثاث يبعث الراحة في نفسه. ولو عاقه الأثاث عن أن يلهو هنا وهناك فلا ضرر في هذا على الإطلاق. بل على العكس، ربما يكون مفيدًا.

لكن شقيقته كان لها للأسف رأي آخر. فقد اعتادت دائماً أن تتصرف أمام والديها فيما يتعلق بـرشيهورش على أنها خبيرة في هذا الشأن، رغم أنها لم تكن كذلك بكل تأكيد. وكانت نصائح أمها كفيلة بأن تجعلها عازمة على إفراغ الغرفة، ليس فقط من خزانة الملابس والمكتب، وهو ما كانت تنويه في بادئ الأمر، بل من كل الأثاث الموجود فيها، باستنثناء الأريكة. لم يكن العناد الطفولي والثقة بالنفس وراء ذلك الإصرار فقط، لكنها لاحظت بالفعل أن رشيهورش عندما يزحف في حاجة إلى مكان أكثر اتساعًا، وأن الأثاث كما ترى لا يستخدمه على الإطلاق. لكن الأمر بدا وكأنه نوع من المثالية المعروفة عند فتاة في سنها، تبحث عن إشباع الرغبات في كل مناسبة. هذه الميول سيطرت على ماركيتا لتضفي على الحالة التي يعاني منها رشيهورش مزيدًا من البشاعة، وتمكنها من القيام بالمزيد من الأعمال له. فلن يتمكن أحد غير ماركيتا من الدخول إلى الغرفة التي يسيطر فيها رشيهورش علي حوائطها العارية.

وهكذا لم تسمح لأمها أن تؤثر في قرارها. كانت أمها تشعر في هذه الغرفة بالقلق، وفقدت كل يقين لديها، فالتزمت الصمت. وساعدت ابنتها قدر المستطاع في إخراج الخزانة خارج الغرفة. في الحقيقة رشيهورش يمكنه في أسوأ الأحوال أن يستغني عن الخزانة، لكن المكتب لا بد أن يبقى في الغرفة. وما أن إن خرجت السيدتان مع الخزانة إلى الخارج وهما يستندان عليها ويلهثان من التعب حتى أخرج

رشيهورش رأسه من أسفل الأريكة ليرى ماذا سيفعل بكل حذر وحرص ممكن. لكن لسوء الحظ عادت أمه إلى الغرفة قبل شقيقته التي كانت مازالت تطوق الخزانة بذراعيها خارج الغرفة، وتحاول عبثًا تحريكها هنا وهناك. لم تكن الأم معتادة على شكل رشيهورش، وقد تسقط مغشيًا عليها من منظره، فتقهقر رشيهورش مذعورًا نحو طرف الأريكة، ولم يستطع أن يحول دون تحرك الغطاء عنه قليلًا. وكان هذا كافيًا أن تراه أمه. ارتبكت وظلت واقفة في مكانها لا تتكلم، ثم انصرفت نحو ماركيتا.

ورغم أن رشيهورش كان يقول لنفسه مرارًا وتكرارًا إن المرء لا يتعلق بعمل كبير، فهما تعيدان ترتيب بعض قطع الأثاث، لكنه سرعان ما أقر بأن حركات السيدتين، وهديرهما، وصرير الأثاث فوق أرضية الغرفة يحدث ضجيجًا كبيرًا من كل اتجاه. ورغم أنه ضم رأسه وأقدامه فوق جسده، وضغط بطنه فوق أرض الغرفة، إلا أنه كان يعلم جيدًا أنه لن يتحمل هذا الوضع كثيرًا. فهما ترتبان له الغرفة، ستأخذان معهما كل ما يحبه، وهما الآن يتأرجحان مع المكتب الذي غاص في أرضية الحجرة. على هذا المكتب كان يكتب واجباته بصفته تاجرًا أكاديميًا، وتلميذ إحدى مدارس المدن، وأيضًا كتلميذ في مدرسة عامة – وصار الآن غير قادر على التكهن بنوايا هاتين السيدتين، وقد كاد ينسى أمرهما، لأنهما كانتا متعبتين إلى درجة جعلتهما تعملان في صمت، ولا يسمع سوى خبطات أقدامهما الثقيلة.

خرج من تحت الأريكة - وكانت السيدتان تستندان على المكتب بجوار الغرفة لتستريحا قليلًا -، غير اتجاه حركته أربع مرات، بالفعل لم يكن يعرف ما الذي عليه أن ينفذه أولًا. وهنا رأى أن الحوائط العارية تمامًا إلا من صورة سيدة ترتدي نفس المعطف الجلدي، فزحف إلى أعلى، والتصق بزجاج الصورة الذي تحمله، وبث شعورًا طيبًا على بطنه الملتهبة. على الأقل لن يأخذ أحد هذه الصورة التي يغطيها رشيهورش الآن بالكامل. التفت نحو باب غرفة الاستقبال كي يرى السيدتين وهما عائدتان.

عادتا إلى الغرفة بعد راحة قصيرة. كانت ماركيتا تمسك بذراع أمها وكادت تحملها. قالت ماركيتا وهي تنظر حولها: "ماذا سنأخذ الآن؟" وهنا وقعت عيناها على رشيهورش وهو عالق فوق الجدار. تمالكت نفسها بفضل وجود أمها، ثم مالت على والدتها بوجهها حتى تخفي عنها المشهد، وقالت دون تردد وهي ترتعد: "تعالي! سنذهب للحظات إلى غرفة الاستقبال. هل ستأتي معي؟". فهم رشيهورش ما تعنيه ماركيتا، كانت تريد أن تأخذ أمها إلى مكان آمن حتى ينزل من فوق الحائط. لتفعل ما تشاء! رشيهورش يجلس فوق اللوحة ولن يعطيهما إياها. ولو حاولتا سيقفذ على وجه ماركيتا.

بعثت كلمات ماركيتا الطمأنينة في قلب أمها، فطاوعتها. رأت بقعة بنية ضخمة فوق ورق الحائط الملون. وقبل أن تدرك أن تلك البقة التي

تراها هى رشيهورش نفسه صاحت بصوت أجش: "يا إلهي! يا إلهي!" وسقطت على الأريكة هامدة وهى باسطة يديها من اليأس. قبضت ماركيتا كفها، ونظرت إليه بحدة، وصاحت: "احترس يا رشيهورش!" كانت هذه هى المرة الأولى التي تخاطبه فيها مباشرة منذ أن تحول. أسرعت إلى الغرفة المجاورة لتحضر عطرًا تساعد به أمها على أن تستفيق من غيبوبتها. كان رشيهورش يريد أيضًا أن يساعدها – فلديه المزيد من الوقت ليدافع فيه عن لوحته لاحقًا - لكنه كان ملتصقًا بقوة بالزجاج، فسحب نفسه عنوة، وأسرع إلى الغرفة المجاورة، وكأنه يستطيع أن ينصح شقيقته بشيء، كما كان يفعل في السابق. أمسكت بعض القارورات الصغيرة، وانصرفت مهرولة، فوقعت إحداها على الأرض وانكسرت. تطايرت كسرة على وجه رشيهورش فأصابته. كان بالقارورة دواء ما خبيث سقط عليه. لم تتوقف ماركيتا، فأخذت كل ما عثرت عليه من الزجاجات في يدها، وانطلقت نحو أمها، ثم خبطت الباب بقدمها. صار رشيهورش الآن معزولًا عن أمه التي ربما تشرف على الموت بسببه. لا يمكنه أن يفتح الباب حتى لا تهرب شقيقته التي يجب أن تبقى مع أمه. لم يكن أمامه سوى الانتظار حزينًا، وملومًا، وخائفًا. أراد أن يزحف، فزحف فوق كل شيء، فوق الحوائط، وعلى الأثاث، وعلى السقف، وأخيرًا سقط يائسًا فوق الطاولة الكبيرة، عندما بدأ يشعر بأن الغرفة كلها تدور به.

مرت لحظات ورشيهورش يجلس مترهلًا، الهدوء يعم المكان، ربما كانت هذه علامة جيدة. وهنا رن جرس الباب. الخادمة تغلق على

نفسها باب المطبخ، فأسرعت ماركيتا لتفتح الباب. إنه والده. كانت أول كلمة قالها: "ماذا حدث؟" يبدو أنه قرأ كل شيء على وجه ماركيتا. أجابته ماركيتا بصوت مختنق وهى مسدلة الرأس: "أغشي على أمي، لكن حالتها تحسنت. لقد هرب رشيهورش" قال أبوها: "لقد توقعت هذا. كنت دائمًا أقول لكم هذا. لكنكم، أيتها السيدات، وكأنكم أصبتم بالطرش". فهم رشيهورش أن والده فسر كلام ماركيتا الموجز بأن رشيهورش قد ارتكب أعمالًا عنيفة. لذلك يجب أن يحاول أن يسترضي أباه، فلا وقت لشرح الأمر، كما أن هذا غير ممكن. انصرف نحو باب غرفته ودفعه كي يرى أباه وهو يخرج إلى الردهة أن رشيهورش ينوي بالفعل العودة طواعية إلى غرفته، وليس عليه أن يطارده، بل يكفي أن يفتح له الباب، وسيختفي على الفور.

لكن أباه لم يكن في حالة نفسية تسمح بمثل هذه الرقة. صاح عندما دخل الردهة: "آه!"، كان في صوته نبرة غضب وسعادة أيضًا. أدار رشيهورش رأسه من عند الباب ورفعها ناحية أبيه. لم يكن يتخيل أباه على هذه الهيئة التي يقف بها أمامه الآن. في الفترة الأخيرة انشغل بأموره الجديدة وبالزحف، ونسى أن يتابع ما يحدث في الشقة. كان يجب أن يكون مستعدًا لمواجهة التغيرات فى أحوال الأسرة. لكن ورغم هذا كله، هل هذا حقًا هو والده؟ هو ذلك الرجل الذي كان يستلقي في سريره متعبًا بينما رشيهورش يسافر في رحلات العمل، هل هذا هو الرجل الذي كان يستقبله في المساء وهو عائدٌ إلى البيت، يرتدي ثوبًا فضفاضًا فوق الأريكة، وغير

قادر على النهوض، ويرفع له يده سعيداً بعودته، وعندما كانوا يخرجون معًا من آن لآخر بضع مرات في العام، أيام الأحد أو الأعياد للتنزه، كان يمشي بين رشيهورش وأمه مستندًا عليهما. وكانا يضطران من أجله إلى السير على مهل. فقد كانت خطواته دائمًا بطيئة وهو ملفوف في معطفه القديم، ويتكئ على عصاه التي يضعها بحذر فوق الأرض. وكان كلما أراد أن يقول شيئًا، يقف ويجمع الناس من حوله. الآن يقف منتصبًا، ويرتدي زيًا حديثًا مهندمًا بأزرار ذهبية. يشبه زيّ عاملي البنوك. وفوق ياقة المعطف الصلبة تتدلى لحية ثنائية كثيفة، وأسفل حاجبيه الكثيفين تشع نظرة متألقة من عينين سوداوين. وشعر أشيب مصفف على جانبي رأسه بإتقان، بعد أن كان يومًا مبعثرًا. ألقى قبعة عليها أحرف ذهبية لأحد البنوك فوق الأريكة وهو يقف بعيدًا عنها، ثم تقدم نحو رشيهورش متجهمًا وذيل معطفه الطويل يرفرف في الهواء، واضعاً يديه في جيوب سرواله. لم يعرف هو نفسه ماذا سيفعل، لكنه رغم ذلك رفع قدميه عاليًا. تعجب رشيهورش من نعل حذائه العالي. لم يكن يبالي، فمنذ اليوم الأول من حياته الجديدة وهو يعرف أن أباه يعتبر أن التعامل معه يجب أن يكون صارمًا للغاية. فهرب أمام أبيه. ثم توقف عندما رأى أبيه لا يبرح مكانه، ثم انطلق من جديد عندما رآه يتحرك. دارا في الغرفة عدة مرات، دون أن يحدث أي شيء؟ بل على العكس، لم يظهر الأمر على أنه مطاردة نظرًا لإيقاعهما البطيء. لذلك ظل رشيهورش على الأرض، وخشي لو أنه صعد فوق الحائط أو السقف قد يعتبره أبوه نوعًا من سوء النية. اضطر رشيهورش في النهاية أن يعترف أن مثل هذه الحركة المتصلة قد أرهقته،

فكان كلما يخطو أبوه خطوة، يتبعها هو ببضعة حركات. بدأ يفقد أنفاسه. لم تكن رئتيه حتى قبل التحول في حالة جيدة. جرى أمامه وهو يترنح ويستجمع كل قواه للمواصلة، وعيناه مغمضتان جزئيًا. كان في حالة لا تسمح له بالفرار من أبيه إلا بالجري أمامه، ونسى أن هناك حوائط مكسوة بقطع الأثاث، والعديد من التجاويف والنتوءات – وهنا تطاير بجواره مباشرة شيء ثم تدحرج أمامه مما أثار في نفسه الذعر. شيء يشبه التفاحة، ثم تبعه بواحدة آخرى. توقف رشيهورش مذعورًا، كان من العبث مواصلة الهرب أمام أبيه، لأن أباه قرر أن يقذفه بالأشياء. ملأ جيوبه من وعاء فوق الخزانة، وراح يقذفه بتفاحة تلو الأخرى دون أن يصيبه. كانت تلك التفاحات الحمراوات الصغيرات تتدحرج فوق أرض الغرفة وتتصادم مع بعضها وكأن بها تيارًا كهربائيًا. لمست إحدى التفاحات ظهر رشيهورش بخفة، ثم انذلقت، ولم تصبه بأذى. وطارت أخرى نحوه، وارتطمت بظهره، أراد رشيهورش أن يواصل زحفه وكأنه سيتجاوز ذلك الألم الكبير لو غير مكانه، لكنه تسمر في مكانه، وتمدد على الأرض وقد سقط في حالة من الارتباك الكبير. وفي اللحظة الأخيرة رأى باب غرفته يُفتح بقوة، وتخرج منه أمه، وخلفها شقيقته التي تصرخ. كانت أمه ترتدي فقط قميصًا لأن ابنتها كانت أزالت عنها ملابسها حتى تتنفس بحرية بعد أن أصيبت بالإغماء. أسرعت أمه نحو أبيه وتنورتها المرتخية تتساقط منها، دفعتها بقدمها وتقدمت منه واحتضنته – زاغت عينا رشيورش – وأمسكت بيديه خلف رأسه وراحت تتوسل إليه ألا يقتل رشيهورش.

3

عاني رشيهورش لأكثر من شهر من جروح خطيرة – ولم يتمكن من التخلص من إحدى التفاحات التي التصقت بجسده وبقيت ذكرى حية لما حدث، تلك الجروح نبهت والده إلى أنه رغم الحالة الكريهة المؤسفة التي هو عليها الآن فلا يجب أن ينسى أن رشيهورش مازال عضوًا في الأسرة، ولا يجب أن يتعامل معه على أنه عدوّ له، بل واجبات الأسرة تفرض عليه أن يمتص غضبه، ويتحلى بالصبر، ولا شيء غير الصبر.

يبدو أن رشيهورش أصيب بعجز كبير عن الحركة نتيجة جراحه، وكان المرور بالغرفة يتطلب منه بضع دقائق وكأنه معاق عجوز – وبالطبع توقف عن الزحف فوق الأماكن المرتفعة –، ومقابل هذه الحالة السيئة حصل على تعويض، سبب له الرضا الكامل. فقد كانوا يتركون له باب الحجرة المؤدي إلى غرفة الاستقبال مفتوحًا، وكان يبقى لساعة أو ساعتين لا تبرحه عيناه. يجلس في غرفته المظلمة، حيث لا يراه أحد، وينظر إلى الأسرة المجتمعة حول الطاولة المضيئة، ويستمع إلى ما يقولونه بنوع من الرضا، على عكس ما كان في السابق.

لم يكن لحديثهم نفس روح السمر التي اتسم بها من قبل، والذي كان رشيهورش يتوق إليه وهو يتنقل بين غرف الفنادق، ويستلقي مرهقاً فوق أَسِرّة رطبة. كان أغلب حديثهم يدور همسًا. وكان أبوه يغلبه النوم وهو جالس فوق الأريكة بعد العشاء مباشرة. أما أمه

وشقيقته فكانت كل منهما تنبه الأخرى إلى أن تخفض من صوتها. كانت أمه تجلس غارقة في الضوء، وتحيك رداءً رقيقًا لإحدى مسابقات الموضة. وبدأت شقيقته العمل في وظيفة بائعة، وفي المساء تذاكر دروس الكتابة بالاختزال ودروس اللغة الفرنسية باجتهاد، على أمل أن تحصل يومًا ما على وظيفة أفضل. كان والده يستفيق أحياناً من نومه ويخاطب أمه وكأنه لم ينم، ويقول: "لماذا تحيكين حتى الآن؟"، ثم ينام من جديد. فتنظر أمه وشقيقته إلى بعضهما، ويبتسمان بضجر.

كان أبوه يكابر ويرفض أن يخلع بزة العمل حتى وهو في البيت. ظل رداء البيت معلقًا فوق الحامل سدًي. كان يغفو في مكانه وهو في كامل ملابسه، وكأنه في حالة تأهب للعمل، فهو في البيت يترقب سماع صوت رئيسه. والنتيجة هو أن زيه الذي لم يكن في الأصل جديدًا، صار متسخًا رغم حرص شقيقته وأمه على تنظيفه. كان رشيهورش كثيرًا ما يقضي المساء يتطلع إلى هذا الزي المليء بالبقع وبالأزرار المصقولة اللامعة، وينام العجوز بكل هدوء وهو يرتديه رغم أنه لم يكن مريحًا.

دقت الساعة العاشرة، فحاولت أمه إيقاظ أبيه بمحاولات هادئة لتجعله ينصرف لينام، فالمكان على الأريكة ليس مخصصًا للنوم الذي يحتاجه، وعليه أن يكون في عمله فى الساعة السادسة. لكن العناد الذي حل عليه منذ أن أصبح عاملًا كان يدفعه إلى أن يصر على البقاء قليلًا عند الطاولة رغم أن النوم يغلبه هناك. كانا يجتهدان كثيرًا لإجباره على

الذهاب للنوم في سريره بدلًا من المقعد، رغم إلحاح شقيقته وأمه، كان يهز رأسه لمدة ربع ساعة وهو مغمض العينين ولا يبرح مكانه. فتجره أمه من كُمّه وهي تداعبه في أذنه بكلمات معسولة، وتترك شقيقته واجباتها وتساعد أمها. لكن أباه يصر على ما هو عليه، ويغوص أكثر في الأريكة. ولا يفتح عينيه إلا عندما تجذبه السيدتان من ذراعه، فينظر إلى كل منهما للحظات، ويقول: "إنها الحياة. هذا هو الهدوء الذي انتظرته عندما يتقدم بي العمر   ثم ينهض متثاقلًا وهو يتكئ على السيدتين وكأنه صار عبئًا على نفسه. تسيران به نحو الباب. وهناك يومئ لهما بأن يذهبا، ثم يمضي وحده بعد أن تركت أمه الحياكة وألقت شقيقته بالقلم ونهضتا لمساعدته.

مَن في هذه الأسرة المثقلة بالأعمال المرهِقة لديه وقت لكي يهتم بـرشيهورش بالقدر الكافي؟ تقلصت ميزانية الأسرة بشكل كبير يومًا بعد يوم. خادمة طويلة وهزيلة كانت تأتي صباحًا ومساءً للقيام بالأعمال الشاقة في البيت. باقي الأعمال كانت أمه تتكفل بها، إضافة إلى أعمال الحياكة. علم رشيهورش ذات مساء أنهم باعوا المجوهرات التي كانت تلبسها أمه وشقيقته بكل سعادة وهما يترددان على حفلات السمر والأعياد. عرف هذا عندما سمعهم يتحدثون عن المقابل الذي حصلوا عليه مقابل تلك المجوهرات. كانوا يشتكون باستمرار من عدم قدرتهم على مغادرة هذه الشقة التي أصبحت كبيرة عليهم في ظل الأوضاع الجديدة، وأصعب ما في الأمر كان انتقال رشيهورش منها.

كان رشيهورش على قناعة بأنه لن يكون عائقًا عند انتقالهم، فيمكنهم أن يضعوه بكل بساطة في صندوق مناسب، ويصنعون فيه بضعة فتحات لدخول الهواء. ما يمنعهم من الانتقال إلى شقة أخرى هو بالأحرى اليأس الكامل، والتفكير بالكارثة التي حلت بهم بصورة لم تحدث لأحد من أقاربهم أو معارفهم. قاموا بكل ما يتوقعه المرء من أسرة بائسة. كان والده يحمل طعام الإفطار للعاملين في البنك، واشتغلت أمه في غسيل الملابس للغرباء، وكانت شقيقته تهرول خلف طاولة المتجر لخدمة الزبائن. ولم يبقى لدى الأسرة قوة لأعمال إضافية. عاودت رشيهورش آلام ظهره من جديد.

عندما عادت أمه وشقيقته إلى البيت بعد أن أوصلتا أباه إلى العمل، انصرفتا عن أية أعمال، وعانقت كل منهما الأخرى بوجهها، وأشارت أمه إلى غرفة رشيهورش، وقالت: "أغلقي هذا الباب يا ماركيتا". ومرة أخرى غرق رشيهورش وسط الظلام، بينما اختلطت دموع السيدتين، وتسمر وجهاهما على الطاولة بعد أن جفت دموعهما.

قضى رشيهورش أياماً ولياليَ دون أن ينام تقريبًا. أحيانًا كان يقول لنفسه إنهم حين يفتحون الباب في المرة القادمة سيتولى أمور الأسرة مرة أخرى، تمامًا كما كان يفعل من قبل. ولأول مرة بعد وقت طويل بدأت تتراءى له صورة رئيسه في العمل، والمدير المالي، والموظف الصغير الذي يعمل معه، وباقي زملائه، وعامل الفندق البليد، واثنين

من أصدقائه يعملان في متاجر أخرى، وعاملة الفندق في القرية. ذكريات جميلة خاطفة، تذكر بائعة في متجر القبعات. كان يومًا يفكر في الزواج بها مع شيء من التردد – تراءت صور كل هؤلاء أمام عينيه مختلطة بأناس آخرين غرباء. كل هؤلاء ابتعدوا عنه، بدلًا من أن يقدموا له ولأسرته يد العون. لكنه كان سعيدًا لاختفائهم على أية حال. ثم تقلص اهتمامه بأحوال الأسرة، وكانت الخدمة السيئة هى كل ما يزعجه. ورغم أنه لم يكن يعرف على وجه التحديد ما الذي يشتهيه، كان يبتدع خططًا للوصول إلى مخزن المؤن، ويأخذ منه ما يعجبه، رغم أنه لا يشعر بالجوع. توقفت شقيقته عن إجهاد نفسها لإرضاء رشيهورش. ففي كل صباح، وعند الظهيرة، قبل أن تغادر إلى العمل تدفع له الطعام بقدمها على عجلة، لا يهم أي طعام. وفي المساء تزيل بقاياه بالجاروف، غير عابئة بتناوله إياه – وكان هذا غالبًا ما يحدث – أم عدم تناوله. لم يعد تنظيف الغرفة الذي تقوم به في المساء سهلًا. فلطخات قذرة انتشرت على الحوائط، وتراكمت أكوام التراب والفضلات في كل مكان. كان رشيهورش في البداية يقف في أحد أركان الغرفة عندما تأتي شقيقته، ويوجه لها نظرات عتاب. كان يمكنه أن يقف هكذا لأسابيع دون أن تلتفت إليه شقيقته، فقد كانت ترى القذارة مثله تمامًا، لكنها قررت أنها لن تهتم بها. كانت تحرص بكل الحدة التي لم يعهدها فيها، والتي سيطرت على كل أفراد الأسرة على أن يكون تنظيف غرفة رشيهورش من مهامها هى وحدها. ذات مرة قامت أمها بنوبة تنظيف كبيرة في غرفة رشيهورش واستهلكت فيها كمية كبيرة من المياه

- عاش بعدها رشيهورش في حالة من الرطوبة الشديدة، فجلس فوق الأريكة منزعجًا وساخطًا لا يتحرك لكنها لم تسلم من العقاب، فما إن لاحظت شقيقته التغير الذي حدث في غرفة رشيهورش حتى هرولت إلى غرفة الاستقبال وهى تشعر بالإهانة، أقسمت لها والدتها بأغلظ الأيمان في حالة من اليأس، إلا أنها انفجرت في بكاء شديد. كان والداها يتابعانها - وخاصة أبوها الذي انتفض من مقعده - باندهاش العاجز، حتى أصابهما الغضب هما أيضًا. أبوها من ناحية يعاتب أمها بأنه كان عليها أن تترك غرفة رشيهورش لكي تتولاها شقيقته، ومن ناحية أخرى يصرخ في شقيقته ويهددها بأنه لن يسمح لها أن تنظف حجرة رشيهوش بعد اليوم. بينما أمها تسعى إلى مساعدة أبيها ليذهب إلى غرفته، وهى التي لم تره من قبل في هذه الحالة من الهياج، أما شقيقته التي تنتفض من الغضب فتخبط بقبضة يدها الصغيرة على الطاولة. ورشيهورش يصفُر مستاءً من أنهم نسوا أن يغلقوا الباب حتى ينقذوه من هذا المشهد وهذا الضجيج.

لم يكن صحيحًا على الإطلاق أن تدافع عنها أمها. ورغم أن شقيقته المرهقة من العمل في المتجر توقفت عن الاهتمام به كما كانت تفعل من قبل، فلا يجب أن يهملوا رشيهورش. كانت الخادمة تتواجد باستمرار. إنها أرملة عجوز، تحملت في حياتها بفضل بنيتها القوية الكثير من المتاعب، لذلك لم تكن تشعر تجاه رشيهورش بأي نفور. فذات مرة فتحت باب غرفته صدفة دون أن تبدي أي نوع من الفضول،

وما إن رأت رشيهورش وقد أصيب بدهشة كبيرة وراح يجري هنا وهناك رغم أن أحدًالم يطارده من قبل حتى وضعت يديها حول خصرها، ولم تبرح مكانها. ومنذ ذلك الوقت لم تُفوّت يومًا. كانت تأتي صباحًا ومساءً وتفتح الباب للحظات، ثم تلقي على رشيهورش نظرة وتنصرف. كانت تناديه في البداية بكلمات تعتبرها على مايبدو لطيفة، فتقول له مثلًا: "تعال هنا أيها الحثالة العجوز!"، أو "فلنلق نظرة على هذا الحثالة العجوز!" لم يكن رشيهورش يستجيب لتلك الكلمات على الإطلاق، وكان يلازم مكانه ولا يتحرك، وكأنها لم تأت أصلًا. ألم يكن من الأفضل أن يطلبوا من هذه الخادمة أن تنظف له غرفته يوميًا، بدلًا من أن يتركوها تأتي بلا داعي لتزعجه وقتما تشاء! بدأت تلك الخادمة ذات يوم، في الصباح الباكر – كانت قطرات المطر الشديد تصفع النافذة بقوة، ربما كان هذا إيذانًا بقدوم الربيع – في ترديد كلماتها المعهودة، وهو ما أثار غضب رشيهورش، فاستدار نحوها بهدوء، وكأنه يريد أن يهجم عليها. بدلًا من أن تفزع، رفعت مقعدًا بجوار الباب إلى أعلى، ووقفت بفمها المفتوح عن آخره، وصار من المؤكد أنها لا تنوي غلق الباب قبل أن يسقط المقعد الذي تحمله في يدها على ظهر رشيهورش. ولما استدار رشيهورش مرة أخرى، قالت: "أهذا كل شيء عندك؟" ثم أعادت المقعد إلى ركن الغرفة مرة ثانية.

لم يتناول رشيهورش في ذلك اليوم أي نوع من الطعام. عندما مر صدفة بجوار الطعام الموجود على الطاولة التقط فقط قطعة من الخبز

ليلهو بها. وضعها في فمه عدة ساعات، ثم بصقها في النهاية. كان يرى في بادئ الأمر أنه فقد شهيته للطعام حزنًا على ما حدث لحجرته، لكنه سرعان ما اعتاد التغيرات التي حدثت فيها. واعتاد الآخرون أن يلقوا في غرفته بالأشياء التي لا يحتاجونها، وكانت كثيرة، خاصة عندما أسكنوا في إحدى الغرف ثلاثة رجال. كان الرجال الثلاث جميعًا من ذوي اللحى، وكانوا يحرصون جميعًا على النظافة الشديدة، ليس فقط في غرفتهم، بل في كل أنحاء البيت الذي يعيشون فيه، وخاصة في المطبخ. كانوا يكرهون الأشياء الزائدة عن الحاجة، أو الأشياء القذرة. كما أنهم أحضروا كل أمتعتهم معهم. لهذا السبب ظهرت في الشقة أشياء زائدة عن الحاجة، لم يتمكنوا من بيعها، وأرادوا أن يحتفظوا بها. كل هذه الاشياء انتهى بها المطاف في غرفة رشيهورش، وكأنها طفاية سجائر، أو سلة لفضلات المطبخ. وكل ما زاد عن حاجتهم كانوا يعطونه للخادمة، فتلقيه بكل بساطة في غرفة رشيهورش.

لم يكن رشيهورش لحسن الحظ يرى سوى الشيء الذي ينقلونه إلى غرفته واليد التي تحمله. ربما كانت الخادمة تنوي أن تأخذ هذه الأشياء مرة أخرى بعد فترة عندما تصبح الظروف ملائمة، أو أن تتخلص منها مرة واحدة. لكنها في الواقع ظلت في مكانها كما أحضروها. وعندما كان رشيهورش ينهض ويكافح وسط هذ النفايات، كان يدفعها عن مكانها في حالة الضرورة فقط، لأن المكان ضاق عليه، لكنه فيما بعد كان يفعل ذلك بكل سعادة رغم الإرهاق الذي كان يحل

به بعد عمليات الرفع العنيفة، وبعدها يسقط حزينًا من الإرهاق، ويظل لساعات بدون حراك.

كان المستأجرون أحيانًا يتناولون طعام العشاء في البيت في غرفة الاستقبال الجماعية، لذلك كان الباب المؤدي إلى الغرفة يظل موصدًا طوال الليل. استطاع رشيهورش أن يتحمل هذا الأمر بكل سهولة، فلم يكن يستغل كل الوقت عندما يكون مفتوحًا في المساء، وكان يظل مستلقيًا في أكثر أركان الغرفة ظلامًا دون أن تلاحظ أسرته هذا الأمر. وذات مرة تركت الخادمة الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال مواربًا. وظل الباب هكذا إلى أن دخل السادة المستأجرون إلى الغرفة وأضاءوا الأنوار. جلسوا عند الطاولة، في المكان الذي كان يجلس فيه من قبل أبوه وأمه ورشيهورش. بسطوا مفرشًا على الطاولة، وأمسكوا سكينًا وشوكة. وعلى الفور ظهرت أمه عند الباب وهى تحمل وعاءً من اللحم، وتبعتها شقيقته تحمل وعاءً آخر ممتلئًا بالبطاطس. كان البخار يتصاعد من الطعام بطريقة تثير الشهية. انحنى السادة المستأجرين على الأطباق التي وضعت أمامهم لينظروا إليها قبل أن يشرعوا في الطعام. كان الرجلان يعاملان ثالثهما الجالس في المنتصف وكأنه ذو سلطة عليهما. قطع أحدهم قطعة من اللحم الموجود في الوعاء كي يرى إن كان اللحم قد نضج، أم سيعيده إلى المطبخ ثانية. كان يبدو راضيًا، فانفرجت أسارير أمه وشقيقته اللتين كانتا تنظران بكل ترقب.

تناولت الأسرة طعامها في المطبخ. دخل أبوه إلى الحجرة قبل أن ينصرف إلى المطبخ، وانحنى لهم باحترام وهو يمسك قبعته في يده، ثم جال حول الطاولة. نهض السادة المستأجرون وهمهموا له ببعض الكلمات. وعندما صاروا وحدهم واصلوا طعامهم في صمت تام. تعجب رشيهورش من أنه كان يسمع في كل لحظة من بين الأصوات المختلفة أثناء الطعام صوت أسنانهم وهى تمضغ. نبهه هذا إلى أن الطعام يحتاج إلى أسنان، وأن الفكين بدون أسنان لا فائدة منهما. وصاح رشيهورش بجزع: "أنا أشتهي الطعام، لكن ليس طعامًا كهذا. أطعموا هؤلاء المستأجرين! أطعموهم! وأنا هنا أتضور جوعًا!"

في ذلك المساء سمع أصوات آلة كمان قادمة من المطبخ. وهو لا يتذكر أنه سمع صوت إحداها طوال هذه المدة. فرغ السادة المستأجرون من عشائهم، وأخرج أوسطهم الجريدة، وراح يناولهم إياها ورقة بعد الأخرى. وراحوا جميعًا يقرأون وهم جالسون فوق مقاعدهم ويدخنون. انتبهوا عندما سمعوا صوت الكمان. نهضوا، واتجهوا على أطراف أصابعهم نحو الباب المؤدي إلى ردهة البيت. وقفوا هناك متلاصقين، واحدًا وراء الآخر. كانوا يسمعون الأصوات القادمة من المطبخ. نادى أبوه: "هل أعجب السادة عزف الموسيقى؟ يمكننا أن نتوقف فورًا لو أردتم" قال أوسطهم: "بالعكس. ألا تريد الآنسة أن تأتي عندنا، وتعزف هنا في الغرفة، فالمكان هنا أكثر راحة وهدوءًا. أجابهم الأب: "تحت أمرك!"، وكأنه هو من يعزف. تراجع السادة إلى الغرفة

ينتظرونهم. أول من دخل كان الأب، يحمل في يده حامل النوتة الموسيقية، ثم تبعته أمه في يدها وريقات النوتة، ومن بعدهما ابنتهما ومعها الكمان. أعدت شقيقته كل شيء لتبدأ العزف. بالغ والداه كثيرًا في إظهار الاحترام للسادة المستأجرين، وكانت هذه هى المرة الأولى التي يؤجّرون فيها غرفة لأحد. لم يقبلا أن يجلسا على المقعد. فوقف الأب متكئاً على الباب، ووضع يده اليمنى بين زرارين في معطفه. قدمت أمه مقعدًا لأحد الرجال، وتركته حيث يقف، ثم جلست في ركن الغرفة.

بدأت شقيقته العزف. وراح أبوه وأمه يتابعانها، كل منهما يراقب من ناحيته حركات يديها. أعجب رشيهورش العزف، فتجرأ وتحرك من مكانه حتى صارت رأسه في غرفة الاستقبال لم يدهشه أنه في الآونة الأخيرة لا يحسب للآخرين حسابًا إلا قليلًا. كان احترامه للآخرين في السابق من دواعي فخره. والآن صار هناك سبب يجعله يتوارى. فالتراب الذي انتشر في كل أرجاء الحجرة هبّ عليه وغطاه هو أيضًا. علقت الخيوط وبقايا الشعر والطعام على ظهره وعلى جوانبه. صار لا يهتم لأي شيء، المهم هو أن يستلقي على ظهره، ويتمرغ فوق السجادة كما كان يفعل من قبل عدة مرات في اليوم. ورغم مظهره هذا، لم يتردد في أن يتقدم زاحفًا على أرضية غرفة المعيشة النظيفة.

غير أن أحداً لم يره. كانت الأسرة مفتونة بالعزف على الكمان، وقف السادة المستأجرون في البداية وهم يضعون أيديهم في جيوب سراويلهم

خلف حامل النوتة مباشرة، فكانوا يرون جميعًا النوتة عن قرب، الأمر الذي أزعج شقيقته بالتأكيد، ثم حنوا رءوسهم جميعًا وهم يتهامسون، ثم تراجعوا بسرعة نحو النافذة. وظلوا واقفين هناك. كان أبوه يتابعهم بقلق. أعطوه انطباعًا واضحًا بأنهم بالغوا كثيرًا في توقعاتهم بعزف جميل ومسلٍ على الكمان، وأنهم سئموا من هذا العزف، ويضحون بلحظات من الهدوء من باب اللياقة فقط. الطريقة الغريبة التي كانوا ينفثون بها الدخان من غلايينهم عبر أنوفهم وأفواههم في الهواء تنبئ عن حالة من العصبية الكبيرة. لكن شقيقته رغم ذلك كانت تعزف بمهارة. كان وجهها مائلًا تمامًا فوق كتفها، وعيناها تتابعان بكل حزن وتدقيق صفوف النوتة. قطع رشيهورش مسافة أخرى زحفًا وهو يحافظ على رأسه ملتصقة بأرضية الحجرة حتى يستطيع رؤيتها. أهو حيوان يطرب لسماع الموسيقى؟ انتابه شعور بأن طريقًا إلى طعام مجهول بحث عنه طويلًا ينفتح أمامه. اتخذ قرارًا بأن يتقدم نحو شقيقته، ويجذبها من يده يدها ويطلب منها أن تأخذ الكمان وتذهب إليه في غرفته، فلن يكافئها على عزفها هنا أحد أكثر منه. ولن يتركها تغادر غرفته، طالما ظل حيًا على الأقل، وسيحول شكله البشع إلى شيء مفيد ولو لمرة واحدة. وسوف يحرس الغرفة عند كل الأبواب، ويواجه من يهاجمها. لكن شقيقته يجب أن تبقى عنده مخيرة غير مصيرة. ستجلس بجواره على الأريكة، تميل عليه بأذنها، وسيخبرها بأنه كان عاقد العزم على أن يرسلها إلى معهد الموسيقى، وكان يخطط أن يخبر الجميع بهذا الأمر في عيد الميلاد، لولا هذه الحادثة – هل مرت الأعياد؟ ولن يلقي بالًا لأي اعتراضات. ستنفجر شقيقته بعد هذه

الكلمات في البكاء من التأثّر، وعندها سينهض رشيهورش ويستند على كتفيها ويقبلها من رقبتها، التي خلت من أية أشرطة من القماش أو ياقات منذ أن بدأت تذهب للعمل في المتجر.

نادى الرجل الأوسط على الأب: "ياسيد سامسا!"، وأشار بإصبعه نحو رشيهورش دون أن ينطق كلمة. تقدم رشيهورش على مهل. توقف صوت الكمان. ابتسم الرجل الأوسط في بادئ الأمر لأصدقائه وهو يهز رأسه، ثم حملق في رشيهورش مرة أخرى. وبدلًا من أن يصرف رشيهورش اعتبر أبوه أن من الواجب تهدئة السادة المستأجرين، رغم أنهم لم يغضبوا كثيرًا من الأمر. جذبهم شكل رشيهورش أكثر من موسيقى الكمان. هرول الأب نحوهم، وحاول أن يدفعهم بيديه المنبسطتين إلى داخل غرفتهم، وهو يعوق بجسده النظر ناحية رشيهورش. غضب الرجال كثيرًا. لم يكن واضحًا إن كانوا غضبوا من سلوك الأب، أم لأنهم علموا الآن فقط أن لهم جارًا مثل رشيهورش طوال الوقت، ولم يخبرهم أحد بذلك. طالبوا أباه بتفسير، ثم رفعوا أيديهم من تلقاء أنفسهم، وأمسكوا بلحاهم، وتراجعوا على مهل إلى داخل غرفتهم. استفاقت شقيقته من التفكير الذي انغمست فيه بعد أن قاطعوا العزف أكثر من مرة، انتبهت فجأة بعد أن كانت تمسك بالكمان والقوص بيديها المسدلتين وتنظر إلى النوتة وكأنها مازالت تعزف، وضعت الآلة في حِجر أمها التي كانت لاتزال تجلس على المقعد، وتجاهد في التقاط أنفاسها التي انقطعت بعد أزمة الربو، وأسرعت إلى الغرفة المجاورة

التي يتجه إليها السادة المستأجرون بسرعة بناء على طلب أبيها. وهناك تطايرت الأغطية والوسائد على الأسِرّة، واستوت بفضل يدي ابنتهم الماهرة. رتبتها قبل أن يصلوا إليها، ثم انسلت خارجها. يبدو أن عناد أبيه جعله ينسى أية مظاهر تقدير عليه أن يظهرها للسادة المستأجرين. وراح يدفعهم، ويلح في دفعهم، مما جعل أوسطهم يضرب بقدمه بقوة، فتوقف أبوه. ورفع أوسطهم يده وهو يبحث بعينيه عن الفتاة وأمها، وقال: "أعلن أنه نظرًا للأوضاع الشاذة السائدة هنا في هذه الشقة – وبالتأكيد بصق وهو يتكلم – أعلن أني سأترك فورًا الغرفة التي استأجرتها هنا. ولا أنوي أن أدفع مقابل الأيام التي قضيتها هنا أية مبالغ، بل على العكس، أفكر في أن أطالبكم – صدقوني – بالتعويضات المناسبة" وصمت الرجل وهو يتطلع أمامه مباشرة وكأنه ينتظر شيئًا ما. وعلى الفور تبعه صديقاه، وقالا: "ونحن أيضًا سنغادر البيت على الفور ثم أمسك أوسطهم بقبضة الباب وصفعه وراءه. راح والده يتهدج ويتحسس طريقه نحو المقعد، ثم سقط عليه. بدا وكأنه يريد أن يمدد جسده ويستسلم للنعاس كالعادة. لكن هزات رأسه العنيفة وكأنها لا يقوى على حملها أفادت بأنه لم يكن نائمًا. ظل رشيهورش طوال هذه الفترة صامتًا، وهو قابع في المكان الذي رآه فيه السادة المستأجرون. كان محبطًا من أن محاولاته باءت بالفشل، وربما الوهن نتيجة الجوع المتكرر جعله غير قادر على الحركة. كان ينتظر متوجسًا أن يهجموا عليه جميعًا في اللحظات التالية، وراح ينتظر. لم يخفه صوت الكمان الهادر الذي سقط من بين أصابع أمه المرتعشة.

قالت شقيقته بعد أن خبطت بيدها على الطاولة: "والدي العزيزان! لا يمكن أن تستمر الأمور كما هي عليه. لو أنكما لم تدركا بعد ما حدث، فأنا أدركه. لا أريد أن أنطق اسم شقيقي على مسمع من هذا المسخ، ولن أقول سوى هذا: يجب أن نتخلص منه. لقد حاولنا بكل ما أوتينا من قوة كبشر أن نهتم به، وتحملناه بصبر، وأعتقد أن أحدًا لن يلومنا على ما سنفعله على الإطلاق".

قال أبوها يخاطب نفسه: "عندها ألف حق!". كانت أمها التي لم تلتقط أنفاسها بعد تسعل في راحتيها وهى زائغة البصر.

أسرعت الابنة نحو أمها، ووضعت يدها فوق جبينها. وراح الأب يفكر فيما قالته ابنته، استوى على المقعد، وراح يعبث بقبعة العمل بين أطباق الطعام التي بقيت فوق الطاولة منذ آخر عشاء للسادة المستأجرين، ومن وقت لآخر يتطلع نحو رشيهورش.

قالت الابنة لأبيها بكل وضوح بينما أمها تسعل ولا تسمع: "لابد أن نجد طريقة للتخلص من هذا المسخ. فلسوف يقتلكما، هذا ما أراه. لا يمكن لأسرة مثلنا أن تعيش في البيت في هذا العذاب وهى تعمل ليل نهار. وأنا لم أعد أحتمل" ثم انهمرت دموعها وسالت على وجه أمها، فمسحتها بيدها بحركة تلقائية.

قال الوالد بنبرة تعاطف وتفهّم واضح: "يا أولادي! ماذا سنفعل إذن؟" هزت الابنة كتفيها علامة على الحيرة التي انتابتها رغم كل الثقة التي امتلكتها من قبل.

"لو أنه يفهم ما نقوله"، قال أبوه متسائلًا، بينما هزت شقيقته يدها وهى غارقة في الدموع لتخبره أن هذا غير وارد على الإطلاق.

كرر أبوها السؤال، وهو يومىء بعينيه ليؤمن على ما تقوله ابنته من أنه لا يفهمهم: "لو أنه يفهم ما نقوله لكان من الممكن الاتفاق معه، لكن في حالته تلك.

قالت الابنة: "يجب أن يخرج من الأسرة، إنها الطريقة الوحيدة يا أبي! يجب أن تتوقف عن اعتباره رشيهوش. إن مصيبتنا تكمن في أننا اعتقدنا طوال الوقت أنه كذلك. لكن كيف يمكن أن يكون رشيهورش؟ لو كان رشيهورش لاعترف منذ البداية أن الناس لا يمكنها أن تعيش مع حيوان كهذا، وكان سينصرف من تلقاء نفسه. وكنا سنعترف أنه ليس منا، ولاستطعنا مواصلة الحياة، وإحياء ذكراه بكل احترام. لكن هذا المسخ يتعقبنا، يستفز المستأجرين، ويخطط على ما يبدو لملاحقة كل الأسرة، ويجعلنا ننام في الشارع. انظر يا أبي!"، ثم صرخت فجأة: "ها هو قد بدأ من جديد!" ثم انصرفت الابنة من عند أمها في هلع، وهو الأمر الذي لم يفهمه رشيهورش، ثم انتفضت من فوق المقعد وكأنها تريد أن تضحي بأمها بدلًا من الوقوف بالقرب من رشيهورش،

واختبأت خلف أبيها الذي انزعج من تصرفها، فنهض هو الآخر ورفع يديه أمام ابنته وكأنه يحاول أن يدافع عنها.

لكن رشيهورش لم يكن يقصد أن يُرهِب أحدًا، أو على الأقل شقيقته. كل ما فعله أنه استدار حتى يستطيع العودة إلى حجرته، لكن حركته كانت قوية، ففي حالته البائسة تلك كان مضطرًا إلى أن يستعين برأسه التي رفعها عدة مرات، وألقى بها على الأرض. توقف عن الحركة وتطلع حوله. كان واضحًا أنهم فهموا حسن نواياه، وكان هذا مجرد خوف مؤقت. وراح الجميع ينظرون إليه بحزن وفي صمت. جلست الأم فوق المقعد، ومددت قدميها وهما متلاصقتان، كانت عيناها مسبلتين بتأثير الإغماء. جلس الأب والابنة متجاورين، وطوقت الابنة رقبة أبيها بيديها.

قال رشيهورش لنفسه: الآن يمكنني أن أستدير، ثم عاود المحاولة وهو يلهث من الإرهاق دون أن يتمكن من كتمان صوته، ثم توقف قليلًا ليلتقط أنفاسه. لم يتعجله أحد منهم، وتركوا له الأمر بالكامل. وانطلق عائدًا إلى غرفته بمجرد أن استدار. هالته المسافة الطويلة التي تفصله عن حجرته. لم يدرك على الإطلاق أنه ضعيف إلى هذا الحد، رغم أنه قطع كل هذه المسافة قبل قليل دون أن يلحظ ذلك. لم يفكر إلا في أن يزحف سريعًا. لاحظ أن أسرته لم تزعجه لا بكلمةٍ ولا بصرخةٍ واحدة. عند الباب أدار رأسه قليلًا، شعر بأن رقبته قد تيبست، لكنه رأى أن

شيئًا من خلفه لم يتغير. مجرد أن شقيقته كانت تقف. ألقى نظرته الأخيرة على أمه، التي استسلمت تمامًا للنوم.

وبمجرد أن دخل إلى حجرته صفع أحدهم الباب خلفه وأحكم إغلاقه. أثار صوت الضجيج الفزع في نفس رشيهورش حتى كادت سيقانه تسقط منه. كانت شقيقته تترقبه، ثم نهضت من على المقعد، وانتظرت قليلًا، بعدها تقدمت بكل حيوية. لم يدرك رشيهورش أنها كانت تتجه نحوه، ثم صاحت تخاطب والديها وهى تدير المفتاح في الباب: "أخيرًا!"

قال رشيهورش لنفسه متسائلًا وهو يلتفت حوله: "ماذا سيحدث الآن؟" وسرعان ما تأكد من أنه لايستطيع الحركة على الإطلاق. لم يستغرب الأمر كثيرًا، بل بالأحرى كان يرى أنه من غير الطبيعي أنه تمكن من المشي على أقدامه الرفيعة هذه حتى الآن. باستثناء ذلك كان يشعر بأنه في حالة جيدة، ألم خفيف يسري في أجزاء جسمه، رغم ذلك كان يشعر أن الألم يتقلص تدريجيًا حتى يختفي تمامًا. بدأ يشعر بالتفاحة المتعفنة التي التصقت بظهره وما حولها من محيط ملتهب تراكم عليه تراب ناعم وغطاه تمامًا. راح يفكر فى أسرته مفعمًا بالحب تجاههم. كان مقتنعًا أكثر من شقيقته بأن عليه أن يختفي. ظل في هذه الحالة من التأمل الهادئ المسترسل إلى أن دقت ساعة البرج الثالثة صباحًا. انتشر نور الصباح خلف النافذة في كل مكان، وكان لايزال على

قيد الحياة. ثم سقطت رأسه تمامًا من تلقاء نفسها، وخرج ضعيفًا آخر نفس من صدره.

في الصباح جاءت الخادمة – بنفس الهرولة والحيوية، رغم أنهم طلبوا منها مرارًا ألا تفعل هذا-وراحت تصفع الأبواب. ولم يستطع أحد في البيت أن ينام بمجرد وصولها. لم تجد أثناء زيارتها الخاطفة المعتادة لـرشيهورش شيئًا غريبًا. اعتقدت أنه مستلقٍ، ولا يتحرك عن عمدٍ ليعبر لها عن انزعاجه. كانت متأكدة من أنه قادر على ابتكار أفكار مختلفة. كانت تمسك بالصدفة في يدها مقشة ذات ذراع طويلة، فأرادت أن توخز به رشيهورش وهى تقف عند الباب. ولما لم يسفر هذا عن شيء، غضبت وزادت من وخزها له. وعندما رأت أنها استطاعت أن تحركه من مكانه دون أية مقاومة منه انتفضت في مكانها. وبعد أن تأكدت مما حدث، جحظت عيناها وصفرت بفمها، ولم تهدر وقتًا، ففتحت الباب المؤدي إلى غرفة النوم بقوة، وصاحت بصوتٍ عالٍ وسط الظلام: "تعالوا أنظروا! لقد مات، لقد سقط مفارقاً الحياة!"

وقف الزوجان منتصبين فوق اللزوجة، جاهدا حتى يستفيقا من الفزع الذي سببته الخادمة قبل أن يدركا ما قالته لهما. نزلا من فوق السرير، كل من ناحيته، وضع السيد سامسا الغطاء فوق كتفيه، وخرجت زوجته مرتدية لباس النوم، ثم دخلا إلى غرفة رشيهورش. وانفتح الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال التي كانت ماركيتا تنام فيها

منذ قدوم المستأجرين. كانت في كامل ملابسها وكأنها لم تنم على الإطلاق. وكان وجهها الشاحب ينم عن هذا. قالت الأم وهى تنظر إلى الخادمة متسائلة: "مات؟". كانت الأمور كلها واضحة، ولم تكن بحاجة إلى أن يقنعها أحد بما حدث. أجابتها الخادمة: "أعتقد ذلك" ثم أزاحت جثة رشيهورش عن مكانها قليلًا لتؤكد ما تقوله. تحركت زوجة السيد سامسا وكأنها تريد أن تمسك بالمقشة، لكنها لم تفعل. قال السيد سامسا: "حسنًا، علينا أن نحمد الله على هذا" رسم الصليب بيديه على صدره، وكذلك فعلت النساء الثلاث من بعده. قالت ماركيتا التي لم تفارق عيناها الجثة: "انظروا! كم كان نحيفًا. لعله لم يأكل شيئاً منذ مدة طويلة. كنت أحمل الطعام من عنده كما هو بالفعل كان جسد رشيهورش هزيلًا وجافاً تمامًا. كان هذا واضحًا منذ صارت أقدامه لا تقوى على حمله، وفقد تركيزه تمامًا.

قالت السيدة سامسا: "تعالي يا ماركيتا، تعالي هنا عندنا دقيقة واحدة"، فذهبت ماركيتا إلى غرفة نوم والديها وعلى وجهها ابتسامة ألم. لم تنس أن تلقي نظرة على الجثة. أجواء هادئة اختلطت بهواء الصباح المنعش رغم أن الوقت كان لايزال مبكرًا. وكان شهر مارس يشرف على نهايته.

خرج الرجال الثلاث المستأجرون من غرفتهم، ونظروا بدهشة إلى طعام الإفطار. لقد نسوا أن يعدوه لهم. سأل أوسطهم الخادمة بغضب:

"أين الفطور؟" لكن الخادمة وضعت إصبعها على فمها، وأومأت بصمت للرجال كي يدخلوا إلى غرفة رشيهورش. دخلوا، ووقفوا في الغرفة التي ملأها الضوء، يضعون أيديهم في جيوب معاطفهم البالية حول جثة رشيهورش.

وهنا انفتح الباب المؤدي إلى غرفة النوم، وظهر السيد سامسا بزيه، التصقت به من ناحية زوجته، ومن الناحية الأخرى ابنته. كانت عيونهم جميعًا دامعة، مالت ماركيتا بوجهها على كتف أبيها.

قال السيد سامسا وهو يشير بيده نحو الباب ومن حوله السيدتان: "أخرجوا من بيتي حالًا!" سأل أوسطهم مندهشًا: "ماذا تقصد؟"، ثم ابتسم بعدها. عقد الرجلان الآخران أيديهم خلف ظهورهم وهم يفركونها باستمرار انتظارًا لمشاجرة وشيكة، من المؤكد أنها لن تنتهي لصالحهم. أجابه السيد سامسا: "أقصد ما قلته على وجه الدقة". ثم توجه ومعه السيدتان نحو السيد المستأجر. ظل المستأجر واقفًا في مكانه بلا حراك وهو ينظر إلى الأرض، وكأن الأمور بدأت تتبدل في رأسه بصورة جديدة. ثم قال: "حسنًا، سننصرف"، ثم رفع رأسه ونظر إلى السيد سامسا وكأنه ينتظر في نوبة التواضع هذه موافقة جديدة على هذا القرار. حملق فيه السيد سامسا عدة مرات بنظرات حادة قصيرة. وعلى الفور توجه الرجل بخطوات واسعة إلى الردهة. استمع صديقاه لما حدث ولم تظهر على أيديهم أية علامة على

الانفعال، وتبعاه مباشرة، ربما خوفًا من أن يسبقهم السيد سامسا إلى الردهة ويقطع عليهما اتصالهما بقائدهما. أخذ الثلاثة قبعاتهم من فوق الحامل، وحملوا عصيهم من حامل آخر، ثم انحنوا في صمت، وغادروا الشقة. خرج السيد سامسا مع السيدتين إلى دهليز البيت في حالة من الشك غير المبرر كما حدث، وراحوا ينظرون وهم متكئون على سور السلم إلى الرجال الثلاث وهم ينزلون درجات السلم على مهل وبلا توقف يختفون مع كل انحناءة للسلم في كل دور، ثم يظهرون من جديد بعد لحظات. وكلما تعمقوا إلى أسفل كلما فتر اهتمام عائلة سامسا بهم. وعندما مر بهم عامل من محل جزارة وهو يصعد منتصب القامة ويحمل فوق رأسه نقالة، غادر السيد سامسا والسيدتان سور السلم، وعادوا جميعًا إلى المنزل وهم يشعرون بالراحة.

قرروا أن يستريحوا في هذا اليوم ويذهبوا للتنزه. كانوا جديرين بمثل هذه الإجازة من العمل، وأيضًا في حاجة ماسة إليها. فجلسوا جميعًا حول الطاولة، وكتبوا ثلاثة خطابات اعتذار. كتب السيد سامسا لرئيسه في العمل، وزوجته لعملائها، وماركيتا لمديرها. جاءت الخادمة وهم يكتبون الخطابات وأخبرتهم أنها ستنصرف بعد أن أنجزت أعمالها الصباحية، أومأوا لها جميعًا برءوسهم دون أن ينظروا إليها. وقبل أن تنصرف الخادمة نظروا إليها جميعًا بتجهم. سألها السيد سامسا: "ماذا؟" وقفت الخادمة عند الباب وهى تبتسم لهم وكأنها تحمل خبرًا سارًا للأسرة، وأنها سوف تكشف عنه فقط بعدما يلحون

عليها بالسؤال. كانت ريشة النعام الصغيرة تتهادى فوق قبعتها في كل اتجاه، وهى الريشة التي لم ترق للسيد سامسا طوال مدة خدمتها عندهم. سألتها زوجة السيد سامسا التي كانت الخادمة تكن لها كل الاحترام: "ماذا تريدين؟" أجابتها الخادمة بضحكات لطيفة، وقالت: "حسنًا، لا تشغلوا بالكم بالتخلص من هذا الشيء هناك. لقد اهتممت بالأمر انكفأت الأم وابنتها على الخطابات، وأرادتا أن يواصلا الكتابة. لكن السيد سامسا الذي لاحظ أن الخادمة تود الإسهاب في شرح الأمر أشار إليها بيده لتتوقف. تذكرت أنها على عجلة من أمرها بعد أن رأت أنه لا يمكنها الحديث، فصاحت غاضبة: "ألقاكم على خير!". ثم استدارت بحدة، وصفعت الباب بشدة، وانصرفت.

قال السيد سامسا: "في المساء سأطردها من العمل"، لكن لم يرد عليه أحد، لا زوجته، ولا ابنته. إذ يبدو أن الخادمة قد عكرت عليهم الهدوء الذي استعادوه. وهمت السيدتان وتوجهتا نحو النافذة، ووقفتا هناك متعانقتين. التفت السيد سامسا إليهما من على مقعده، وراح يتطلع إليهما للحظات، ثم قال: "تعاليا هنا! دعكما مما حدث، واهتما بي ولو قليلًا". على الفور استجابت السيدتان، وأسرعتا نحوه، داعبتاه قليلًا، ثم واصلتا كتابة الخطابات.

وبعد عدة أشهر خرج الثلاثة مجتمعين من البيت، واستقلوا الترام إلى خارج المدينة. كانت الشمس تبث حرارتها في كل أنحاء العربة التي

يجلسون فيها. جلسوا منبسطين على المقاعد، يتحدثون عن خطط المستقبل. لم يبدُ مستقبلهم القريب سيئًا تمامًا، فكل منهم لديه وظيفة جيدة للغاية ومستقرة لفترة قادمة، وهو أمر لم يتكلما فيه بعد. ويعتبر تغيير الشقة هو أفضل وأسرع وأسهل محاولة لتحسين الوضع. سيأخذون شقة أصغر وأرخص، في مكان أفضل، وتكون عملية أكثر من شقتهم الحالية التي اختارها رشيهورش يوم ما. نظر السيد سامسا وزوجته إلى ابنتهم التي تزداد حيوية يومًا بعد يوم، ثم خطر لهما أنها في الفترة الأخيرة رغم كل المعاناة التي تركت آثارها على وجهها الشاحب أصبحت فتاة جميلة وعامرة الصدر. التزما الصمت وهما يتبادلان سرًا نظرات ذات مغزى، وفكرا في أنه حان الوقت كي يجدا لها زوجًا طيبًا. وعندما نهضت الفتاة وانتصب جسدها النابض كان هذا بمثابة تأكيد لأحلامهما الجديدة ولصدق نواياهما.

المحتوى

فرانز كافكا (3 يوليو 1883 - 3 يونيو 1924)

كاتب تشيكي كتب بالألمانية، هو من أعظم كتاب الحركة التعبيرية ورائد الكتابة الكابوسية. لا يعد "فرانز كافكا" من العلامات البارزة في تاريخ الأدب الألماني فحسب، بل في تاريخ الإنسانية. فهو أحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة. تعلم كافكا الكيمياء، والحقوق، والأدب في جامعة "شارل" في براج. ولد لعائلة يهودية متحررة، شقيق لولدين وثلاث بنات. كانت الألمانية هي لغته الأم، كما تحدث أيضًا بالتشيكية والفرنسية. لم يكن يجيد اللغة العبرية رغم أنه كان يهوديًا. تعلم العبرية الحديثة على يد المدرس "موردريخاي لانجر". عمل موظفًا في شركة تأمين حتى تقاعده المبكر في عام 1922. أمضى وقت فراغه في الكتابة الأدبية التي رأى فيها هدف وجوهر حياته. نشرت القليل من كتاباته خلال حياته، لكن معظمها نشر بعد وفاته على يد صديقه المقرب "ماكس برود"، الذي لم يستجب لطلب "كافكا" بإبادة كل كتاباته.

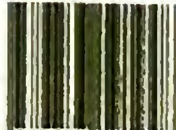
كانت حياته مليئة بالحزن والمعاناة، بما في ذلك علاقته بوالده. فـ"كافكا" كان مثقفًا مرهف الحس، وقع تحت حكم والد مستبد وقوي، وهو ما ترك تأثيرًا كبيرًا على طفولته، وظهر في رسالة طويلة كتبها بعنوان (رسالة إلى أبي). ظهرت آثار هذه العلاقة بصورة خاصة في رواية (المحاكمة) حيث تقبّل الشاب حكم الموت الذي أصدره عليه والده ومات غرقًا.

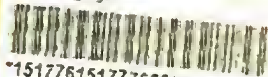
أصيب "كافكا" في عام 1917 بمرض السل، وقضى جزءًا من حياته متنقلًا بين المصحات العلاجية في التشيك وسلوفاكيا والنمسا وألمانيا، إلى أن توفي في النمسا عام 1924. ورغم وفاته المبكرة في سن الأربعين، إلا أنه استطاع بأدبه السوداوي وكتاباته عن سعي الإنسانية إلى الله والعدالة، أن يترك بصمة في الأدب الإنساني العالمي بالإضافة إلى معاناته التي ترجمها في كتاباته.

يأتي هذا الكتاب في إطار مشروع ترجمة الأعمال الكاملة لـ"كافكا". وقد بدأ هذا المشروع عام 2014 بمناسبة بمرور تسعين عامًا على وفاته. تضم الأعمال إعادة ترجمة لأهم ما كتبه "كافكا"، وكذلك قصصًا تنشر لأول مرة باللغة العربية.

تصميم الغلاف: محمد







www.alarabipub...